رواية

ملنخُوليا

أنت أو لا وطن

مراد الضفري

مراد الضفري

ملنخوليا أنت أو لا وطن

رواية

رواية رومانسية-سياسية تطرح بواسطة سرد شاعري وفلسفي الصراع الوجودي لدى الشباب العربي مع قضايا الوطن، الهوية، الانتماءات السياسية وقصص الحب التي سرعان ما تفشل أمام تأزم الشخصية وتراكم تناقضاتها.

في أحداث الرواية تتناوب شخصيتين بطلتين على السرد، الأولى شخصية "ليلى"، التي تحكي عن تبعات فشل قصة الحب التي جمعتها مع حبيبها الذي غادر إلى فلسطين حالما بالنضال المسلح والدفاع عن أفكاره القومية والتحررية ثم لا يلبث أن يعود متخما بجراح الأمس ويدخل في دوامة صراع نفسي مع مفهوم الوطن والحب وجدوى الحياة. حالة الضياع التي يعيشها حبيب "ليلى" ستدفعها إلى النضال من أجل وطن جديد وواقع يناصر آمال الشباب وأحلامهم من خلال انضمامها لحركة "نحن نستحق"، حركة سياسية جماهيرية تطالب بتغيير الأوضاع الثقافية والسياسية في بلدها المغرب. في خضم الآمال الجديدة ستفكر في العودة إلى حبيبها لكن الطريق أمامها كانت مليئة من جديد بالانكسارات واهات الحب الأبدية!

الشخصية الثانية هي شخصية "طارق" حبيب "ليلى" الذي خرج من الجامعة محملا بأفكار قومية عربية ثورية رمته بعيدا عن الواقع وأزمت شخصيته اتجاه الوطن والحياة. في البداية ترك الحب بحثا عن النضال والمقاومة المسلحة في فلسطين لكن الفشل في معانقة الموت الجميل هناك سيدفعه للعودة من جديد بحثا عن الحب. بعد فشل قصة حبه مع ليلى سيجد الحب الممنوع في أحضان فتاة إسرائيلية لتبتلعه دوامة العبث والصراعات النفسية التي ستظهر بعمق تناقضات الشخصية العربية. في الأخير سيجد طارق نفسه أمام الخيار الأخير: البحث عن الخلاص!

فضلا عن قصة الحب الأفلاطونية التي جمعت الشخصيتين البطلتين، رواية "ملنخوليا" تسلط الضوء على مجموعة من المواضيع الفلسفية والسياسية كالماركسية والوجودية والقومية العربية والأناركية وتضع القارئ العربي أمام السؤال الكبير والأساسي ألا وهو "سؤال الذات".

ملنخُوليا

رواية لمراد الضفري

كاتب وروائي من المغرب

رواية

مَلَنْخُوليا

أنت أو لا وطن

مراد الضفري

مَلَنْخُوليا

أنت أو لا وطـن

المؤلف: مراد الضفري

الطبعة الأولى: مارس 2018

الطبع: شمس برانت – الرباط

الإيداع القانوني:

ردمك:

إهداء

إلى من فَقدتُ برحيلهم أجملَ رفقةٍ في الحياة،
إلى روح جمعة بجداد وأحمد بوزكية ...
رحمةُ الله عليهما.

ما هو الوطن؟ ليس سؤالا تجيب عليه وتمضي ... إنه حياتك وقضيتك معاً.

محمود درويش

السعادة الأبدية هي الخلاص.

سورين كيرجارد

"ستقولين لي لمَ الانتحار؟ سأقول لكِ لمَ الحياة؟"

كان هذا سؤالهُ الذي شغل بالي طويلا بعد انتحاره، دون أن أجد له جوابا، دون أن أجد له ذريعةً يُواصل بها الحياة ويحتالُ على مأساته مع الوطن والحب. ولأن "طارق ولد الخيل" لم يعد بيننا كما كان، ارتأيتُ أن أنشرَ مُذكراته التي تركها لي مع مذكراتي عسانا ندفِنُ معا وإلى الأبد حكاية مأساة جيلٍ كاملٍ مع الوطن والحب والقضية... هذه الحكاية.

ليلى المرابط

ليفيس، كندا. 14 تشرين الأول/أكتوبر 2017

هيفيستوس

1

الرباط -21 كانون الثاني/يناير 2015

أيُّ تعويذةِ إلهٍ جعلتكَ تختبئُ في أكوام القَدرِ ذاك المساء، عندما تعثر قلبي بحروف اسمكَ؟ فسقط شهيدا تنعيه السماء لرواد القمر وتبكيه بدموع المطر!

أذكرُ كيف ابتسمتَ حينها وأنا أنحني لأزيلَ غبار اسمكَ من على ركبتيَّ، كي أمضي في ثنايا الزمن مجردةً من اسمكَ المجيد ومن قلبي الشهيد. سمعتكَ حينها تهمسُ لي: "أنا مَلكُ عرشكِ بعد الآن، امضي يا مسكينة فلا بيعة ولا ولاء لكِ إلا لي".

ومَضيتُ، مَضيتُ دون أن أكترث لهذيانكَ الصادق وقتها، صدّقتُ فنجان قهوتكَ إذ ينوء بلثم شفتيَّ، صدقتُ ملامحك التي تتعمَّدُ كل مساءٍ بنهديَّ وما صدقتكَ... لم أكن أدري أنني سأشعلُ قلبي احتفالا بعيد عرشك المجيد طيلة أربعينَ سنةً من عمري، وأني سأعتكف في زوايا قصرك أنتظر خطاب العرش وإملاءات القدر قبل أن أنحني راكعةً كجموع العبيد المتعثرةِ باسمك في أكوام القدر وأنا أصيحُ ممرغةً شفتيَّ في حبرِ يديك: "الله يبارك في عمر اسمكَ يا سيدي".

ها أنا أقفُ من جديد في صالة انتظار الحب، يملؤني وجع الانتظار وآهاتُ الفراق المتكرر... أنتظرُ رقمي على شاشة الانتظار، لعلَّ القدر يحالفني في أي ثانية ويمنحني الخلاص بالارتماء في أحضان من أحبه إلى الأبد.

لكن، ما من قدرٍ إلى الأبد جمعني بطارق. هذا الرجل الذي دخل حياتي كجيشٍ عسكري نثرَ عليها جنوده ومتاريسه وأعلامه ليعلنَ احتلالي إلى الأبد... لا شيءَ أجدتُ انتظاره طيلة أربعينَ سنة من عمري سوى قصةُ حبٍ شاردة جمعتني به.

كانت عقاربُ الساعة في يدي تتدللُ مشيرةً إلى الثالثة إلاَّ ربع بعد الزوال. اقترب دوري لأخذ تذكرة من موظف محطة القطار الدار البيضاء الميناء التي اكتست حلةً جديدة وكأنها تغمز لي قائلة: وحدكِ تسيرينَ بحلتكِ القديمة.

- إلى أين سيدتي؟

- الرباط، ذهاباً وإياباً من فضلك.

وأي مدينة يحلو فيها الحب على ضفافك يا طارق غيرُ الرباط، تلك المدينة المتجبرة التي تَلفظُني عنكَ في كل مرةٍ نُقررُ فيها العودة إلى بعضنا إلى الأبد...

- في أي ساعة تريدينَ العودة سيدتي؟

بدون تفكير أجبتُ موظف المحطة:

- في آخر قطار...

نعم، القطار الأخير هو الذي يُفرِّقنا، نركب كل القطارات سويةً، نعبرُ كل المحطات معاً. وحدهُ القطار الأخير لا نركبه معاً...

عندما انطلق القطار دافعا جسدي إلى طارق، بدأ شريط قصتنا يمرّ خاطفا كالصور التي تمر متسارعة على نوافذ القطار.

أسعد يومٍ عشته معه، كان قبل أربع سنوات عند عودته من فلسطين منهكاً بقصص الحرب والموت والبحث عن الوطن، تركَ كل شيء وعاد لي. ترك عروبته الجريحة بوطنٍ مجزئ يعشقُ الشتات، ترك وطنه الغائب في اللامكان وعاد لي.

عندما هاتفتهُ في فلسطين قبل مجيئه حينها، قال لي: "سأعود فقط من أجلك يا ليلى". كانت هذه العبارة كافيةً لأغرقَ في بحر الآمال ومشاريع الحب.

انتظرته عند عودته حينها بمطار محمد الخامس، أزفُّ نفسي إليه بثوبٍ أبيض في ساحة انتظارٍ كُتبَ عليها "Terminal 2" وكأن النهاية أسدلت فعلا على فصول الفراق وقدرِ الرحيل والعودة.

عانقتُه بقوة، فصرخَ ممسكاً كتفه الأيمن:

- على مهلك يا مجنونة، كتفِي مصاب

لم أكترث، عانقته، مرَّغتُ حواسي في رائحة عرقه، ضممته إلى صدري... لو كنتُ أستطيعُ حينها لأدخلته في ثنايا جسدي وخبأته للأبد. لم أكن أعرف أن القدر سيسرقهُ مني مرةً أخرى. لكنَ طارقَ لم يكن سوى حبٍ يأتي إليَّ ليغادرني... ويغادرني ليأتي إليَّ، حبٌ فوضوي، أحمق بلا منطقَ، بلا مشروع، حبٌ سرمدي بلا بداية وبلا نهاية.

أمضينا شهر عسل كمتزوجين دون زواج، أحيينا كل ذكرياتنا، منذ أيام الجامعة إلى أيام مغادرته للقتال في قطاع غزة. أعلنَّا عودة قصة حبنا للجميع، لشوارع الرباط، لأمسيات شالة والوداية وحسَّان ولكل رفاقنا القوميين العرب. لم يَعد طارق رهينةً لمأساة الوطن ولنزوات الحب التي جمعته بالبورجوازية زهرة أو الإسرائيلية أماليا أو حتى الفلسطينية سلوان... كنتُ أنا عنوانه الأول والأخير في دروبِ الحب.

كانت سعادتي بالغة بعودته، لدرجة أنني قررتُ منحه جسدي بدون حواجز، بدون تحفظ، بدون حبوبٍ تقتل بذوره في جسدي وتلفظها بخارجه... أبدا، ما عاد مكان طارق بخارجي.

في الليلة التي وددتُ إخبارهُ أنني حاملٌ منه سأعثر على دفتر مذكراته، ترددتُ في قراءتها لأنني تعلمتُ احترام خصوصية طارق، لكن الفضول غلبني في النهاية... قرأتُ كل صفحات مذكراته المؤلمة، استصغتها لأنها من الماضي إلا ورقته الأخيرة التي كسَرت آمالي في بناءِ عشٍ هادئ معه:

"عدتُ لليلى نعم، لكنني عدتُ جسدا بلا روح. سقطتْ روحي شهيدةً على أرض فلسطين بعد أن أعياها الوطن وأحلامي المتكسّرة. عدتُ جسدا تتقاذفه الأيام، لا أنا ولا أي شخصٍ آخر. لن أستطيع إنجاب أبناءٍ من ليلى برغم حبي لها، لن أستطيع منحها الاستقرار الذي تريده وأنا أشعر بحياتي مليئة بالدمار والفوضى كساحةِ حربٍ مع القدر".

خطفني من شريط الذكريات صوت مراقب التذاكر الذي كان يقرعُ الكراسي بآلة حديدية تشبه المقص معلنا اقترابه لمراقبة التذاكر. خطفتُ حقيبة اليد لأبحث عن تذكرتي، ما إن أغرقتُ رأسي في الحقيبة حتى سقطتْ قطرة دمعٍ ظلّتْ ترقصُ بمقلة عيني طويلا.

مددتُ التذكرة لمراقب التذاكر، بينما كان يتحققُ من التذكرة لمحتُ الرجل الذي يجلس بالمقعد المقابل لي يسرق النظر إلى ساقيَّ العاريتين. تساءلتُ في صمت إن كانا لا يزالان مغريان حتى في سنِ الأربعين ولعنتُ الكبت الجنسي الذي يعانيه رجال هذا الوطن الذينَ غدوا يلهثون وراء النساء في كل الشوارع. أعدتُ التذكرة إلى حقيبتي وغرقتُ في صمتي. الصمت الذي لا يُسمَعُ فيه إلا صوتُ عبور القاطرات على سكك الحديد، صوتٌ مزعج لكنه أقلُّ إزعاجاً من صراخ الذكريات.

في تلكَ الليلة، قررتُ تركَ طارق. قررتُ أن أغادره كما كان يغادرني في كل مرة ويعود إليَّ، لكنني غادرته دون مشروع للعودة. كيف أعود لجسد رجلٍ دون روح؟ كيف أعود لرجلٍ يقتات على فوضاه وضياعه؟

غادرتُ لرجلٍ آخر، تزوجته كي أهرب من طارق ونسبتُ إليه طفلتي "ليال"، أعمى الغضب حينها قلبي، وعاقبتُ طارق بكل قسوة. حرمتهُ من أحضاني التي كانت مُشرعة له بلا أقفال، حرمتهُ من ابنته، حرمته من حبي ومن كل شيء... كان ضائعاً وزدتُه ضياعاً وتِيهاً دونَ أن يعلمَ أسباب رحيلي. ظننتُ أنني سأنهي وجود طارق في حياتي بجرةِ قلم على كتاب القدر. هكذا بكل سهولة، وكأنه كان طَفْحاً

على جلدي أداويه بالكحول وبعض الماء كما قال نزار قباني. لكنني كنتُ مخطئة. لم أكن أعِي إلى ذلك الحين أنني متورطةٌ في هذا الرجل حدَّ الضياع والوجع. وأن برحيلي عنه سأصبح على شفير الجنون.

نعم، أصبحتُ مجنونةً بعد رحيلي عنه، غدتْ ذكرياتي معه تجتاحني في كل حين لتُشتّتَ فكري وتُغرقني في شرود عميق وكأنني معزولة عن كل ما يُحيط بي. بدأت أعراض الاكتئاب تتملكني بقوة لدرجة أنها عقَّدت علاقتي مع "جلال" زوجي، الذي بدأتُ أرى فيه رجلا غريبا، مغتصباً يحتلُ مكان طارق في حياتي. تأثر عملي في المعهد الكندي الذي أُدَرّسُ فيه أيضاً بسبب شرودي الدائم في الفصل. بكل بساطة، فقدتُ الشهية في حياةٍ لا يوجد فيها طارق وغدوتُ تائهةً لا أدري من أكون بدونه.

أما هو، فكعادتِه يُجيدُ الرحيل والفوضى، غادر يلملمُ وحدتهُ إلى حضنٍ جديد. عاد إلى الإسرائيلية أماليا، يبحث عن حبها وحنانها وسط ألغام التاريخ والسياسة التي تُفرّق بينهما، لكنها كانت أذكى منهُ هذه المرة. اشترطتْ عودة علاقتهما بزواجه منها، لترميه لتردده في اتخاذ القرار بأن يكون لها أو لا يكون.

بمجرد ما وضعتُ قدمي على أرض الرباط اجتاحتني رائحة الشوارع التي مشيتُ فيها رفقةَ طارق أزيدَ من عشرين سنة. كل دروب الرباط وأزقتها تعرفنا، في كل معالم الرباط زُرعَ حبنا بذرةً بذرة. في قصبة الوداية صَاحَبْنَا عناق الأطلسي لأبورقراق على نكهة الشاي المنعنع بأحلامنا، وفي قصبة شالة رقصنا تارةً على أنغام اللقالق الوفية لأعشاشها التاريخية وتارة على أنغام الموسيقى الروحية لموازين، في سينما النهضة وساتيامار والرويال سرقنا القبل تحت جنح الظلام كهاربين من شيوخ القبيلة، وفي حسان وأكدال والمحيط وباب الأحد تُهنا ككل راكبي أمواج الحب مع تيار البحر لننتهي بلطم صخر الحياة.

وها هو شارع محمد الخامس يسيرُ بي مرةً أخرى إليه، هذه المرة لأحتفلَ معه بعيدِ ميلاده الأربعين. بعيدِ ميلادنا الذي يحلُّ كل سنةً ليجد حبنا أطلالا وأشرعةً خانتها الرياح. ها أنا أدخلُ مجددا من باب مقهى ساتيامار كما كنتُ أفعلُ قبل سنوات عندما كنتُ ألوذ إليه في كل صباح كي نفطرَ معا ونبني أملا للبقاء بعد كل مساء.

وها أنا أرتبكُ مجددا وأنا أقف أمامه وملامحه تبتسم لي كنسمةٍ جميلةٍ في ليالي الصيف تدعوني من جديد إلى جرعةِ عناق.

2

الرباط -21 كانون الثاني/يناير 2015

منذُ لقائنا الأول صَارت عيناكِ محبرةً لقلمي، صِرتُ بأكملي تاريخاً من الكلمات ورسوماتُ حبرٍ على ورقٍ أحمق لا بداية له ولا نهاية. لا أعتقدُ أن هناك رجلاً سيؤمنُ بمعاهدات السلام بعد لقائكِ... فاسمكِ يا ليلى أكبر دعايةٍ للحرب وعيناكِ رصاصتا حبٍ قديم.

كم "عاصفةُ حزمٍ" ستكفيني لأُدمرَ سُلطةَ اسمكِ وحبكِ على قلاعيَّ القديمة؟ ... وكم من قصفٍ صاروخي على قلبكِ سيكفي ليُعيدكِ إلى طاولة الحوار، حيثُ الكلمة تكون شقيقة القبلة، حيث بقايا الشّجار بيننا تكونُ آثار أحمر شفاهٍ مبعثرٍ هنا وهناك، تفضحُ خطيئتنا المغطاةِ بظل القمر وأجسادنا المعطرةِ بعرق الحب وليالي السهر. كم أنا تعيسٌ، لا تحالف لي، لا إخوةَ يمدونني ببيانات دعمٍ وجيوشٍ تُعيدُ حبيبتي الوحيدة... ولأنني مجازٌ ولدَ على هامشِ القصيدة، ستظلُ ليلى القافية وأنا الرهينة.

كنتُ جالسا بمقهى ساتيامار أنتظر أن تجلسَ من جديد أمام عينيَّ بعد أن غابت عني سنةً كاملةً، منذ عيد ميلادي السابق. آه يا ليلى، من كان يظنُ أن بعد قصةِ حبنا الموجعة تلك سنلتقي فقط في الأعياد لنجترّ حكاياتنا القديمة ونفترق من جديد؟

عندما لمحتها تدخلُ من باب المقهى ابتسمتُ معلناً عن حلول فصل الربيع بقلبي، على أمل ألا يكون كالربيع العربي الذي حصدنا فيه عِوض الورود، حربا وخراباً.

سألتني قاطبةً حاجبيها وهي تقفُ أمامي كراهبةٍ غادرت للتو صلاتها:

- لم تبتسم؟ هل يفوتني شيء ما؟

أجبتها وعيناي تسبحان في مياه عينيها:

- فقط تذكرتُ كيف كنا نلقي على بعضنا تحية "مجنونِ ليلى قيس بن الملوح" بعد طول غياب أيامَ الجامعة.

طأطأتْ رأسها، وكأنها تخفي ملامحها عني أو تلوذ بالفرار من لحظات عشقنا القديم لكنها أسرعتْ في رفعه وصاحت كأنها تُذَكّرُني أنها لم تنسَ تحيتنا أبدا رغم كل ما مضى:

- لمَّا تلاقينا على سفح رامةٍ...

أجبتها متأثراً:

- وجدتُ بنانَ العامريةِ أحمرَ، فقلتُ خضبتِ الكفَّ على فراقنا؟

ردَّت عليَّ:

- معاذَ الله ذلك ما جرى، ولكنني لما وجدتكَ راحلا بكيتُ دماً حتى بللتُ به الثرى.

حملت يداها إلى وجهي ثم أردفت:

- مسحتُ بأطرافِ البَنانِ مدامعي، فسارا خِضابا في اليدينِ كما ترى...

تدافعت كلماتُ ليلى متسارعةً وهي تختنقُ وسط دمع خفيف انهمر على خديها بتباطؤ بعدما بلّلَ رموشها بندى كحلها الأسود. وقفنا صامتين، ورغبة حارقة تدفعني إلى صدرها من أجل معانقتها والهمس في أذنيها "توحشتك أ ليلى"... لكن ليلى لم تعد لي الآن، صارت لرجلٍ آخر منحها بيت الزوجية وطفلة وأشياء لم أستطع منحها إياها.

مددتُ لها يدي للسلام عليها بكل تحفظ، لكنها كانت أكثر شجاعة مني... تركتْ يدي متسمرة وارتمت على صدري لتحضنه بكل حرارة. ضغطت بنهديها العامرين

على صدري، كنتُ أشعر بدقات قلبها تصدح كصوتِ كَعبِ خيلٍ يَلطمُ ويرقصُ على إسفلت شارعٍ قديم، يبدأ عند اسمها وينتهي عند اسمي.

آه يا ليلى، اشتقتُ لرائحة شعركِ، اشتقتُ لضمةِ صدرك ووجودك المربك في حياتي، اشتقتُ لبعضك ولكلّك... لكن ما بي لا أستطيع البوح لك بمشاعري وباشتياقي الآن؟ ما بي أخرسُ؟

مسحتْ دموعها بمنديل ناعم تحمله في يدها اليسرى ثم جلست قبالتي تنظر لوجهي، تنشر نظرها تارة على عينيَّ، وتارة أخرى على شفتيَّ وشعري... أكانتْ تتفقد ملامحي إن كانت قد تغيرت عنها؟ أم أنها نستها يا ترى؟

أما أنا فكيف لي أن أنسى ملامحها؟ كيف لي أن أتوه على دروبِ وجهها؟ وأنا من كان يسرق بشفتيه الكلمات من ثغرها، أنا من كان يركض لأنفها كي يغسل رئتيه بأنفاسها، أنا من كان يصلي في محراب عينيها صباح مساء ليثوب من خطايا الحب.

لازالتْ كما هي، لا شيء تغير في وجهها، تجاعيدٌ صغيرة حول جبينها فقط، دون ذلك، ليلى التي عرفتها قبل عشرين سنة هي نفسها الجالسة أمامي الآن. ليلى الطالبة التي كان صوتها يصدح وسط حلقيات الجامعة دفاعا عن أفكارها الثورية وعن البروليتاريا هي ذاتها الفتاة العنيدة التي دافعت عن الفكر القومي العربي ووحدة العرب، هي ذاتها الآن الأستاذة الهادئة والمتزنة في معاهد كندا وأمريكا... وهي دائما المرأة التي أحببتها دون قيود. المرأة التي ألْبَسَهَا القدر فستانَ الحب الأبدي ووضعها في طريقي لتُحيلَ قلبي ماركةً مسجلةً باسمها.

صاحت مبتسمةً في وجهي:

- مرَّ عامٌ إذن...
- عامٌ على ماذا؟ على ميلادي السابق؟ على آخر لقاء لنا؟ أم على خيبتي؟

- على آخر لقاء لنا، أما خيبتك فعمرها أربعون سنة.

- معكِ حق، خيبتي تساوي عمراً بأكمله.

حضر نادل المقهى، أنقذني من ورطة البداية والارتباك الذي يأتي معها، أمعقولٌ أن أرتبك وأتلعثم كلما التقيت ليلى بعد طول غياب؟ أمعقول أن تبقى لقاءاتي مع ليلى وفيةً لمشاعر الحب في أيامه الأولى ولقاءاته الحامية؟

- ستشربُ قهوة كعادتك؟

أجبتها بإيماءة رأسي وأنا سعيد أنها لازالت تذكر عاداتي الصغيرة، لكن سعادتي كانت أكبر عندما طلبت من النادل أن يُحضر لي فنجان قهوة من ماركة "نسبريسو" قهوتي المفضلة.

يا إلهي هي تتذكر كل شيء، تتعمد أن توغل بي في ذاكرة حبنا الذي لا ينتهي ولن ينتهي.

طلبت هي عصير برتقال ثم أردفت قائلةً للنادل قبل مغادرته:

- من فضلك أريد أن أحدثَ نادية، هلا طلبت منها أن تأتي إليَّ؟

التفتت إليَّ بسرعة كمن تذكر شيئاً مهماً ثم قالت لي:

- على فكرة، ألم تتساءل أين رحل سعيد، أتذكره؟

- سعيد النادل؟

- نعم، سعيد نادل ساتيامار الذي كنا نُصبح عليه كل يوم أنا وأنت وعزيز قبل عشر سنوات...

- آه، أكيد أذكره... لكنني لم أفكر في السؤال عنه وأين رحل.

- اسمع يا سيدي، المجنون التحق مؤخراً بداعش.

أجبتها مستغرباً:

- سعيد التحق بداعش؟! دنيا عجيبة فعلا. ربما فقط طمعاً في جهاد النكاح ...

ابتسمت ثم غمزتني قائلة:

- بذمتك، أليس ذاك سبباً مغرياً لالتحاق الرجال بداعش؟

ضحكنا معاً بصوتٍ مرتفع ثم بعد ثوانٍ حضرت وهي تحمل لنا فنجان قهوة وكأس عصير البرتقال. ألقتْ علينا التحية بحرارة ثم سألتها ليلى دون صبرٍ على الانتظار:

- هل أعددتِ ما طلبته يا نادية؟

أجابتها الفتاة التي نعرفها أنا وليلى تشتغل منذ زمن كمشرفة في مقهى ساتيامار:

- نعم سيدة ليلى، سأبعثه لك مع النادل؟

- لا لا، ليس الآن من فضلك. بعد أن نشرب القهوة والعصير، شكرا.

قبل أن تنصرف نادية سألتني بفضول:

- لماذا لم نعد نراك كثيراً سي طارق، اشتقنا لك؟

أجبتها بخجل:

- فقط مع إكراهات الحياة يا نادية... شكراً لاهتمامك.

ردَّت عليَّ وهي تنظر إلى ليلى:

- شكرا لأنكِ أحضرته لنا اليوم سيدة ليلى.

انصرفت نادية بعد أن تركت ابتسامة خفيفة على شفتي ليلى... كانت تبتسم وهي تنظر إليَّ بخبث. أثارتني ابتسامتها فسألتها "ماذا هناك؟" فقالت لي:

- المسكينة اشتاقت لك...

- لا تبالغي، هي فقط تُجامل زبونا وفياً للمقهى...

- يا مراوغ، أنا أعرفك تفهم نظرةَ المرأة المشتاقة الولهانة.

- أي نظرة؟

- عندما تمتلئ عيون المرأة بقطرات دمعٍ خفيف وبريق ضوءٍ لامع ويصير صوتها خافتا رخواً عندما تقول "أشتاق لك" اعلم حينها أنها مغرمة بك.

أخفضتُ رأسي خجلا ثم عدتُ لسؤالها:

- ألازلتِ تغارين عليَّ؟

سقطَ سؤالي على مسامعها كرصاصة كاتمة الصوت. قتلتْ الابتسامة على شفتيها وأخفت بريق الفرحة من عينيها. ارتعشت أناملها وهي تلجأ لكأس العصير عساه يطفئ النار التي أشعلها سؤالي، تلك النار التي تداريها برماد الفراق والابتعاد عني لسنين. تلك النار التي أشم لهيبها الآن من شفتيها التي غطاها رذاذ البرتقال وهي تلثم الكأس كحبيب يرويها بعد أن كان هو الظمأ.

قالت لي بعد أن وضعت الكأس على الطاولة:

- ما عادت الغيرة تنفعني في رجوعك لي، ولا كل المشاعر التائهة في قاموس الحب. لقد اخترتَ طريقاً آخر غير تلك الطريق التي كنا نريد أن نمشي فيها معاً.

- من تركَ الآخر يا ليلى؟ من ضحى بحبنا وتزوج وأنجب؟

لم تُجبني، اجتاحت شفتاها رعشة بكاء سرعان ما أخفتها وسط ملامحها التي بدت عليها قسوة بالغة. تركت يداها تبحث عن سيجارة وسط حقيبتها، أحرقت رأسها وبدأت ترشف منها بشراهة الغارق في حزنه حدَّ الوجع.

قطعتُ صمتها قائلاً:

- خانتكِ كلماتك كما خُنتِ عهدنا...

أجابتني مُستفزَّة:

- من فضلك يا طارق، دور الضحية لا يليقُ بك... أرجوك لا تُعكر لقاءنا الوحيد في كل سنة. أنتَ تعلمُ كم انتظرتك، أنت تعلم كم ضحيت لأجل أن تبقى معي، كي تكون لي إلى الأبد، عشرون سنة وأنا أحارب من أجل حبنا المستحيل هذا، والنتيجة ها نحن تجاوزنا الأربعين من العمر نجرُّ خيبة حبنا اللقيط، نجح القدر في آخر المطاف في تفريقنا وتحويلنا لأطلال تسكنها رياحُ الحب.

أخذت رشفة من سيجارتها ثم أضافت وأنا أنظر إليها بتأمل العاجز:

- أتتذكر العهد الذي قطعناه على بعضنا في الجامعة؟ عندما جَرَحنا أصابعنا ومزجنا دماءنا في منديل أبيض كالمراهقين وقلنا "سنبقى معاً إلى الأبد"؟ ماذا حدث بعدها؟ خرجتُ أنا من الجامعة أداوي ذكريات الاعتقالات والتعذيب بسبب الوطن الذي حلمنا به سويةً، كان أملي الوحيد حينها هو أنت، هو قصة حبنا فقط. أما أنتَ فقد خرجت مشتتا تائهاً لم ترَ أمامك سوى فلسطين والبندقية، غادرتَ إلى فلسطين وتجاهلتني، نسيتَ قصة حبنا. فكرةٌ واحدة كانت تغريك حينها: الموت برصاصٍ إسرائيلي والخلاص من مآسي الوطن والعروبة.

كانت كمن يصفي حسابه مع ألم الحب، تتكلم بسرعة وتضغطُ على الكلمات كي تدفعها لي من على هاوية شفتيها، ظلّت تقول كلاما كثيراً لم أسمع منه إلا آهاتها المغلّفة في ثوب العتاب.

- وبعد أن فشلت في الموت المرة الأولى والثانية والعاشرة أصبحتَ جسدا فارغا من أي روح، من أي أمل في الحياة، كنتُ أقول لنفسي لا عليك يا ليلى سيرجع طارق كما كان، عليكِ أن تبقي بجانبه هو يحبكِ كما تحبينه... يلزمه فقط الوقت ليلملم جراحه. لكنني كنتُ غبية، عوض أن تعودَ لحبنا أحببتَ فتاتك الإسرائيلية تلك، أماليا، بعد ثلاث سنوات على علاقتكَ معها عدتَ لي من جديد تجرُّ خيبتك، قلت مع نفسي كانت نزوة وتخطاها لكنني كنتُ أشعرُ بك مختلفاً غريبا عن ذاك الرجل الذي أحببته داخل أسوار الجامعة. ثم عدتَ من جديد لخيانة حبنا، أحببتَ زهرتكَ تلك وما إن فشلت قصتك معها حتى لجأتَ إلى فلسطين من جديد بحثا عن موتك الجميل وسط أزيز الرصاص وقصص النضال العربي. حتى هناك خنتَ حبنا وأحببتَ سلوان ابنة خان يونس. أليس صحيح ما أقول؟

توقفتْ لتنظر إليَّ بعينيها الدامعتين ثم قالت لي:

- اشرب فنجانك، قهوتكَ ستبرد...

أشاحت ببصرها بعيدا عني، كانت كمن يستجمع كلماته ليضعها على رشاش لسانه. ثم عادت لتقصفني:

- عندما عدتَ آخر مرة من فلسطين، انتظرتك في المطار بفستانٍ أبيض كي أقول لك حان موعد إسدال الستار على فراقنا. وحده اللون الأبيض الذي كنتُ أراه عند عودتك، كنتُ أشعر أنها عودتك الأبدية لي. لقد وعدتني أن تعود لي ...

استدركتُ صوتي هذه المرة مقاطعاً كلامها:

- فعلا وعدتكِ وعدتُ لكِ... لتغادريني بدورك إلى رجلٍ آخر.

صرخت وهي تبكي:

- لأنك عدتَ جسدا دون روح، دون أحلام، دون آمال... في كل مرة كنا نضحكُ فيها، أو نرقص أو نتحدث أو نمارس الحب كنتُ أرى عينيك المنكسرتين وقلبك الأجوف الفارغ ...

غرقت في دموعها هذه المرة مع صوت بكاء عالٍ أثار فضول من كان يجلس بمحاذاتنا. لم أستطع قول شيء أمام ما قالته ليلى. لمتُ لغتي وأشلاء صوتي على لساني واستسلمت لنارها ولبكائها قائلا:

- معكِ حق يا ليلى في كل ما قلتهِ، أنا المذنب الوحيد في قصتنا... تباً لي.

نهضتْ بسرعة وهي تغالب دمعها مغادرةً الطاولة، تَبِعتُها بنظري حتى اختفت في آخر الطرقة التي تتوسط المقهى. خمنتُ أنها ذهبت للحمام كي تُصلح كحلها الذي أمطر وجنتيها بدموعٍ سوداء ولتهرب مني دقائق معدودة لتستكمل موجات بكائها الجارفة.

أي قدرٍ أحمق حطم قصتنا يا ليلى؟ ... وحده القدر تسلط على قوانين اللغة والحروف في قصتنا، فزرع في كلمة "حب" "راءً" بين الحاء والباء فغدونا عشيقين في ساحة "حرب"، نتقاتل بأسلحة الشوق والهوى تارة ونهادن بعضنا تارة أخرى بمعاهدات وقف إطلاق القبل ورسائل الغرام... هل كان للقدر أصابعا نحتتكِ حصان الحب الخشبي حيث كنتُ أنا طروادة شهيدةَ مكرِ الحب وخداعه؟

ها هي ليلى استعادت ابتسامتها وطلتها الباهية، تدلفُ بخطوات سريعة إليَّ وكأنها اشتاقت لي... قبل أن تجلس على كرسيها قصدت خدي ومنحته قبلة سريعة وهي تقول: "سمح ليا، راك عارفني دغيا كنبكي وعصبية معاك بالأخص". ثم جلست وابتسامة عريضة تعلو شفتيها في الوقت الذي غرقتُ فيه أنا في أنفاسها وعطرها الملتصق بخدي.

قالت برغبة تلطيف لقائنا:

- اشتقتُ إليك

أجبتها مبتسماً:

- وأنا كذلك عزيزتي. ما أخبارك؟

- لا جديد يذكر، بينَ مشاغل التدريس بالمعهد الكندي ومشاغل البيت. أحيانا أمرُّ على مطبعة والدي رحمه الله لأشم رائحته، هذا كل شيء.

- تأتين للرباط كي تزوري مطبعة والدك ولا تزورينني يا لئيمة؟

أخفضت رأسها ثم لاذت بالصمت. لم أعرف ما دار في ذهنها حينها، ربما أرادت أن تُجنِّب حوارنا نقاشاً آخر يُعيدها للبكاء ويعيدني للحزن. استدركتُ كلامي بسرعة قائلاً:

- وليال كيفَ هي؟

لمعتْ عيناها وهي تُجيبني:

- إنها تكبر بسرعة ما شاء الله وأصبحت شقية.

- لماذا لم تُحضريها معكِ لأراها، تخيلي رأيتها مرةً واحدة، عند ولادتها فقط.

أجابتني بصوت تائه:

- صحيح، أنتَ لم ترها سوى مرةً واحدة.

ثم أردفتْ بسرعة وبحماسة:

- لكنني أحكي لها عنك دائماً، بالرغم من أنها لازالت في بداية سنتها الثالثة، إلا أنها تنطق اسمك بطلاقة.

- صحيح؟ تناديني طارق.

أجابت بعينين لامعتين:

- تناديك بابا طارق.

ابتسمتُ في وجهها متأثراً ثم أكملتْ قائلةً:

- لطالما تمنيتُ أن يكون لي ابناً منك، عندما وهبني الله طفلتي أسميتها على الاسم الذي كنا نرغب أن نسمي ابنتنا الأولى به، أتذكر؟ لذلك أنا أشعر دائما أنها ابنتك وليست ابنة زوجي جلال.

- أرني صورها.

- للأسف لا أحمل صورا لها على هاتفي.

رسمتُ ملامح تعجبٍ غريبة على ملامحي فاستفزَّتها قائلةً:

- ما بك؟

- أشعر وكأنكِ تخفين صور ليال عني، في كل مرة أطلبُ فيها صورها تتحججين بكونك لا تحملينها معك، وعندما أطلب منك رؤيتها على الكاميرا في الأنترنت تقولين لي دائما أنها نائمة أو غير موجودة، فضلاً على أنك لا تُحضريها معكِ للقائي. أشعر أن الأمر مريب!!

- كفاك تهيؤات، ليس في الأمر شيء مريب. المرة القادمة سأحضرها معي.

أجبتها متلهفاً:

- تعدينني؟

ردَّت عليّ بارتباك واضح:

- حسناً، أعدك.

صمتت لثوانٍ ثم حملت رأسها لتسألني مبتسمة بلهفة:

- قل لي، ألا تُفكر في الزواج وإنجاب أطفال، أنتَ في الأربعين من عمرك سيفوتك القطار يا عزيزي.

تنهدتُ وأنا أجيبها:

- سأجيبك بما قاله "هاني النقشبندي"، "ليس مهما متى نتزوج، بل من نتزوج؟ الكثير يعتقد أن القطار فات، فليذهب القطار إن شاء إذا كان الثمن هو الذهاب لوجهة لا نريدها".

- وأماليا أليست بالوجهة التي تريدها؟ ألم تعد لها وهي التي طلبتْ منك أن تتزوجها؟

- نعم، عدتُ لها لأنكِ تركتني وحيدا، مشتتا، أنا في حاجة للحب كي أصبر على ألم الحياة والقلق الأنطولوجي الذي أعيشه يا ليلى. لكنني لا أستطيع الزواج من أماليا.

- لكنها وضعتك في مأزق كما قلتَ لي، إما أن تتزوجها أو تُغادرك؟

- صحيح، ولا أدري ما عليّ فعلهُ.

- هي امرأة متميزة أنصحكَ بألا تفوت هذه الفرصة للزواج منها.

- أنتِ المرأة الوحيدة التي أشتهيها أماً لأولادي يا ليلى.

لم تُجبني، لاذت بالصمت للحظات طويلة قبل أن تغير الموضوع قائلةً:

- لم تقل لي ما أخبارك أنت؟

- ها أنتِ ترين... طارق هو طارق لم يتغير شيء فيه. الجديد أنني أصبحتُ مشردا، عاطلاً بلا عمل بعد أن كنتُ بلا هوية ولا وطن ولا أحلام. أصبحت حياتي مسلسلا من اللاءات يا ليلى.

- محنة وستزول يا طارق، الصحافة مهنة تحتاج من صاحبها أن يكونَ مستقراً وصافي الذهن. هذا ما لم تتمتع به منذ أيام الجامعة.

أردفتْ قائلة بعد أن لمحت ابتسامة سخرية على شفتي:

- لماذا لم تطلب من عزيز أن يجد لك وظيفة بجريدته؟

- أجننتِ؟! أنا أطلبُ من ذلك الخائن الجبان أن يُشغِّلني في تلك الجريدة المخزنية...

- طارق، يجب أن تنسى ما حدث، لقد اعتذر لنا عزيز. أنت تعلم أنه شخص لا يهتم بالمبادئ بقدر ما يهتم بمصالحه...

- أنسى ما حدث !! أنسى أن عزيز خان رفاقنا وتجسس علينا لصالح مخابرات النظام طيلة السنوات الأخيرة؟ جننتِ...

لم تُجبني طأطأت رأسها عندما أردفتُ قائلاً:

- أنتِ تعلمين يا ليلى أنني في هذه الحياة أمقتُ صفتين، لا أتصالح معهما أبداً: الكذب والخيانة. لا أعرف أصلاً كيف قبلنا بذاك الخائن رفيقاً لنا أيام الجامعة، وهو لا يهتم لا للعروبة ولا لليسار ولا هم يحزنون...

ظلَّتْ صامتة، تعبثُ بخصلة شعرٍ تدَّلت على قمةِ صدرها. تذكرتُ حينها مقالا قرأتُ فيه أن المرأة التي تلعبُ بخصلات شعرها عندما تكون جالسة مع رجلٍ هي في الغالب تُحبه. قلتُ مع نفسي وأنا أدفع أناملي إلى علبة السجائر كي أشعل لنفسي الغاضبة سيجارةً: "ليلى لا يمكنُ لها أن تحب سواي"

- لازلتَ تدخنُ بشراهة...

- بعد رحيلك عني يا ليلى أصبحتُ أشعلُ السيجارة بسيجارة...

- أتعلم؟ في كل سنة يغمرني الفضول لمعرفة أي الشعرات سيغزوها الشيب في رأسك. لكنني في كل مرة أجدك فيها أصلعاً أكثر...

- ربما الشعرات التي تتوقعين أن تصبح رمادية يأتي القدر بقرار إعدامها وتترك مكانها بقايا صلع. هكذا هو القدر، أحيانا يُبقي على ما نملك، يُغيره فقط من حال إلى حال، من لونٍ إلى آخر. أحياناً أخرى يأتي على كل ما نملك، يُجردنا من كل شيء، يُفرغنا، يُحيلنا إلى أشباح تائهة في هذا الوجود. هكذا جرَّدني منكِ...

- ربما لم أكن لك منذ البداية أو أنتَ لم تكن لي.

- بلى، كانت لنا معاً البداية، البداية فقط. لكن النهاية لم تكن لنا. قصص الحب لا تملك سوى البدايات، حيث يرسم الحبيب لحبيبه نصف قلب ويتعاهدان على البقاء دوما كما البداية. لكن الزمان يُجيد وحده رسم النهايات في قصص الحب.

ابتسمتْ بألم بادٍ على شفتيها وظلت صامتة. قبل أن أستكمل كلامي:

- يجب أن نستفيد من الرياضيات في قصص الحب، فهي تكترث فقط للنهايات في حساب الدوال، تضع القوانين والاحتمالات ومجموعات التعريف، تشحذ كل أسلحتها الرياضية للتكهن بالنهايات. الرياضيات والحب كلاهما لا يؤمنان بالبدايات، وحدها النهايات تصنعُ القدر.

- أحيانا أقول افترقنا لأنني لم أستطع إسعادك. كتلة الحزن التي تعشش بداخلك هزمتني، غادرتُك على أمل أن تُحب فتاةً تزرع الفرح بقلبك...

- وخاب أملك.

- وخاب أملي...

أتتنا النادلة بطبق حلوى كبيرة تسبح فوقها أربع شمعات، كان منظرها مغريا لكن ليلى كانت تبدو مغرية أكثر وهي تخطفُ حبة الكرز من على الحلوى وتضعها في فمها... بدت شفتاها ملطختين بالكريمة فأخذتُ منديلا ومسحت شفتيها بهدوء وهي تبتسم.

قاطعتنا النادلة متسائلةً بكل أدب:

- عيد ميلاد من؟

سبقتني ليلى إلى الجواب قبل أن تغمز بعينيها لي:

- عيد ميلادنا نحنُ الإثنين.

ابتسمت النادلة ثم قالت:

- حسناً، سأغني لكما رفقة زملائي happy birthday to you ثم تطفئان الشمع لنا.

قاطعتها ليلى بود:

- شكرا لك نادية، لكن طارق يُحب أن يقطِّع الحلوى والشمع مشتعلاً... هو يكره إطفاء الشمع قبل ذوبانه.

أجابتها النادلة وعلى وجهها ملامح الاستغراب:

- حسنا كما تريدان، عيد ميلاد سعيد لكما.

ما إن غادرت النادلة طاولتنا حتى همست لي ليلى:

- أقسم أنها أول مرة تسمعُ بشخصٍ يرفض إطفاء الشمع.

ابتسمنا معاً، وبعد لحظة صمتٍ ذابت فيها ليلى في نظراتي التائهة على ملامحها قالت بعذوبة بالغة دون أي تردد وهي تمسك بكلتا يديَّ.

- عيد ميلاد سعيد يا طارق، كل عام وأنتَ حبيبي.

هذه هي ليلى، تسحبني على غفلةٍ مني إلى مياه الحب. تَعِدُني أن مياهه ليست بعميقة فأترك نفسي تغوص بمحاذاتها آملا بعناقٍ أبدي لروحينا قبل أن تسرقها الأيام، وتغرقني مياهُ الحب في جوفها وحيداً.

- متى ستنسين تاريخ ميلادي يا ليلى؟ متى ستتوقفين عن صنع أو شراء حلوى لي كلما أقفلتُ سنةً من عمري وفتحتُ ذراعي لسنةٍ جديدة؟ قولي لي؟ متى لن تكوني هنا أمامي وأنا أشيخ بسنة وأنت تقولين في كل مرةٍ وفي كل سنة "كل سنة وأنتَ حبيبي"؟ ألا يمكنُ أن أبدأ سنة جديدة دون هذه الأمنية منكِ؟

ردَّت عليَّ وهي تنظر إلى شمع الحلوى أمامها:

- أنا وأنت فتيلتان لشمعة واحدة، نحترقُ معاً في جسد واحد. تختلطُ دموعنا عندما نبكي في سيلٍ واحدٍ، نعيشُ معاً عمراً واحداً من رأسِ الشمعة إلى أسفلها، اللهيب الذي يُشعلكَ يحرقني أيضاً والريح التي ستطفئكَ ستذهبُ بشعلتي أيضاً. فكيفَ تريدني ألا أحتفل معك بسنة جديدة من عمرك وهو عمرنا معاً؟ ماذا يساوي عمركَ وأنا لستُ فيه؟ وماذا يساوي عمري وأنت لستَ فيه؟

هذه المرة أنا من استسلم للبكاء وشفتيَّ المبللتين بالدمع سمعتهما ترتعشان قائلةً:

- عيد ميلاد سعيد يا ليلى، كل عامٍ وأنت حبيبتي... كل عامٍ وأنتِ وطني.

عند نهاية لقائنا ذاك المساء قالت لي وهي تجتاز بوابة مقهى ساتيامار:

- ودِّعني هنا ...

- كما المرة السابقة؟ لا تريدينني أن أرافقك إلى محطة القطار؟

- أنت تعلم أنني أحب أن أتمشى طويلا لوحدي بعد كل لحظة فراقنا... إنها طريقتي لأتخلص من كلماتك ونظراتك قبل أن يجتاحني البكاء على فراقك. كما نأخذ حماما ساخنا بعد ممارسة الحب هكذا أتخلصُ منك يا طارق ... لكنني ما ألبث لأعود إليك.

تعانقنا كوردتين تدفعهما الرياح إلى بعضهما البعض قبل أن تعود لتفرّقهما، همستُ في أذنها "غادي نتوحشك" لتردَّ عليَّ مبتسمةً "عَارفة". ثم غادرتني، تركتني كعصفور جريح، تتخبطُ أجنحته بالتراب المغسولِ بدمائه. على أيّ شباك سأطلُّ الآن يا "أميمة الخليلي" وشباكُ ليلى كان وحده يخبئني من غدر الزمان؟

التفتتْ وكأنها تذكرت شيئاً لتقول لي:

- هدية عيدُ ميلادك ستجدها في علبة بريدك...

ثم ودعتني بإشارة من يديها وأنا أتذكر كيف أنها لم تقدر طيلة عشرين سنة أن تسلمني هدية عيد ميلادي بيديها مباشرة. دائما ترسل لي الهدايا عبر البريد أو تخبئها في ملابسي أو تحت السرير... هل في الأمر سرٌّ لا أعرفه يا ليلى؟

ومضيتُ أنا الآخر، أمشي طويلا في خنادق الذكريات وحقول ألغام الحب وأمشي إلى ليلاي. ما لي الليلةَ سِوى عيناكِ أغسلُ بهما عينيَّ وأمضي إلى مثواي الأخير، حرفي الأخير...، وكيف لا تكونينَ سيدةَ النهايات وأنتِ مستبدةَ البدايات؟ كيفَ لا تكونينَ حرفي الأخير وأنتِ كنتِ لي ميلاد الكلمات؟

أي وجعٍ يختارهُ مثواي الأخير على ضفافك؟ وجعُ حبكِ؟ وجعُ فراقكِ؟ أم وجعُ اللقاءاتِ المؤجلة؟

3

الدار البيضاء -10 شباط/فبراير 2015

هذه الليلة أيضا كنتُ كالحاضرة الغائبة على مائدة العشاء في بيتي، للحظة بدا لي المشهد وكأنني رأيته من قبل. نفس حركة جلال زوجي وكلامه وانفعالات ليال وطريقة أكل أمي فاطمة مربية ليال. كل شيء كان وكأنني رأيته من قبل. شعرتُ باضطراب وبدوار في رأسي وأنا أتخيل حياتي وقد صارت مسلسلا من التهيؤات والشرود في ذكرياتي مع طارق... أتنتهي كل قصص الحب الفاشلة بأمراض نفسية وحالات اكتئاب؟

نهضتُ من الطاولة وأنا أقول بصوتٍ خافت:

- سأحضر لنفسي كوبا من الماء...

سمعتُ جلال يقول وأنا أجتاز باب المطبخ "لكن الماء فوق الطاولة ما بك يا ليلى؟"

في المطبخ أخذتُ كأسا من درج الأواني وفتحتُ صنبور الماء. كان لصوت الماء المتساقط في قعر الكأس صوتا أعادني لنوستالجيا الذكريات من جديد. رأيتُ صوري مع طارق أيام الجامعة. هناك في جامعة محمد الخامس بسنتي الثانية، شعرتُ بمعنى أن أكون امرأة، في بداية تلك السنة كنتُ قد بدأت ألتقي بطارق من حين لآخر في حلقيات الجامعة وتجمعات الرفاق في المقصف أو في شارع محمد الخامس. بعدها بأشهر اختفى طارق، لم نعرف أين، سمعنا بأنه اعتقل ولا ندري أين... حينها فقط بدأت أشعر أنه احتلّ قلبي إلى الأبد.

فجأة خطفني صوت من شريط الذكريات:

- ليلى، ليلى...

التفتُّ ورائي بخوف لأجد جلال واقفاً عند باب المطبخ ثم سمعتُ صوت الماء يفيض بسرعة من على الكأس الذي نسيته تحت الصنبور.

قال لي جلال وأنا أحمل الكأس لشفتيَّ كي أشرب منه:

- ما بك يا ليلى؟ لماذا أصبحت شاردة وتائهة هكذا؟ لماذا تغيرت علاقتك بي منذ ولادة ليال؟

جلستُ على كرسي شارد هو الآخر في المطبخ، وضعتُ رأسي بين يديَّ، أحسستُ به ثقيلا... لا أقدر على حمله بين كتفي. يا الله لماذا لا يتوقف شريط ذكرياتي مع طارق على اجتياح حياتي لماذا؟

رفعتُ رأسي لأجد جلال يواصل النظر إليَّ. قطع صمتنا قائلا:

- ألن تُجيبيني؟

أجبته تائهةً:

- لا أعرف يا جلال...

أردفتُ قائلةً بعد لحظة صمت:

أشعر بنفسي مضطربة وأتساءل إن كانت خياراتي في الحياة خاطئة أم صحيحة. الحياة يا جلال، الحياة ليست سوى خيارات، إن لم نُحسن الاختيار نعيش حياة لا ترقى لأحلامنا... شبه حياة بالأصح.

قاطعني بسؤال مفاجئ:

- وزواجك بي؟ هل كان خيارا خاطئاً في نظرك؟

صمتتُ بعد سؤاله، لم أستطع أن أحرجه بحقيقة جوابي... هو يعرف أنني لا أحبه، يشعر بذلك لكنني في لحظة ما وعدته بأن أبني بيتا وعشا زوجياً معه ولطالما كنتُ وفيةً في وعودي... تبا، الوفاء بالوعود هو الذي يدمر حياتي دائماً.

سمعته يقول من جديد:

- ربما تعانين من أعراض أزمة الأربعينات يا عزيزتي، لقد سبق لي أن عانيتُ من نفس الأزمة.

كنتُ أنظر إليه صامتة وقلبي يقول إنها أزمة أكبر وأعمق من أن تكون أزمة عُمر... إنها أزمة حب وأزمة وجود يا جلال.

أردف قائلاً:

- اسمعي، لماذا لا تذهبين عند طبيب نفسي. قد تكون هذه أعراض اكتئاب وإن لم تُعالج ستتطور إلى مرض الذهان أو الكتاتونيا...

أجبته وأنا أجمع شعري للوراء متذكرة كيف كان طارق يحب الحركة التي أجمع بها شعري... قلتُ له بصوت هادئ:

- تظنني مريضة يا جلال؟

أجابني متوددًا:

- ليس بالضرورة أن تكوني مريضة كي تزوري طبيباً نفسياً، فكري في الأمر فقط.

ظللتُ صامتة وأنا أراه يغادر المطبخ، لم أستطع هذه الليلة أيضاً أن أنام بجانبه، كانت فكرة أن أنام بجانب رجل غير طارق تعذبني وترميني في ظلام الأرق، لم أعد قادرة على أن أبتسم في وجه رجل غير طارق ولا أن أحادث سواه.

في الصباح، أفقتُ على أثر قبلة ليال على خدي، أخذتُها في حضني وعانقتها لأشم فيها رائحة والدها الذي أشتاق له. سألتني كما كل صباح بفضولها المعتاد:

- ماما، نمتِ مجددا هنا على الأريكة؟

- غافلني النوم هنا يا حبيبتي...

صاحت أمي فاطمة وهي تقترب منا:

- صباح الخير ابنتِي ليلى، الفطور في المطبخ لا تخرجي بلا فطور كعادتك. سآخذ ليال إلى الروض.

نهضتُ من مكاني متثاقلة، فَطِرتُ على أنغام فيروز الصباحية وأخذتُ حماماً. اتصلت بالمعهد كي أخبرهم أنني سأتغيب اليوم. ثم أخذتُ حقيبتي اليدوية ومفاتيح السيارة وخرجت.

كان حي بلفيدير هذا الصباح هادئا على غير عادته، لا زحام فيه ولا أكاد أسمع صوت سيارة. انطلقت بسيارتي من شارع محمد الخامس إلى أن وصلت إلى مبنى فيليبس القديم أمام مقهى سيتي بالاص. ركنتُ سيارتي بالقرب من محطة الترامواي ونزلتُ أبحث في المباني المجاورة على يافطات لأطباء نفسانيين، نصف ساعة وأنا أبحث دون نتيجة، أخذت هاتفي وركبت رقم صديقتي "نزهة صادق" كي أسألها إن كانت تعرف طبيباً نفسانياً في النواحي، لكنني تراجعتُ عن الاتصال بها مخافة أن تشغل بالها عليّ.

وأنا عائدة إلى السيارة، لمحتُ عمارة في آخر شارع المقاومة بها يافطات كثيرة فقررتُ أن أبحث فيها. كانت يافطات لأطباء القلب والشرايين والعيون وتخصصات أخرى لا أعرفها... تركتُ أعيني تجول بين الأسماء حتى سقط نظري على اسمٍ جميل في أسفل اللوحة كُتبَ عليها: نوريانا البناني – طبيبة نفسية خريجة كلية الطب محمد الخامس الرباط الطابق الثالث.

ظللتُ متسمرةً أمام باب العمارة أفكر في طارق وفي ذكرياتي معه ثم غادرتُ وأنا أصيح في داخلي: "طارق هو طبيبي الوحيد".

4

الرباط -20 شباط/فبراير 2015

وقفتُ أمام موظفة البنك المكلفة بخدمات الزبائن التي هي نفسها السيدة التي وقّعتُ عندها قبل عشر سنوات عقد القرض الذي اقتنيتُ به شقتي. ما إن لمحتني حتى صاحت وابتسامة مصطنعة تعلو شفتيها:

- Bonjour سي طارق ...

أجبتها ببرودة من فرط حنقي على هذه الوكالة البنكية التي أنهكت جيبي لسنوات وأثقلتني بفوائدها:

- أهلا، من فضلك جئتُ لأسدد بعض الأقساط المتأخرة عليَّ.

دعتني للجلوس بأدب وودٍ بالغين ثم قالت لي:

- لكن ليس لديكَ أي أقساط متأخرة سي طارق!

أجبتها بابتسامة ساخرة:

- من فضلك، أنتِ تعرفين أنَّ وضعيتي المالية معكم حرجة وأقساط كثيرة متأخرة السداد. فلا داعي للمزاح معي لو سمحتِ.

أجابتني بجدية بالغة:

- أنا لا أمزح سي طارق، فعلاً ليس لديك أي أقساط متأخرة. كل أقساط القرض دُفعت أواخر الشهر السابق ومعها تسبيق لسنة كاملة من الأقساط... أي أن قرضك دُفع عن آخره.

- كيف ذلك؟ لا يمكن؟

- هذه هي الحقيقة سي طارق

- ومن دفع كل هذه الأقساط عني إذن؟

- لقد حضرت سيدة إلى مكتبي، وقالت لي أنها من أقاربك وأنك في ظرف صعب لا يمكّنك من الحضور لمناقشة وضعك المالي معنا... ودفعت عنك كل الأقساط.

علَّقتُ على كلامها متهكماً:

- بهذه البساطة ... !!

- يبدو أنها تعرفك جيداً.

- ما اسمها؟

- رفضت إعطاءنا نسخة من بطاقتها الوطنية ولا حتى اسمها...

- يا سلام !، أي مهنية هذه؟

لم تُجبني، ظلت تنظر إليَّ باستغراب، غرقتُ حينها في التفكير باحثا في مخيلتي بين كل النساء اللائي أعرفهن عن تلك التي تستطيع القيام بهذا العمل من أجلي.

بحثت ملياً ولم أجد سواها ومن غيرها؟ التفتُّ إلى موظفة البنك سائلا إياها من جديد:

- كيف هي هذه المرأة؟

أجابتني مستفسرةً:

- تقصد صفاتها؟

- نعم، صفاتها؟ سمراءٌ طويلة؟

أجابتني بلهفة وكأنها تتذكرها الأن:

- نعم، نعم إنها كذلك

أضفتُ سائلا إياها للتأكد من جديد:

- عيناها سوداوان كبيرتان؟ أنفها نحيفٌ طويل وشعرها يلمع من شدة سواده... صدرها عامر وتضع على عنقها قلادة بيضاء يتدلى منها نصف قلب؟ تبدو في الأربعين من عمرها؟

لم تُجبني ظلت تنظر إليَّ مبتسمةً باستغراب.

- لم تبتسمين؟

- C'est fou comment t'apprends par cœur ses détails !!

ابتسمتُ أنا الآخر... قبل أن أغادر أجبتها بلغتها:

- Certes, c'est la femme de ma vie

ما إن وضعت قدميَّ في شارع محمد الخامس حتى أمسكتُ هاتفي واتصلتُ برقم ليلى. رنَّ هاتفها طويلاً قبل أن تُجيب:

- ألو ...

لم أعرف في البداية ماذا سأقول لها، فتركتُ لساني يدندنُ اسمها:

- ليلى يا ليلى...

- أتحاول حفظ اسمي مخافة نسيانه أم هو موال للغناء؟

- أما نسيانك فهو غير وارد في قاموس أيامي الكئيبة.

ردَّت عليَّ ضاحكةً:

- وموال الغناء؟

- وكيف يحلو الغناء دون ذكر ليلى يا ليلى... العربُ تغنَّت باسمكِ منذ الأزل وسيتغنون به الى الأبد، اسمكِ علامةُ حبٍ سرمدي يا جميلتي. وحده اسمي لا يصلحُ للغناء.

- اسمكَ لي، أنا من تُغنيه في كل لحظة...

- ليلى؟ لماذا ذهبتِ إلى وكالتي البنكية ودفعتِ أقساط قرض شقتي؟

- أزعجكَ الأمر؟

- صراحةً نعم. في الأول تتركين لي مبلغا كبيرا كهدية في عيد ميلادي الأخير والآن تدفعينَ أقساط شقتي. صحيح أنني بلا عمل الآن، لكنك تُحرجينني هكذا.

- اسمع يا طارق، شقتك ليست ملكاً لك وحدك، هي ملكٌ لقصة حبنا. فيها عشنا أجمل لحظاتنا، على جدرانها علَّقنا قُبَلنا ولحظات عناقنا. شقتك هي بيتُ حُبنا فكيفَ لي أن أتركها تصبح في ملكية غيرنا؟ عندما كنتَ في فلسطين تبحث عن رصاصة تسقطكَ شهيداً بعيداً عني كنتُ أذهب إليها لأشُمَّ رائحتك وأنسى وحدتي. تلك الشقة كانت وطننا الوحيد الذي نلجأ إليه... والذي نرفعُ فيه أعلام حبنا ونغني نشيدنا الوطني. هي أملي في عودتنا لبعضنا البعض... فكيف لي أن أضيعَ أملي هذا. شقتك هويتي يا طارق...

- يا لسخرية القدر، أنا من لا هوية لي ولا وطن، أمنحُ الهويات وأبيعُ الأوطان...

- أنا هويتك ووطنك، متى ستعرف هذا يا طارق؟

تنهدت من تأثري بكلامها ثم قلت:

- اسمعي، المبلغ الذي دفعتهِ إلى البنك سأعتبره سلفاً، عندما أجد عملاً سأسدده، اتفقنا؟

ردَّت عليَّ مستسلمةً:

- اتفقنا يا سيدي.

بعدَ مكالمة ليلى، تركتُ خطواتي تمضي متثاقلة لساعات، تقودها اللهفة لمعانقة عطرها المتبقي في نسمات هواء شارع محمد الخامس منذ آخر لقاء لنا في عيدي ميلادي قبل شهر. على هذا الشارع مشينا معاً يقودنا الحب تارةً وتقودنا الحسرة والانكسار تارات أخرى، على هذه الطريق بنينا أمالنا في غد تُشرق فيه حياتنا معاً وعلى هذه الطريق أيضاً ضاعتْ أمالنا وكأنها خيطٌ متلاشي من الضباب.

توقفت قدماي أمام مطعم لوكراند كومبتوار، أنازعُ نفسي بين اللجوء إلى بائع الجرائد قبالة المطعم لقراءة عناوين الكتب والجرائد وبين الارتماء في أحضان كأس شراب يُعدُّ جسدي لكآبة المساء ووحدته.

دخلتُ المطعم، لتعانقني ذكرياتي فيه كالعادة... تحوم حولي كأبنائي الصغار، ترحبُ بقدومي وتعاتبني على أيامٍ خلت كنتُ أظنها لن تَفنى. كنتُ أظن أنني سأصيرُ سيدَ هذا العالم في يومٍ من الأيام، لكن أحلامي فَنِيتْ وفَنيتُ معها أيامي، غابتْ وغبتُ معها.

ما إن تجتاز باب المطعم حتى تُقابلك طاولات سوداء اللون، صغيرة، متناثرة بترتيب بالغ الأنفة. تغريك بجلساتٍ دافئة ومسلية، تعزف لك كؤوس النبيذ فيها موسيقى الحياة ويرقص لك لهيبُ الشموع فتشعر وكأنك تمتلئ بكل أسباب

السعادة... ثم تتطلع إلى وجوه المارة بشارع محمد الخامس من على فيترينات المطعم، تبدو لك الوجوه تعيسة وتقول مع نفسك أنتَ أتعسُ منها.

بعد الكراسي تحتار بين أن تلجَ الكونتوار حيث تنعزل مع كؤوسك التي تسافر بك إلى تاريخك المثقل بغبار الذكريات أو اللجوء إلى المطعم الذي يتقدمه ركحٌ للرقص تتبارزُ فيه الأجساد على وقع صراخ النوتات وحماقة الألحان.

على هذا الركح راقصتُ البيضاوات والشقراوات والسمراوات. هنا عانقتُ الخصور المنحوتة بأصابع المانغا والفراولة الشهية وهنا لجأتُ كالهارب من أتون الحرب إلى النهود التي تحميني كلاجئ في خنادقها. هنا تعبتُ من قوانين التضاريس والتموجات على جغرافيا النساء وصادرتُ كل الأفعال في مملكة الأنثى، لكنها وحدها في لغة الثابت والمتحول تبقى هي الثابتة. في لغة الانتماء تبقى هي الوطن وفي لغة الحب ستظلُّ هي نبضات القلب من البداية إلى النهاية... ليلى هي الوحيدة التي تُجيدُ البقاء في كل صفحات دفاتري.

لكنها لم تعد مِلكي الآن، لقد ضيعتُها كأي أحمق يُضيّعُ كل كنوزه الكبيرة، سعادته الكبيرة وحبه الكبير... للأسف لم تعد ملكي الآن.

رميتُ خيبتي على كرسيّ يتيم في زاوية الكونتوار لتدلف إليَّ "مها" أو "ماهي" نادلةُ المطعم مرحبة بي:

- مساء الخير يا شاعر، أتيتَ إذن!
- مساء الورد يا ماهي، كنتِ تَشكّينَ في مجيئي هذا المساء؟
- قلتُ مع نفسي، ربما لن تأتي هذا اليوم، قد تقرر أن تسافر أو تزور مكاناً ما عوض جلستك اليومية هنا...
- ليس لديَّ مكان أزوره أو أسافر إليه.

انحنت اتجاهي واضعةً مرفقيها على سطح الكومبتوار، ثم قالت بصوت يقتربُ إلى الهمس:

- فرغت حياتك من الأمكنة؟
- بل فرغت الأمكنة مني
- لا مكان لك إذن ...
- لا مكان لنا ولا وطن يا عزيزتي ...

نظرتُ إلى عينيها وهي ترمقني في صمت، ثم أضفتْ:

- متى كان للإنسان مكانٌ خاص على هذه الأرض يا مها؟ نحنُ مجرد مسافرين، عابرين في الزمان والمكان... بين الولادة والموت لا نملكُ سوى الوَهم وأشياء زائلة لا تعرف البقاء إلى الأبد. الوطن فكرةٌ وهمية أو حيلة قديمة من حكامِ وزعماء العالم ليلقوا علينا خُطبهم ويشعرونا بالانتماء وبأن لنا أرضٌ وخرائط ورقية توزع علينا حُقنَ الاستقرار والوطنية تارةً وتدفعنا حَطباً لحُروب المُلوك والأُمَراء تارة أخرى. نحنُ لا نملكُ سوى العدم يا عزيزتي، لا نملكُ سوى أجسادنا الفانية، وحدها أجسادنا تبقى لنا حتى آخرِ الطريق. أما كل الأشياء الباقية فينازعوننا فيها. أنا لا أملكُ سوى جسدي.

طأطأتُ رأسي بحثاً عن سيجارة أحرقُ بنارها تلك الخيبة التي تسللتْ إلى قلبي بعد مكالمة ليلى، هذه هي ليلى، في حضورها كما في رحيلها تثير زلازل لا ترحم كياني الهش، تذيبني كقطعة سكر تحت مطرِ ذكرياتها.

لمحتُ مها تدفع جسدها للوراء مزيحةً صدرها المفخَّخِ من أمامي بعد أن كانت تصغي إليَّ في هدوء... لحظات قليلة قبل أن تضع قبالتي قطعة قطنية دائرية الشكل كتب عليها اسم المطعم باللغة الفرنسية.

وضعت كأسا طويلا فارغا فوق القطعة القطنية ثم قالت لي:

- ما كأسكَ اليوم؟

- بل قولي ما كؤوسي اليوم ...

وزَّعت نظراتها الصامتة على أعيني من جديد وكأنها تقول لي: تعالى لأحضنك عوض هذه الكؤوس.

قطعتُ صمتها وأنا أنفث دخان سيجارتي:

- كأسي الأول "جوني وولكر"... من فضلك.

لمحتها تمسك ملقاطاً حديدياً بأناملها ثم دفعته في إناء الثلج، التقطت قطعة ثلج ثم الثانية والثالثة... كان لوقع سقوط قطع الثلج في قعر الكأس رنة موسيقية ذكرتني بأغنية جميلة لزهرة هيندي At the same time.

قلتُ لها وهي تملأ الكأس بدفعات من قنينة الويسكي برقة:

- أيمكن لك أن تضعي أغنية لزهرة هندي يا ماهي؟

- إن وعدتني أن يكون هذا كأسك الأخير سأفعل؟

- يا حمقاء، ليس من مصلحتك أن تسُدِّي شهية زبنائك عن الشرب

- أنتَ لستَ زبونا...

نظرتُ في عينيها الجميلتين، كانت تنتظر أن أسألها "من أكون إذن؟" لكن هذا السؤال لا يهمني ولا يهمني جوابه، هذا سؤال الآخرين ولا جواب له عندي على رأي درويش. أنا لا هوية لي، سئمتُ من كل الانتماءات والتصنيفات النسبية لدى الآخرين... ما يغريني الآن هو المطلق، أن أكون للمطلق، أن أصير كائنا حراً من التعاريف والانتماءات والإسقاطات الاجتماعية والسياسية... لماذا الحرية هي

فقط تلك الخمس دقائق الأولى التي ولدنا فيها نبكي، عراةً، بلا اسم، بلا خطيئة، بلا توجهات وبلا حقد بشري كما قال مكسيم غوركي. أريد أن أكونَ أنا فقط، فقد تعبتُ من أن أكون الآخرين.

أجبتها وأنا أرتشفُ أول جرعة من الكأس:

- At the same time هذه هي الأغنية التي أريد سماعها...

صاحت وهي تتجه إلى حاسوب وضع في الزاوية الأخرى للكونتوار، خمَّنتُ أنها ستبحث عن الأغنية في اليوتيوب:

- أستغربُ كيف يعشقُ قومي عربي مثلك أغاني زهرة هندي الأمازيغية المتحمسة للحركة الأمازيغية...

- إنهُ الحب يا عزيزتي، الحب لا يؤمن بالمتناقضات. ثم من قال لك أن القوميين العرب يُعادون النشطاء الأمازيغ؟ على العكس، نحنُ نعتبر الثقافة الأمازيغية جزءاً من الثقافة والهوية العربية...العروبة بوتقة ثقافية تجمع كل الانتماءات في الوطن العربي. المشكلة تكمنُ في بعضهم الذي غرَرَ به المُستعمر واللوبيات الصهيونية لتمزيق الوطن العربي وضرب مفهوم الأمة العربية، أُنظري لما يقع للعرب الآن وأنتِ تفهمين، سوريا والعراق وليبيا والسودان... وسيأتي الدور على المغرب والبقية. انهم يسعون إلى بلقنة الوطن العربي يا ماهي...

فجأة غزا صوتها أرجاء المطعم... هو هذا صوتها:

Here comes the time
For my heart to heal the past
From now and then
There will be the good and the best

Oh when your eyes and mine

Can see the same

Our love could last

Should i follow you?

همستْ لي مها قائلةً:

- أتعلم، أشتهي أن أرقص معك الآن على هذه النغمات.

أفردتُ لها ذراعيَّ قائلاً:

- ما الذي يمنعكِ... تعالي

- أنتَ تعلم، لا يمكن لي أن أرقص مع الزبائن

- الآن صرتُ زبوناً... تُغيرينَ مواقفك بسرعة يا محتالة.

ابتسمت وهي تغمزُ لي:

- إنهم يمنعوننا من الرقص مع الزبائن... لكنهم لا يستطيعون منعنا من الوقوع في حبهم.

أجبتها وأنا أمرغُ رأس سيجارتي في المنفضة:

- آه... الوقوع في الحب. أتعلمين، هذه العبارة تصور لي الحب كخطيئة نقترفها أو كذنبٍ نسعى للثوبة منه بعد استمتاعنا بارتكابه.

قاطعتني بفضول:

- أتخشى الحب؟

- نحنُ نخشاه جميعاً يا عزيزتي وفي نفس الوقت نتمناه. كم تمنيتُ أن يكون لي درعا صاروخيا يقيني من قصف الحب لقلبي المسكين.

ابتسمت ثم سألتني وهي تشبكُ يديها لتتكئ على مرفقيها أمامي:

- قل لي، لمَ تخشاه؟

قبلَ أن أجيبها، تركتُ عينيَّ تستحمَ بنظراتها الجميلة، نظراتها المتعطشة إلى الحب والحياة.

أجبتها هامساً:

- اسمعي يا عزيزتي، هناك من يأتيه الحب محملا بالورود والأحلام الجميلة وآمال جديدة في الحياة، ينقله من عالم الشتات والضياع إلى عالمٍ هادئ وجميل. أما أنا فالحب لا يَسلكُ دربي إلا مدججاً بالرصاص ومفخخاً بالقنابل الحارقة للقدر، يأتيني الحب كداعشي يشحذ سيوفه لنَحر قلبي في مملكة النساء. أنا وبكل بساطة لا قدرَ لي في الحب وليس للحب من قدرٍ معي... أو ربما الحب الذي أنتظره هو أكبر من أن يُجسدَ في امرأة واحدة.

أجابتني كمن يجرُّ وراءه خيبة حبٍ قديمة:

- نحنُ جميعاً لا نملكُ أقدارنا للأسف، والحب هو أكثر أقدارنا غرابة، قد يأتي وقد لا يأتي. أتعلم، أسأل نفسي دائما لِمَ لا يكون الحب كالموت، نعلم أنه سيأتينا لا محالة. لماذا القدر كان كريما حينَما وزع الموت قدراً مُطلقاً على الجميع وبخلَ في توزيع الحب؟

- معكِ حق يا ماهي، القدر كان كريما في توزيع الموت والحروب والدمار، لكنه بخل في منح الحب للجميع. هذه الحياة عبثية، كل ما نفعله ونعيشه عبث في عبث... لا منطق للحياة ولا جدوى منها.

مددتُ مرفقي على طاولة الكومبتوار كي أسمح لرأسي أن يتكئ على كفي... أحسستُ برأسي ثقيلا متعباً. ثم أضفتُ لها قائلاً:

- لقد سئمتُ عبثَ هذه الحياة يا مها.

- تُذكرني، بهنري ميشو...

- الشاعر الفرنسي؟!

- نعم ... هو أيضاً كان يعتبر الحياة مجرد عبث وأن الإنسان أصبح ضائعا دون ماهية أو قيمة وجودية. كان مُضربا عن الحياة، عاش على الهامش ورفض كل الجوائز التي منحت له. كان يكتب ليتخلص من شعوره بالقلق وألم الحياة فقط. تخيل، كان يتحاشى أخذ الصور لشعوره بأنها تختزل المرء وتسجنه في وضعية نهائية ليغدو مجرد صورة جاهزة.

كانت تتحدث ونظرها يغرق في الأفق البعيد، حزيناً ومشتتاً في الآن نفسه. تذكرتُ حينها أن النادلة التي هي أمامي الآن هي مها خريجة كلية الآداب بجامعة الرباط لكن أمواج الزمن القاسي رمتها لتبحث عن قوت يومها في المطاعم والمقاهي في انتظار أن تجدَ لها شقيقتها المهاجرة في إيطاليا فرصة عمل هناك.

خمَّنتُ أن لمها قصةً ما مع كتابات هنري ميشو، ترددتُ في سؤالها خشيةَ أن أثير جراحاً لا أعلم مدى عمقها في ذاكرتها.

التفتُّ على يميني لأجد رجلا يهمُّ بالجلوس في آخر كراسي الكومبتوار، كان يبدو من مظهره أنه أجنبي، استأذنتني مها قائلةً:

- سألبي طلب هذا الزبون وأعود يا طارق.

لم أزح نظري عن الرجل الأجنبي، كانت ملامحه حزينة وبريئة. طلبَ بودٍ بالغ من مها مشروبه. اختفت لتوانٍ وراء فيترينا الكومبتوار ثم حضرت وفي يدها قنينة طويلة بنية اللون من نوع كازابلانكا. استفزني حزنُ هذا الرجل وكآبته، سألتُ نفسي لمَ الحزن والقلق مشاعر بنيوية وأنطولوجية في أعماق روح الإنسان؟ هل

حقاً شعور القلق له صلة بفكرة العدم والموت الحتمي للإنسان كما جاء في فلسفة هايدجر؟

صحتُ مقاطعاً صوتي الداخلي:

- مها، كأس ثانٍ من فضلك.

أومأت لي مها برأسها، ثم حضرت بعد لحظات وهي تحمل لي قنينة الويسكي كي تسقي كأسي الفارغ. قالت:

- ماذا كنا نقول؟

أجبتها وأنا أفردُ ابتسامة على شفتي حباً في وجهها المتعب والجميل:

- كنا نقولُ كل الأشياء، في انتظار أن نفعل كل الأفعال المؤجلة...

قطبت حاجبيها ثم خطفت السيجارة من أناملي وهي تقول:

- كنا نتحدث عن هنري ميشو يا مشاغب.

سألتها كمن يوجعها في موضع ألم قائلاً:

- هل هناك قصةٌ ما تجمعكِ بهذا الشاعر؟

أخذتْ نفساً عميقاً من سيجارتي التي أصبحت سيجارتها ولاذت بالصمت. أحسستُ أنها تتمشى في ذاكرتها فوق حقلٍ من الألغام كانت قد طمرته منذ زمن. صاحتْ بصوتٍ خافتٍ هذه المرة:

- حبيبي الأول في أيام الجامعة كان مهتماً بأدب العبث. كنتُ أجده دائما غارقاً وسط مؤلفات صامويل بيكيت، وأوجين يونسكو وجان جينيه. شعاره في الحياة هو أنه ما دام الإنسان يولد ويعيش ويموت دون مبررات مفهومة فلا جدوى من الاهتمام بالوجود وأن خير طريقة

للعيش في هذه الحياة اللامنطقية هي العبث. من شدة تأثره بالعبث كفكرة وكأدب أهداني في أول لقاء حبٍ لنا قصيدة لهنري ميشو ... تخيل؟

أجبتها متهكماً:

- حبيبك هذا عبثي فعلاَ.

ابتسمتْ ثم أخفضت رأسها لتغرق في ذكرياتها الماضية، وددت لو استطعت إنقاذها، لكن كيف أنقذها من ذاكرتها؟ لا أحد ينقذنا من فعلِ الذاكرة... لا أحد يُشفى من ذاكرته كما قالت مستغانمي.

صحتُ قائلاً قبل أن تطبق شفتاي على حافة الكأس الذي سقته لي قبل قليل:

- ألازلتِ تذكرينها؟

رفعت رأسها، ثم قالت:

- من؟ القصيدة؟

أومأت لها رأسي بالإيجاب وأنا أبتسمُ لها عساها تلملم جراحها وتعود ابتسامتها الجميلة التي تُفردها عليَّ كلما حضرتُ إلى هذا المطعم.

فجأة، انطلقت تسردُ كلمات أحسستُ أنها تخفيها في خابية ذاكرتها:

خديني معكِ
خديني معك بسفينة شراعية
بسفينة شراعية قديمة وجميلة،
على الصارية أو إن شئنا على الزبد،
وضيعيني بعيداً بعيداً .
على مقطورة لعصر آخر .
على مخمل ثلجي خدّاع .

على تنفس بعض الكلاب المجتمعة .
ضمن مجموعة متعبة من الأوراق الميتة .
خديني معك دون أن تحطميني، في القُبل،
وعلى الصدور التي تنهض وتتنفس،
على بساط الكفوف وضحكاتها،
على ممرات العظام والمفاصل.

لمحتُ ألماً بادياً على ملامح مها، لم أعرف كيف أواسيها... فأنا فاشلٌ عادة في مواساة الناس في مآسيهم. مددتُ يدي لأمسك يدها اليسرى، كانت باردة، ضغطتُ عليها بقوة فسقطت دموعها تنجرف بسرعة على خديها دون صوت بكاء. بقيتْ هادئة مشتتة الفكر.

قطعتُ هدوءها قائلاً:

- كنتِ تُحبينه؟
- أحببته أكثر مما ينبغي على رأي أثير النشمي
- وكيفَ افترقتما؟

استجمعت قوامها ووقفت أمامي شامخة. جمعت شعرها للوراء وجففت عيناها من بقايا الدمع الذي انهمر أمامي كنهر مياهٍ شاردة على جفونها ثم قالت:

- رحل، قرر أن يرحل عن هذا العالم العبثي كما كان يراه. وَجدوه في غرفته مشنوقاً ذات مساء، لم يترك لي سوى ورقة كتبَ عليها "آسف يا مها، هذه الحياة لا تستحق أن أتواجد فيها، لن أسمح لها أن تتلاعب بقدري كممثل على خشبة مسرحها... أجمل شيء في هذه الحياة كان حبكِ، أحبك وتباً للحياة" ...

توقفتْ للحظات ثم أضافت:

- أرأيتَ شخصاً يغادرُ قصة حبه بهذه الطريقة؟

ارتبكتْ، لم أعرف بما أجيبها، ظلّت تحدق في عينيَّ بقوة ثم أردفَتْ:

- سأسكبُ لكلينا كأسين ... تأخذ تكيلا؟

أجبتها بتثاقل:

- حسنا... فلتكن تكيلا طونيك.

سمعتها تقول لي وهي تنحني لفتح ثلاجة صغيرة أسفل الفترينة:

- بالملح أو الحامض؟

تجاهلتُ سؤالها، كنتُ منشغلا فيما قالته عن حبيبها وأسباب انتحاره. أكيد أن في الأمر شجاعة كبيرة أن يتخلص المرء من معاناته مع الحياة بمغادرتها، وفي الأمر بشاعة كبيرة أيضا أن تصبح الحياة رخيصة دون قيمة أمام أحزاننا. تذكرتُ أحداث رواية فاتحة مرشد "الحق في الرحيل" وقلتُ مع نفسي، نعم يجب أن يكون لنا جميعاً الحق في الرحيل عن هذه الحياة، وبالطريقة التي نشتهيها.

أحضرتْ كأسين صغيرين، أفرغت فيهما جرعات من قنينة تكيلا، ثم قالت لي مبتسمة وهي تحاول إزالة سحابة الكآبة التي غطت ملامحها:

- يبدو أن "سعيد" وجد من ترافقه هذه الليلة.

- آه صحيح، لم يأتِ "سعيد السلاك" هذا المساء.

- عندما يغيب "سعيد السلاك" فاعلم أن السبب إما امرأة أو ذكريات ألمانيا.

ضحكنا وغرقنا في الشربِ معاً.

أمضيتُ المساء بأكمله في لوكراند كومبتوار، أحتسي كؤوس حسرتي في الحياة وأبادل أطراف الحديث مع مها.

وأنا ذاهبٌ في الطريق إلى شقتي بحسَّان، لا أعرف لِم ظلت صورة حبيب مها المنتحر تقفز في خيالي، حتى تذكرتُ كتاب اميل دوركاييم "الانتحار" الذي اختفى منذ سنوات من مكتبتي دون أن أعرف لمن أعرته أو من سرقهُ مني !! وتذكرتُ ورطتي أيضاً مع أماليا التي تلحُّ على زواجنا وأنا لم ألجأ لها إلاَّ لمداواة فراقِ ليلى. كيف لي أن أهربَ من وجع الفراق إلى مصيدة الزواج يا أماليا؟ كيف؟

5

الدار البيضاء -7 أذار/مارس 2015

بعد أن أنهيتُ درسي هذا المساء حول تأثير الحب على مجرى تاريخ البشرية. عمَّ الفصل صمتٌ غريب. أحسستُ أن كلَّ حاضرٍ في الفصل انطلق ليغوص في دواخله بحثاً عن ماهية الحب وعلاقته الجدلية بالحياة.

اجتاحت فكري في تلك اللحظات صورة طارق وغيابه القاتل في حياتي، لقد أصبحت أيامي بدونه صعبة ودون نكهة. هو هذا الحب على رأي كيرغارد، يعطينا كل شيء ولكنه يأخذ منا كل شيء.

ألقيتُ نظرةً على ساعتي ثم أعلنتُ انتهاء الدرس قائلةً:

- انتهت حصةُ اليوم، نلتقي الأسبوع المقبل. حاولوا أن تبحثوا في موضوع انعكاس الحرب الأهلية على الأدب الإسباني، الشعر خصوصا كدراسة حالة.

صاحت "بريا"، الطالبة الكاميرونية في فصلي، بلكنة تغلبُ عليها السخرية:

- أنتِ تتربصينَ بآمال الحب في قلوبنا إذن أستاذة ليلى بعد "غوته" و"نوفاليس" و"ت.س. إليوت"، سيكون "لوركا" محطتنا القادمة.

أجبتها مجاملة:

- سنمرُّ على كل عظماء الحب عزيزتي بريا.

كان قد خرج كل الطلبة من الفصل، لم يبقَ إلا هي واقفة بالمحاذاة من مقعدها وأنا أجمعُ حقيبتي. ظلَّت تحدقُ في سحنات وجهي باهتمام ثم صاحت وهي تغادر بخطى متثاقلة:

ما الإنسان دون حريةٍ يا ماريانا

قولي لي؟

كيفَ أستطيع أن أحبك

إذا لم أكن حراً؟

كيفَ أهبكِ قلبي

إذا لم يكن ملكي؟

عندَ خروجها توقفت يداي وأسلمتُ جسدي لمقعدي. أخذتُ نفساً عميقاً وأنا أغالبُ البكاء على مصير قصة حبّي مع طارق... كيف استطاعت بريا أن تشعر بمأساتي مع طارق وهي تردد أشعار لوركا؟

غادرتُ قاعة الدرسِ متوجهةً إلى مكتب الأساتذة. في طريقي لمحتُ "بركات"، القومي العربي الوحيد في المعهد، واقفاً بجانب باب المقصف كأنه ينتظر شخصاً ما.

توجهتُ نحوه ثم سألته مبتسمةً:

- يعني لم تقل لي ما رأيك في الرفاق الذين عرفتكَ عليهم؟

ابتسم قبل أن يقول:

- لم أكن أعلم أن هناك قوميين عرب بهذه الكثرة في المغرب، أنا حقاً مدينٌ لكِ يا أستاذة ليلى بهذا الفضل.

قلتُ له ممازحة:

- أنت لم تُجبني على سؤالي!

- كلهم رائعين، ناصر أصبح صديقاً مقربا لي، وأشتغل معه الآن على مشروع سياسي.

- أي مشروع؟

- لقد أخبركِ ناصر عنه وهو لازال ينتظر ردّك بالانضمام لنا. المغرب في حاجة لنا أستاذة ليلى، بحاجة لتضحيات شبابه كي نصنع منه بلدا يحترمُ حقوق شعبه وكرامته، نحن نستحق أن نعيش في وطن بدون استبداد.

نظرتُ في عينيه طويلا ثم ودعته قائلة:

- ألم تعد تنوي الهجرة إلى كندا السنة المقبلة؟ مع السلامة، لا تنسَ، أنتَ مدعو لعرس رفيقتنا حليمة الهلالي.

في مكتب الأساتذة وجدتُ "أليس" أستاذة الأدب الإنجليزي في المعهد منشغلة في كتابة شيء ما في مذكرةٍ لا تغادر يدها وبجانبها كتاب ضخم. خمَّنتُ أنها تنقلُ منه ملاحظات تتوقف عندها في حصصها.

ألقيتُ عليها التحية وانشغلنا في محادثة عن أحوال التدريس والحياة الزوجية والأولاد حتى سمعنا طرقاً على الباب قبل أن يدخل السيد "أوغست بروان" مدير المعهد، ألقى علينا التحية وطلب مني أن ألتحق بمكتبه عند انتهائي.

سألتُ نفسي ما الأمر الذي دفع المدير لأن يبحث عني بنفسه. استأذنتُ "أليس" في المغادرة وبعدها وضعت كتبي ودفاتر الطلبة في درج مكتبي الخاص، اتجهت إلى مكتب السيد المدير.

عند دخولي رحب بي بطريقته المهذبة والحميمية كعادته وطلب مني الجلوس ثم بادر قائلاً:

- أرجو أن تكوني قد أنهيتِ حصتكِ ولم أقاطعكِ...

أجبتهُ بتردد:

- لا أبداً، لقدُ أنهيتُ حصتي.

- اسمعي يا أستاذة ليلى، أنت تعرفين أن الكنديين عمليين ويدخلون في صلب الموضوع مباشرةً.

قطبتُ حاجبيَّ وشعرتُ بانقباضٍ وتوتر في أعلى صدري... تساءلتُ: هل سيفاجئني المدير بأمرٍ مقلق؟

سمعته يسترسل وقلبي يخفقُ بسرعة:

- تجربة التعليم الأكاديمي الحر للطلبة الراغبين في الهجرة والاستقرار في كندا كانت تجربة جيدة ومفيدة وأنت بدورك لاحظتِ هذا معنا طيلة السنوات السابقة، لكن الحكومة الفيدرالية قررت أن توقف هذه التجربة في بلدان المهاجرين ونقلها إلى كندا...

أجبته بهدوء مصطنع:

- نعم أعلم هذا، وأعرفُ أن هذه السنة هي آخر سنة دراسية في المعهد.

استرسل في حديثه:

- جيد، لكن دعيني أخبرك أن الحكومة قررت فتح مسلك أكاديمي قار ودائم بجامعة لافال بالكيبك السنة المقبلة لتدريس الطلبة المهاجرين. لقد أعدَّت الحكومة كل شيء، مراكز الأبحاث والأقسام وكل الشروط البيداغوجية وعينتني مديراً للمسلك كما كلفتني أيضاً بتوظيف أساتذة أكفاء...

ابتسمتُ بلطف مهنئة المدير، شكر تهنئتي ثم أكمل حديثه:

- اسمعي يا ليلى، هناك مجموعة من الأساتذة في المعهد سأعرض عليهم فرصة الالتحاق بكندا للتدريس هناك وأنت على رأسهم... كفاءتك وقدراتك الأكاديمية لا يمكنُ لنا أن نفرط فيها، كما أن شخصيتك حيوية ومهذبة جداً... أرجو أن تقبلي هذه الفرصة يا ليلى.

- لكن يا سيادة المدير...

قاطعني بسرعة:

- اسمعي يا ليلى، مثل هذا العرض لا نقرر فيه في ثوانٍ، سأمنحكِ وقتاً للتفكير، من هنا إلى آخر السنة.

نظر إلى عينيَّ جيدا ثم أردف قائلاً:

- في كندا لن نعتبرك مجرد موظفة أو مهاجرة للعمل، بل سنمنحكِ الجنسية الكندية في عامكِ الأول ولزوجكِ أيضاً وسنوفر لكِ منزلا مدفوع الأجر لسنة كاملة بمدينة ليفيس قرب الكيبيك، مدينة جميلة وهادئة تطلُّ على الضفة الجنوبية لنهر سان لورين ستعجبك، فضلا عن الامتيازات الاجتماعية... فكري جيداً في الأمر عزيزتي، إنها فرصةُ العمر.

خيم علينا الصمت للحظات، كنتُ قد بدأت فيها فعلا التفكير في العرض، فقد بدا لي مغريا وقفزة كبيرة في حياتي الشخصية والمهنية. قلتُ مع نفسي، الموضوع يحتاجُ فعلا إلى تفكير عميق.

في الوقتِ الذي لمحتُ فيه المدير يقفُ ويتجه إلى درج في أسفل الخزانة التي تقعُ على يمين مكتبه... سقطتْ في فكري صورة طارق. كيفَ يمكنني أن أهاجر المغرب وأبتعد عن طارق؟ لا يمكن لي فعل ذلك. سأختنقُ في غيابي عنه وكيف لي أن أبعد ليال ابنته عنه؟ لكنَّ صوتاً أنانياً في داخلي قاطع أسئلتي قائلاً "لماذا هو يغادركِ في

كل مرة بكل سهولة؟ لماذا لم يختنق هو كذلك؟ كم أنتِ غبية، هو لم يكترث لكِ في كل المرات التي رحل فيها إلى فلسطين والى الموت وأنتِ لا تقدرين على هجره الى بلدٍ آخر بعد عشرين سنة من قصتك الفاشلة معه ودون أمل".

سمعتُ صوت المدير يتعالى في أذني:

- ليلى... ليلى...

- نعم سيدي المدير.

مدَّ لي ورقتين، لمحتُ على رأسيهما علم دولة كندا ورمز المعهد، ثم قال لي:

- هاتان استمارتان لكِ ولزوجك. أتمنى أن تملئهما عند موافقتك التي سأنتظرها بفارغ الصبر.

مسكتُ الاستمارتين بتردد، لم أجد ما أقوله حينها سوى أنني شكرته على عرضه وتمنيتُ له يوما طيباً قبل أن أغادر مكتبه وأنا ممتلئة بحياةٍ جديدة.

بعد انتهاء حصص دروسي غادرتُ المعهد إلى المقهى المقابل للمعهد في شارع مولاي يوسف حيث تنتظرني صديقتي نزهة صادق ومعها ابنتي ليال.

ما كدتُ أخطو داخل المقهى، حتى قفزت ليال من حضن نزهة قادمةً نحوي وهي تصيح: "ماما... ماما". حملتها وهي تعانقني كعصفورة تُرْسِلُ جناحيها حولي وتطبعُ قبلاً متتالية على خدي. فكرتُ وأنا أسلم على نزهة أن الأطفال يمنحوننا حباً صادقا لا تنتهي ينابيعه.

صاحت نزهة قبل أن آخذ نفسي:

- هذه آخر مرة أمسكُ لك فيها ليال عندي، إنها فتاة مشاغبة، لا تشبهكِ مطلقاً.

ابتسمتُ وأنا أقول في خاطري إنها مشاغبة وعنيدة مثل والدها، لقد أخذتْ كل جيناته على أمل ألا تأخذ منه خيباته وانكساراته.

أجبتها:

- اعذريني يا نزهة، مربيتها مسافرة هذه الأيام، ولم يكن أمامي سواك، فأنتِ صديقتي الوحيدة هنا في الدار البيضاء.

- لا عليكِ، مازحتكِ فقط...

جلسنا نحتسي القهوة ونتجاذب أطراف الحديث عن تحضيرات عرس رفيقتنا حليمة الهلالي الذي لم يتبقَ له سوى شهر، بينما كانت ليال تلهو تارة بملابس نزهة وتارة أخرى تلفُّ حولنا وتقفز كفراشة تضرب بأجنحتها الهواء.

بدت لي نزهة مختلفة، مشتتة الفكر، تريد قول شيء ما لي ولا تستطيع، أعرفُ نزهة عندما تُخفي عني أمرا ما. سألتها دون تحفظ:

- نزهة، ما بكِ؟ أشعرُ بكِ تخفين عني شيئاً ما.

نظرت إليّ مطولا ثم قالت:

- هناك أمر يشغلني ويتعلق بك.

- يتعلق بي؟ !!

أجبتها متفاجئة، لتردَّ عليَّ بحزم:

- اسمعي يا ليلى، سأسألك وتُجيبينني بصدق لو سمحتِ.

أجبتها بترقب:

- الله يسمعنا خير.

قالت لي:

- ليال ابنةُ من؟

- كيف ابنةٌ من؟ إنها ابنتي

- نعم، أعرف أنها ابنتك لكن من أبوها؟ لا تقولي لي جلال من فضلك !؟

استغربتُ من قدرة نزهة على اكتشاف سر ابنتي ليال فحاولت أن أداري سؤالها:

- لم تسأليني هذا السؤال؟

ردّت عليَّ بضجر:

- أنتِ تجيبينني بسؤال !! لكن اسمعي، كانت عندي دائماً شكوك في أن تكون ليال ثمرة علاقتك الطويلة والمعقدة مع طارق وما زواجك بجلال إلا تغطية وهروب لك من طارق التائه واللامستقر. ملامح ليال تطابق ملامح طارق حتى أن الشامةَ التي توجد يسارَ أنفه توجد أيضا في نفس المكان في وجه ليال أُنظري.

كنت أرقبها بهدوء وهي تمسك وجه ليال بعصبية لتريني شامتها، ثم سمعتها تستكمل قائلةً:

- لها نفس لون عينيه العسليتين وكل ملامحه، لكنني هذا الصباح أيقنتُ أنها ابنته.

استفهمتها مستغربةً:

- هذا الصباح؟ كيف؟

ردّت عليَّ وهي تنظر بتمعن في عينيَّ:

- كانت نائمة في حضني هذا الصباح، عندما هممتُ بوضعها في السرير لاحظتُ أن أشفار عينيها لا تلتقيان وهي نائمة، تتركُ عينيها مفتوحتين كأنهما بابٌ موارب. هكذا يبدو طارق وهو نائمٌ أيضاً.

خطفتُ نظرةً تائهة إلى ليال، كانت تلهو بالقرب من كرسي نزهة، تقفزُ وتدندنُ بكلماتٍ لا يفهمها سواها. عدتُ لأسأل نزهة محاولةً تشتيت فكرها بخبث:

- تعرفينَ طارق كيف ينامُ إذن !! جميل

أجابتني بلكنةٍ لا تخلو من عِتابٍ:

- لا تنسي أنني كنتُ على علاقةٍ بطارق قبل أن تسرقيه منّي أيام الجامعة.

- لم أسرقه، لكنه الحب الذي سرقهُ منكِ إليَّ، طارق لم يكن لكِ، كما لن يكونَ لغيركِ...

نفخت بنرفزةٍ بادية ثم قالت:

- على أساس أنه بين أحضانكِ الآن، استفيقي يا مجنونة. أجيبيني على سؤالي دون أن تتوهي بي في مواضيع جانبية كعادتك. ليال ابنةُ طارق؟

نظرتُ إلى ساعتي ثم أجبتها بغضب:

- ليال ابنتي وهذا يكفي، عليَّ أن أنصرف. شكرا لكِ على تعبك معي هذا اليوم.

قبل أن أقفَ لحملِ ليال وأغادر مسكتْ ساعدي بقوة، ظلَّت تنظر إليَّ بعينين فاحصتين قبل أن تقول:

- ليلى، أنتِ لستِ صديقتي فقط، أنتِ أختي. تقاسمتُ معكِ الحلو والمر طيلة عشرين سنة. بعد وفاة والدك وفراقك عن طارق لم يعد لكِ سواي... من واجبي أن أردَّكِ لصوابك.

- أنا لستُ حمقاء يا نزهة، أعرف مصلحتي.

- أنتِ حمقاء لأنك لازلتِ تُعلقين أمالك على طارق، أرى ذلك في عينيك. ليلى، إلى متى ستظل حياتك مشروع انتظار لطارق؟ أنت مخطئة إن بقيتِ هكذا. لقد عاشرتِه عشرين سنة ماذا كانت النتيجة؟ لا شيء. الآن لكِ زوج وابنة وبيت... حافظي على أسرتك يا ليلى، لقد بدأنا نَذبل يا عزيزتي. نحنُ في الأربعينات من عمرنا. الحياة بدأت تتوارى خلفنا. انسي طارق...

تمتمتُ دون أن أعي ما أقول لها:

- لا سيطرةَ لنا على الحب... طارق هو رجل حياتي الوحيد.

تنهدت وأرجعت ظهرها للمقعد، ظلت تنظر إليَّ لثوانٍ ثم استسلمت لفنجان قهوتها. شعرتُ بخيبةٍ كبيرة في داخلي وفي الآن ذاته شعرتُ بصدقِ كلمات نزهة.

رميتُ صفحةَ يدي على يدها قائلةً بتردد:

- معك حق يا عزيزتي، طارق ليس سوى سراب جريتُ وراءه عشرين سنة دون أملٍ ودون مشروع حياة. حان الوقت ربما كي أنزعه من حياتي وأستريح.

مددتُ جسدي نحوها لأقبل خدها ثم وقفتُ لأحمل ليال وانصرفت. التفتُّ إليها وأنا أجتاز باب المقهى، كانت هادئة وتائهة في فنجانها.

في تلك الليلة ظللتُ أفكر في كلام نزهة عند عودتي إلى البيت. يا الله، كيف تكون حياتي بدون طارق؟.

التفتُّ لليال لأجدها تغطُّ في نومٍ عميق. حسدتها على طفولتها وعالمها الجميل الذي غَادرتُه بسرعة لتصبح لي الآن أربعون سنةً في تاريخ الألم والفراق. ذهبتُ إلى غرفة نومي بخطى سريعة وأنا أرسم لنفسي مشروعاً جديداً في الحياة، بحثت عن هاتفي لأجده بجانب وسادتي على السرير، أخذته وركبتُ رقم "ناصر".

- آلو ناصر...

- أهلا ليلى، هل أنت بخير؟

- بخير، بخير...

- ما بكِ شاردة؟

- لا شيء، أردتُ أن أسألك إن كان عَرضكَ لي بالانضمام لحركة "نحن نستحق" قائماً.

- أكيد، أنا أنتظر جوابك في الموضوع.

- سأكون معكم إن شاء الله.

صاح بصوتٍ مرح وهو يغالبُ انتشاءه:

- أهلا بكِ يا رفيقتي القديمة...

- من سيكون معنا في الحركة؟

- عبد الصمد مرشد، نزهة صادق، يوسف غرادي وتلميذكِ بركات وأنا وأنتِ. سنكتفي بهذه المجموعة لقيادة الحركة.

أجبته مستغربةً:

- رفاقنا القدامى إذن...

- نعم رفاقنا القدامى، بركات وحدهُ الدم الجديد في المجموعة. اسمعي سأبعث إلى بريدك الإلكتروني خطة الحركة ومبادئها التأسيسية التي سنناقشها في اجتماعنا القادم...

- متى الاجتماع؟

- بداية الشهر المقبل، بعد عرس حليمة.
- حسنا شكرا لك، ليلتك سعيدة.
- أنا من يشكرك على خبرك الجميل في هذه الليلة، مساؤك سكر رفيقتي.

ما كدتُ أنهي المكالمة حتى سمعت جلال يدخل إلى البيت، فأسرعت إلى إطفاء ضوء الغرفة وخلدتُ للنوم.

6

الدار البيضاء -11 نيسان/أبريل 2015

أكره تلك اللحظات التي يكون فيها زوجي جلال بجانبي. تذكرني بالوجع الذي خلفه غياب طارق في حياتي، تذكرني بفشل حلمي في أن يكون طارق زوجي وأن يجمعنا بيتٌ واحد. لكن، كيفَ سيكون شعوري اليوم في حفلة عرس حليمة عندما سأجلسُ في طاولة واحدة مع طارق وبجانبي جلال؟ يا إلهي ستكون لحظات مرعبة. فكرتُ في ألفِ حيلة كي أعتذر عن الحضور لكن لا عذر يليق بغيابي عن عرس رفيقتي القديمة. عند وصولنا إلى قاعة الأفراح التي ينظم فيها عرس حليمة، فتح لي جلال باب السيارة كي أنزل قائلاً بتذمر:

- أنتِ تعرفينني أكرهُ الأعراس يا ليلى، لا أعرفُ لم تصرّين عليَّ لأحضر معكِ عرس صديقتكِ؟

أجبتهُ بعصبية وأنا أنظر إلى مرآة السيارة لأصلحَ مكياجي:

- في هذه المناسبات لا يليقُ أن أحضر لوحدي وأنا امرأة متزوجة. ألم تقل إني لا أهتم بك ولا أخرج معك؟ ها أنا خرجتُ معك إذن ما بك؟

كان المكان مليئا بالضجة وصوت الموسيقى الشعبية الصاخبة، شعرتُ بنبضات قلبي تتسارع وأنا أعلم أن داخل هذه القاعة رجلاً لطالما ارتبكتُ في حضوره ولطالما قفز قلبي لمعانقته قبل أن أصل إليه. وضع جلال يدي على ساعده وكأنه يريد أن يطيّب خاطري ونحنُ على باب قاعة العرس.

ما إن دخلت إلى قاعة العرس حتى خطفتني نظراته التي كانت تتربص بدخولي كبندقية تتأهب لإغراقي بالرصاص. ارتبكتُ لما رأيته جالسا ينظرُ إليّ بملامح جامدة

فأسرعتُ بسحب يدي من على ساعد جلال واتجهتُ نحوه بخطواتِ طفلة تشتاق لأبيها.

سكتت كل الأصوات في آذاني وتوقف كل العالم وأنا أنظر إليهِ واقفةً بجانبه، بدا شاحباً متعباً كأنه يذبلُ في غيابي عنه. مددتُ له يدي كي أسلم عليه قائلةً:

- وحدهُ الله يعلم كم أحتاج أن أعانقك الآن، لكن سأكتفي بيدي لتعانق يدك.

ردَّ عليَّ بقسوة غريبة دون أن يتحرك من مقعده:

- ها هو زوجكِ قادمٌ خلفكِ، عانقيه كما تشائين.

صُدمتُ من جوابه، لم أفهم سبب قسوته وكلامه بهذه النبرة معي، وسط ذهولي من ردة فعله هذه سمعتُ صوتا بجانبي يقول:

- ماذا يا رفيقة؟ ألم تعودي تعرفيننا؟

التفتُّ لأجد رفيقنا نجيب يجلس على يسار طارق مبتسما. سلمتُ عليه بحرارة متفاجئة بحضوره بعد غيابه عنا لسنواتٍ طويلة. ثم رأيتُ ناصر وبركات يجلسان أيضا على الطاولة ذاتها. آه كم تعميني نظرات طارق عن رؤية الآخرين.

سلمتُ على الجميع وقدّمتُ إليهم زوجي جلال، في الوقت الذي بدا فيه طارق غير مكترث لحضوري، قلتُ مع نفسي وأنا أبحث عن عذرٍ له هو أكيد يغارُ من تواجدي مع رجل آخر غيره، هكذا هو، يحبُّ أن يتملكني وإن كنتُ لغيره. قبل أن أجلس معهم على الطاولة سحبتُ جلال وذهبنا لنسلم على العروسين ونقدم لهما هدية العرس. عندما رأتني حليمة أقترب منها رسمت ابتسامةً مشرقة على وجهها الجميل ذكرتني كم كنتُ حزينة في يوم عرسي.

قلتُ لها وأنا أعانقها:

- وأخيراً يا حليمة تزوجتِ وسنرقص في عرسكِ، ألف مبروك يا عزيزتي.

قالت دون أن تغادر الابتسامة العذبة مُحياها:

- ربي يخليك لي يا عزيزتي ليلى.

ثم أردفت بصوتٍ خافت خشيةَ أن يسمعها جلال:

- أما أنا فأنتظر عرسكِ الآخر كي أرقص فيه، أُنظري إليه كم هو تائه من دونك. اذهبي إليه وكوني معه هو لن يكون لغيركِ في الآخر. وأنتِ تعرفين هذا جيدا يا رفيقتي.

أجبتها وأنا أخطف نظرة إلى طارق الذي بدا غارقا في حديثه مع نجيب:

- حكايتنا صعبة ولقاؤنا مستحيل يا حليمة، طارق لن يكون لأي امرأة.

- ما بك يا ليلى؟ هل استسلمتِ؟ اسمعي نحنُ لا نعيش سوى مرةً واحدة، المرأة التي لا تعيشُ مع الرجل الذي تُحبه ليست بامرأة كاملة، ستبقى دائما ناقصة وتعيش على هامش الحياة. طارق خُلقَ من أجلكِ أنتِ فقط، هيا اتركي هذا الرجل الذي تزوجته في لحظة غباء وعودي إلى طارق... سيظلُ ينتظركِ دائماً.

اكتفيتُ بالابتسام في وجهها بعد أن خانتني كل الكلمات على لساني، عانقتها بقوة ثم عدتُ مع جلال لنجلس رفقة طارق وبقية الرفاق. كانوا كالعادة يتحدثون عن الوضع السياسي في الوطن العربي وعن النضال القومي، سمعتُ نجيب يقول متحدثاً إلى بركات بصوتٍ هادئ كعادته:

- يجب أن نقرَّ كقوميين عرب أن الوحدة العربية تبقى مشروعا سياسيا صعب التحقق وسط المتغيرات السياسية المعاصرة وفي ظل شراسة الحملة الاستعمارية الغربية التي تعمل على تدمير الحضارة العربية

وتجزئة الكيانات السياسية الحالية. انظر للأمة العربية كيف حالها الآن، نحنُ نواجه انهيارا كاملا للتكتّلات الإقليمية، ونواجه انهياراتٍ بالجُملة، نحن غير قادرين حتى على توحيد دولتين عربيتين على وجهة نظر واحدة ومشروع سياسي واحد...

عقّب بركات على كلام نجيب مقاطعاً:

- الوحدة العربية ليست صعبة المنال ولم تفشل كمشروع سياسي لأنها ستظل حتمية تاريخية لنهضة العرب وتوحيد قواهم، مصير العرب ووجودهم يحتم عليهم الوحدة السياسية. كل ما نعانيه الآن من موجات التطرف والطائفية والتفرقة وانهيار للتكتلات السياسية ما هو إلا نتيجة لتراجع وغياب مشروع قومي عربي وحدوي، الأمة العربية تعيش تبعات تراجع المشروع القومي العربي منذ أواخر الستينات إلى الآن. المشكلة الحقيقية تكمن في المناضلين القوميين العرب وفي الفكر القومي العربي الذي ظل جامداً، لم يستوعب التطور السياسي والثقافي والاجتماعي وحتى النفسي للشعب العربي...

قبل أن يكمل بركات كلامه لمحتُ طارق يهزُّ رأسه في إشارة لموافقته رأي بركات، وما إن أنهى كلامه حتى صاح بحماس وهو يتجه بكلامه إلى نجيب:

- وجهة نظره صحيحة يا نجيب، المشروع القومي العربي لم يشهد تطورا جديا في تاريخه المعاصر، لا زلنا متوقفين عند المنطلقات الأولى والمفاهيم التأسيسية التي كانت وليدة الحقبة العثمانية ومناهضة الموجة الأولى من الاستعمار، نحن في حاجة لتلك النظرية النقدية الكبرى، على رأي جورج طرابيشي، لتجديد الفكر القومي العربي وإعادة صياغة منطلقات جديدة مع الحفاظ على مبادئنا الأساسية. بالله عليكم،

أليست الأمة في حاجة الآن لنسخ جديدة من ميشال عفلق ونديم البيطار وساطع الحصري وقسطنطين زريق وأكرم حوراني وزكي الأرسوزي.

في غمرة حديث الرفاق تفاجأتُ فرحةً بسرعة اندماج وتآلف بركات مع طارق ونجيب وهم بالكاد يتعرفون عليه. التفتُّ لجلال وجدتهُ يلهو بهاتفه غير مكترث بما يدور من حديث، مثل هذه المواضيع تُشعره بالملل والضجر. بعيداً عن طاولتنا رمقتُ نزهة تدخل القاعة متوجهة عند العروسة كي تسلم عليها، خمّنتُ أنها أكيد ستبحث عنا وستنظم لطاولتنا. عندما عدتُ بنظري إلى الرفاق، سقطت عيناي على عيني طارق مباشرة، تبادلنا نظرة قصيرة، شعرتُ من خلالها أنه غاضبٌ مني لسبب ما، ثم أشاح ببصره بعيدا عني في الوقت الذي سمعنا بركات يعود فيه للحديث:

- تجديد منطلقات الفكر القومي العربي ضرورة مرحلية لا نقاش فيها، مع الأخذ بعين الاعتبار توحيد الصف القومي، فلا يعقل أن نظل مشتتين بين ناصريين وبعثيين صداميين وبعثيين سوريين ونحن دعاة وحدة. لكن الأهم في نظري هو نقد تجربة المثقف القومي العربي ودوره في تنزيل الفكر القومي العربي إلى الواقع، خذوا مثال المثقف الفرنسي قبل الثورة الفرنسية، ألم يكن المثقف هو الشرارة التي شقت الطريق إلى الحرية والتحرر؟ فولتير وروسو وديدرو وغيرهم ألم يبدأوا بحملة فكرية انتهت بثورة عظيمة من أجل الحرية؟

قبل أن يهمُّ نجيب بجواب بركات، انضمت لنا نزهة وهي تصيح ممازحة:

- أقطع ذراعي إن لم تكونوا تتحدثون عن القومية العربية...

ضحكنا جميعاً قبل أن أجيبها:

- هذه المرة يا نزهة بركات هو من أشبعنا كلاما في القومية العربية والسياسة...

ابتسمت نزهة في وجهي ثم قالت لبركات وهي تغمزه بطرف عينيها:

- الحياة فيها ما هو أجمل من السياسة يا بركات، أُنظر من حولك، القاعة تضج بفتيات مليحات...

أردف طارق سائلاً بركات باستغراب:

- هل اسمك طارق أم بركات؟

علَّق بركات مبتسماً:

- اسمي طارق، لكن الأستاذة ليلى تناديني بركات بحكم أنني طالبٌ في فصلها وبعد أن عرّفتني على الرفاق أصبحوا ينادونني بركات هم كذلك...

ابتسم طارق قبل أن يستهدفني بكلامه الجارح من جديد:

- ربما ليلى تكره اسم طارق يا رفيق...

شعرتُ بألم بالغ وأنا أرى طارق يُمطرني بكلامه الجارح ونظراته القاتلة، فكرت أن أطلب محادثته على انفراد لأفهم ما به لكنني لمحته يحمل كأس عصير من على الطاولة واستأذن بالانصراف إلى الشرفة، ربما يرغب في تدخين سيجارة لوحده... استأذنتُ بدوري وتبعته بخطى واسعة، لكنني لمحتُ نجيب يتبعني هو الآخر عند طارق. ربما يريد أن يتدخل بيننا بعد أن شعر ببرودة تعاملنا مع بعض.

صاح نجيب بمجرد أن وقف بمحاذاتنا:

- أغربُ قصةٍ حبٍ سمعتُ عنها هي قصتكما أنتما الاثنين، ما الذي منعكما من الزواج وتكوين عائلة وأنتما لا تفترقان هكذا ...

التفت إليَّ مباشرةً قاطباً حاجبيه وأردف:

- ما الذي دفعك للزواج بذاك الطبيب يا ليلى وأنتِ تُحبينَ طارق؟

في الوقت الذي كنتُ ألوكُ فيه شتات الكلمات التي توجد داخلي كي أجيبه التفتَ لطارق، ليسأله بدوره:

- وأنتَ يا طارق، ستترك مأساتك مع الوطن تسلبك كل شيء جميل في حياتك؟، ألا تدرك أنك فقدتَ ليلى، حبُّ حياتك يا رجل؟

سرقتُ النظر إلى طارق والفضول يغمرني لمعرفة جوابه على سؤال نجيب، كانت شفتي طارق تتلذذان برشف جرعة عصير ليمون من الكأس الذي رافق يداه منذ مغادرته لطاولتنا، بدا غيرَ مكترث. بعد أن فقد نجيب صبره من مجيء جواب طارق، حاول استفزازه بسؤال جديد:

- أستذهب من جديد إلى فلسطين بحثاً عن موتٍ جميل هارباً من فشلك هذا؟ أستعيشُ معلقاً بين الرحيل والعودة ... بين البندقية وليلى؟

أجاب طارق بهدوءٍ قاتل:

- ربما أنت أيضاً في حاجة للبحث عن موت جميل في فلسطين كي تغسل قلبك من خيبة حبك لنرجس وفشل علاقتكما ... أليست أقدارنا متشابهة في الحب يا صاحبي؟

كان جواب طارق قاسياً، استشعرت قسوته من ملامح نجيب وهو يجيبُ طارق بألمٍ بادٍ على نبرة صوته:

- ربما نرجس لم تكن صادقة في حبها لي، لكن ليلى تحبُّك بجنون، كلنا نعلم هذا من أيام الجامعة ...

ردَّ طارق ساخرا:

- لا فرق بينَ نرجس وليلى ... كلتاهما تعيشانِ الآن بين أحضان رجل آخر.

أنهى طارق جوابه القاسي ودفع كأس العصير إلى شفتيه من جديد وكأنه يستعدُّ ليكمل قسوته بعد أن يبلل ريقه، رفعتُ رأسي لأنظر إليه بإمعان ودمعي يجتمع في مقلتي... لماذا تقسو عليَّ يا طارق؟ لماذا تحولتَ إلى مسدسٍ رشاش يرمي من حوله برصاص القسوة والعدوان. ظلّت عينا نجيب تنظران إليَّ بشفقة وعطف، كأنه يقول لي يا لتعاستك. يا لتعاستنا جميعاً في معاركِ الحب وألمها ...

قررتُ أن أتركهما لوحدهما، أن أذهب لأبكي وحيدة، أذرف الدمع بيني وبين نفسي وبدون شاهد على قسوة طارق عليَّ وعلى مأساتي في الحب.

ما إن خطوت مغادرة حتى أمسكني نجيب من يدي اليسرى، كانت يده ساخنة كالنار، تتصبب عرقاً لا أعرف سببه، نظرتُ إلى ساعده وجدته يرتعش.

- انتظري يا ليلى، هناك أمرٌ عليَّ إخبارك به أنتِ وطارق ...

كانت نبرة صوت نجيب توحي بإخفائه موضوعاً مهما، رجعتُ إلى الخلف حيث كنتُ أقف ماسحةً مدامعي. نظرتُ إلى طارق وجدتُ بصره شاخصا في وجه نجيب وكأنه يحاول أن يقرأ ملامحه، كان الاثنان ينظران إلى بعضهما البعض بطريقه غير خافيةٍ عليَّ.

أعرفهما منذ أيام الجامعة، أزيد من عشرين سنة، عمراً بأكمله وأنا أحفظ ملامحهما وسكناتهما. أعرف ما معنى نظراتهما هاتين، إنها نظراتُ الرحيل ... أحدهما سيرحل !!.

قطع صوتُ نجيب الصمت الذي خيم علينا لثوانٍ قائلا وهو يتأمل وجه طارق:

- أنتما الوحيدان اللذان عليَّ إخبارهما...

أكملَ بعد أن نثرَ من سيجارته نفساً عميقاً:

- مؤخراً أصبحت أجهزة الأمن تُضايقني وتتبع كل خطواتي، إنهم يعدّون عليَّ أنفاسي. بلغتني معلومات أن جهاز الموساد دخل هو الآخر على الخط وأصبح يتربص بي ...

صاح طارق مقاطعاً:

- هل كشفوا أمرنا؟

لم أتمالك نفسي الغارقةُ في الفضول، التفتُّ إلى طارق وصحتُ في وجهه:

- أي أمر؟

لم يكترث طارق لسؤالي، اكتفى بالبحث عن سيجارة وإشعالها... مالَ إليَّ نجيب مُجيبا على سؤالي:

- منذ خمس سنوات يا ليلى ونحنُ نعدُّ رفقةُ خليل في فلسطين لتشكيل جيشٍ من رفاقنا القوميين العرب من مختلف الأقطار العربية للقتال في قطاع غزة والضفة ضد جيش الاحتلال الإسرائيلي، ربما المخابرات الإسرائيلية استشعرت المخطط وتحركت لتصفيتنا. بقائي هنا فيه خطر على حياتي وعلى رفاقنا هنا...

قاطعه طارق مستغرباً:

- لم أعهدكَ خائفاً؟

- هذه المرة بلى، ربما لأنه لدي حلمٌ بسيط أريد تحقيقه...

- أي حلم؟

- أن أصيرَ أباً.

نظر إليَّ طارق متفاجأ من كلام نجيب، ثم أدار وجهه ليسأله:

- كيف؟

أجابه نجيب بخجل:

- لديَّ صديقة تونسية، قررنا أن نتزوج وأن نقطن في سيدي بوسعيد بضواحي تونس العاصمة. أريد أن أصبح زوجاً وأباً يا طارق، إنها آخر أحلامي المتبقية.

- نسيتَ نرجس إذن؟

- ليست مسألة نسيان... العمر يجري وأنا لم أحقق أي حلم من أحلامي الماضية، أريد أن أصبح أباً، أريد أن يكون لي أبناء قبل أن أغادر هذا الكون على أرض فلسطين ...

مسكتُ يد نجيب اليسرى وضغطت عليها بقوة وكأني أقول له، نعم من حقك أن تصير أبا وأنا أشجعك ...

قال طارق بقلق:

- الوضع غير مستقر في تونس بعد الثورة يا نجيب، كما أنها أصبحت مرتعا للعملاء وأجهزة الاستخبارات... تونس ليست بالخيار الجيد.

- الحب يستحق أن نغامر من أجله يا طارق، وإن كان ثمنُ المغامرة حياتنا.

- وكيف ستدبر حياتك هناك؟

تململ نجيب قبل أن يجيبه وهو يضع ابتسامة مكابرة على شفتيه:

- لقد تدبَّرت لي وداد عملا في أحد الفنادق في العاصمة تونس، كما أنني سأبيع منزلي في طنجة ونقتني شقة نعيش فيها هناك، على كلٍ ما هي إلا سنة أو سنتين بالكثير وأرحل إلى فلسطين.

قاطعه طارق من جديد ساخراً:

- اسمها وداد إذن...

ابتسم نجيب بخجل ورد عليه:

- نعم اسمها وداد، وداد الشافعي. فتاة شاعرية من مدنين جنوبي تونس.

انضممتُ أنا الأخرى مداعبةً إياه:

- أهي جميلة؟

- جميلة نعم، لكن ليست أجمل منكِ يا ليلى ...

ردَّ عليه طارق بعنف:

- التزم أ رفيق، أنتَ تتغزَّل بليلى

أجابه نجيب مستسلماً:

- اعذرني، نسيتُ أنكما حبيبان...

استدركتُ قائلةً وكأنني أجلد ذاتي:

- حبيبان مع وقف التنفيذ

نظرتُ في عيني طارق بألم وعتاب في الوقتِ الذي كان فيه نجيب يبتسم باستحياء ...

مرَّت لحظات صمت قاتلة، قطعها فجأة صوتُ نجيب قائلاً وهو يشير بأصبعه إلى أحد أزرار سترة طارق:

- في تونس سألتقي بخليل وفيصل، سيكون لقاؤنا إشارة البداية لتجميع "الجيش العربي القومي" في فلسطين، سأخبرك بالمستجدات من هناك كي تدبر نفسك وتلتحق بنا أنت ومجموعتك ...

كنتُ أنظر لطارق وأنا أستمعُ لكلام نجيب، أما قلبي فكان يصرخ بصوت الأنين قائلا " أرأيتِ يا غبية، طارق يخطط للرحيل عنكِ مجدداً ودائماً ... ها هو سيلجأ من جديد إلى بندقيته، إلى فلسطين تاركاً إياكِ لمأساتك ... هذا هو الذي قال لكِ يوماً أنه عائدٌ من أجلكِ! ها هو سيعود إليها، تلكَ التي تنتظره في فلسطين وسطَ أزيز الرصاص وهدير المدافع".

لم أشعر بنفسي حتى قاطعتهما بكل قسوة:

- طارق له معركة هنا أهم من معركة فلسطين.

التفت إليَّ طارق بتجهم عميق على وجهه، في حين كانت ملامح نجيب متأثرة متضامنة معي.

خطفني صوت نجيب قائلاً:

- ها قد حضرت العروسة بفستانٍ جديد ... ما أحلاه من فستان.

علَتْ الأصوات مهللة بحضور العروسة والعريس "الصلاة والسلام على رسول الله، الله مع الجاه العالي ..."

أردفَ نجيب قائلاً بحماسة:

- سأنضم لهم.

لكنه قبل أن يمضي توقف للحظة نظر إلينا بشرود، ثم جمعنا بكلتا ذراعيه إلى صدره. كان عناقاً على أثر الدموع، حتى طارق لمحته يذرف دمعاً كاتم الصوت.

بقيتُ أنا وطارق نقفُ في الشرفةِ كالغرباء، ننظر إلى الحضور الذي بدأ يرقص ويغني مع قدوم العرسان.

بدأت إيقاعات الغناء الشعبي المغربي تصدح في المكان، الكل يرقص ويتمايل ... كانت العروسة تبتسم بدلع كبير في وجه عريسها كأنها تقول له، أُنظر، إنهم

يرقصون في ليلة عمرنا، في ليلتنا التي سأكون فيها لك وأنتَ لي، حيث ستخرص في أذاننا كل الأقدار وقوانين العالم عندما نختلي معاً، سيخرص العالم بسياسته وحروبه وأخباره القديمة والعاجلة. خبرٌ عاجلٌ واحدٌ سنتداوله هذه الليلة، هو خبر لقاء أجسادنا في مطار الحب لتحلق عاليا في سماوات العشق.

كنت أغرقُ في صمتي فيما كان طارق يغرق في دخان سيجارته. خطفتُ نظرةً إلى عينيهِ، فبادرتني عيناه متسائلة ماذا هناك؟

هل للعيون لغة يا ترى؟ هل تتكلم بأحرف نجهلها لكن نعلمُ مغزاها؟ أم هي لغةٌ صمَّاء على طريقة برايل تتلمسُ حروفها في أعماقِ جراحنا دون أن ندري شكلها.

قلتُ له بمرارةِ الفاشلةِ في قصة حبها:

- بقليل من الحظ، كنا سنكون الآن محمولين على العمارية أنا وأنت... وكل هؤلاء يرقصون حولنا في عرسنا.

أجابني دونما اكتراث ودخان سيجارته يتحرر من شفتيه باندفاع الأسير المحرر من معتقله.

- ربما كنا سنكون كذلك... لكن القدر جرَّب كل احتمالاته في قصتنا وكانت نتيجته الحتمية استحالة أن نكون لبعضنا للأبد... ليس هناك من أبدٍ يجمعنا يا ليلى.

- هذا رأيكُ في قصتنا؟

ردَّ عليَّ دون أن ينزع نظره على الأجساد المتراقصة في داخل الحفلة:

- هذا على الأقل وصفُ واقعِ قصتنا.

صمتَ قليلاً ثم أردف:

- أنا وأنتِ قطعتا ثوبٍ جمعتهما إبرةُ الحب... ولأن القدر محتالٌ وماكر في قصص الحب، فقد جعل إبرتنا دون خيطٍ يجمعنا إلى الأبد. أنا وأنتِ لا نملكُ الآن سوى ثقوب إبرة الحب ووجع الفراق.

سقطت كلماته عليَّ كشلال مياهٍ باردة لجمت لساني. تركتُ عينيَّ تزحفُ بنظرها بين أصدقائنا الذين لم يتوقفوا عن الرقص والتسابق لحمل عمارية رفيقتنا حليمة. كان الجميع يرقص ويغني ويضحك.

حتى نجيب، المليء بالجراح حدَّ التخمة كان يرقص كفرسِ المواسم الشعبية، ناصر الذي أعيته السياسة وذكريات النضال القومي العربي يرقص هو الآخر، نزهة وبركات وكل الرفاق يرقصون. لماذا وحده طارق لا يرقص إلا خفية بعد أن يَسْكَر من جراحه وأحزانه، كأنه زوربا الجديد.

لمحته بطرف عيني يمرّغ رأس سيجارته بجدار الشرفة. تذكرتُ أنه يكره أن يدوس على سجائره بعد أن ينتهي منها. قال لي في أحد الأيام في بداية علاقتنا "في البداية نحرقُ السيجارة بلهبِ الشوق ونقبلها بشفتينِ تواقتين لامتصاص الحياة من لفافتها... ثم عند انتهائنا منها ندوسها بأقدامنا، جحود الإنسان ونكرانه للجميل لا مثيل له يا ليلى".

آهٍ يا طارق، أحيانا أغارُ من سجائرك... !!

7

الرباط -21 نيسان/أبريل 2015

وأنا أغلق الباب، سمعتُ صوت خطى على الدرج. التفتُّ لأرى جاري عمر يسبق زوجته صاعدا إلى شقته. ابتسمتُ وألقيتُ عليهم تحية الصباح ثم سألتهم عن أحوالهم وبعدها اعتذرتُ كوني مستعجلاً. ما إن نزلتُ درجتين حتى تبعني صوتُ عمر سائلاً:

- سي طارق، هل أنت بخير؟

استغربتُ سؤاله، كانت نبرةُ صوته خافتة تميلُ للمواساة. تطلَّعتُ إلى زوجته فاطمة لأجد في عينيها نفس النظرات وملامح المواساة والشفقة.

أجبت مستغرباً:

- أنا بخير سي عمر، ما بكما؟ هل هناك خطبٌ ما؟

أجابني على استحياء:

- منذ أن غادرتك السيدة ليلى وأحوالك لا تبعث على الارتياح، نحنُ متأسفين، لكنك شخصٌ عزيز علينا وتهمنا راحتك وسعادتك.

- أنا بخير سي عمر لا تشغل بالك...

تدخلت فاطمة بصوتٍ مندفع قائلة:

- لا، أنتَ لستَ بخير سي طارق، أصبحتَ حزينا بشكل مقلق والكآبة احتلت نظراتك التائهة، فضلا عن كونكَ تعودُ سكرانا كل ليلة. نحنُ أصدقاء وجيران، من واجبنا الوقوف الى جانبك في وقت الشدَّة.

أجبتها ساخراً:

- تتجسسينَ عليَّ يا فاطمة؟

استدركَ عمر كلامها:

- حاش لله أن نفعل ذلك سي طارق، نحن نلتقي بشكل يومي في باب أو درجِ العمارة. والعينُ لا تتجاهل أحوال الأحباب والأصدقاء.

خانتني لغتي في الردِّ على عمر وزوجته، بعد أن تأثرت باهتمامهما. دفعتُ يدي اليسرى لأربت على كتف عمر. نظرتُ في عينيه الذابلتين ثم سرقتُ نظرةً خاطفةً من وجه فاطمة. قلت لهما:

- شكرا لمحبتكما، الله وحده يعلم معزتكما عندي. ادعوا لي فقط في صلاتكما أن يغفر الله لي ويساعدني.

ابتسمتُ لهما وتركت أرجلي تدفعُ جسدي على الدرجِ تاركا عمر وزوجته واقفين كتماثيل لا تعرفُ الحراك لكنها تعرفُ كل الأحاسيس والمشاعر الجميلة.

عند بابِ العمارة، وجدتُ "با معمر" يصرخُ بهستيريا وسط مجموعة من الأطفال يحومون حوله ويصيحون: "وا المسطي... وا المسطي". مسكتُ بيده بلطف ونهرتُ الأطفال الذين سرعان ما هربوا... التفت إليه وجدته يتنفس بصعوبة وهو يصيح بعبارته التي لا تفارق لسانه: "أوقفوا العالم أريد النزول".

لا أحد يعرفُ قصةَ هذا الرجل ولا من أينَ أتى. عندما عدتُ من القتال في فلسطين وجدته يفترش رصيف العمارة كل يوم بلباسه الرّث وقدميه الحافيتين. البعض يقول إن با معمر كان أستاذ فلسفة لكنه تعبَ من الحياة فأصبح يعيشُ في ثوب الجنون والبعض الآخر يقول إنه كان روائياً يعيش بين شخصياته وأفكاره حتى أضاع الخيط الذي يجمعه بهذا الواقع فصَار يمشي بين الناس أحمق مجنوناً.

لا أذكر أنني رأيتُ با معمر يوما يتكلم أو يجيبُ على أسئلة أحد، يردد فقط جملا قليلة غير مفهومة: "أوقفوا العالم أريد النزول" و"الله ينعل بو العالم". آه يا با معمر، لستَ وحدك من تعب من هذه الحياة، لستَ وحدك من يلبس ثوب الجنون، كلنا جُننا وضيعنا ذاك الإنسان الحقيقي في دواخلنا.

أخذتُه معي إلى المقهى كي نفطر معاً كعادتي عندما أصادفه كل صباح عند باب العمارة. طلبتُ له الشاي والأومليت الذي يحبّه وتركتُ عينيَّ تغوصان في ملامحه التائهة وأنا أشرب قهوتي على مهل. كان يلتهم البيض ويشرب الشاي كأنه يسابق الزمن، سألته محاولا انتزاع كلماتٍ منه:

- أينَ كنتَ البارح؟ تركتني آخذ فطوري لوحدي يا رجل. هل يدعوك أحد غيري للفطور؟

ظلَّ صامتاً وهو يأكل، كأنه لم يسمع كلامي أو لا يكترث له. عدتُ لسؤاله:

- حسناً، قل لي فقط ما بك؟ لماذا أنت قلقٌ هذا الصباح؟

توقفَ عن الحركة للحظات، بدا أنه يغوص في قاع ذكريات غامضة في داخله قبل أن يقول بصوتٍ خافت ومتقطّع: الله ينعل بو العالم، الله ينعل بو العالم... فجأة صرخ بملء صوته بعبارته الشهيرة "أوقفوا العالم أريد النزول" وانطلق يصرخ ويجري في الشارع كعادته.

لم أستطع إكمال فنجان قهوتي وأنا أرى في "با معمر" عنواناً لمأساة البشر في هذه الحياة، فتركتُ أرجلي تتمشى بي في شارع محمد الخامس. منذ سنين طويلة وأنا أعشقُ التجول بشارع محمد الخامس بالرباط، ليسَ بسبب رموزهِ السياسة، حاش لله، بل بسبب ذلك السَّفر الجميل إلى ذكرياتي الغابرة الذي يمنحني إياه.

على رصيف هذا الشارع مشيتُ يوما عاشقاً أرقصُ صولفيج الحب. عليهِ مشيتُ باكياً، مشيتُ ناجحاً وأحياناً كثيرة مشيتُ عليه جاراً خيباتي المتراكمة. على كراسي

هذا الشارع كتبتُ أجمل قصائد الحب، نسجتُ أروع الأشعار وصادقتُ أسراب الحمامَ الراقصة حولي، والتي كانت تُكلّفني درهما ذرة كل يوم عساها تظلُّ وفيةً لي وتؤنس وحدتي الموحشة في هذا الوطن. نعم أحبُّ هذا الشارع. لكنني ما عدتُ أحبُّه الآن!!

كيفَ أحبُّ شارعاً تحول رصيفه مأوىً لإخوتنا السوريين، يشحتوننا ويتوسَّلون دراهمنا؟ كيفَ أمرُّ بمحاذاتهم وهم يستعطفوننا دون أن يتمزق قلبي وينفطر على شعبٍ كان وسيظل شمعةَ العرب وفخرهم. يا إلهي، أي ثورةٍ هذه التي تحولُ شعبها إلى أشلاء لاجئين وأسراب شحاتين؟ أي ثورة ملعونة هذه التي عاثت في سوريا العروبة تذبيحاً وتشريدا وقطعاً للرؤوس وأكلاً للأكباد والقلوب؟

في طريقي إلى بيتِ أماليا هذا الصباح، مررتُ على مكتبة الألفية الثالثة بشارع محمد الخامس لأبحث عن كتاب اميل دوركايم "الانتحار". لكنني لم أجده، وعدوني في المكتبة أنهم سيحضرونه لي في ظرف أسبوع.

عند باب منزل أماليا في حي الليمون وقفتُ كبطلٍ هاربٍ من قصص الحب التي حَكم التاريخ والسياسة بفشلها. طرقتُ الباب بارتباك، أحسستُ أن أناملي ترتعش وكأنها تعارضني في هذا القرار الجنوني الذي اتخذته. وكأنها كانت تسألني أسترتيي في أحضان أماليا فقط لأنك لم تجد امرأة غيرها تفتح أحضانها لك؟ ولماذا الزواج! أ بعد أن هربتَ من كل النساء العربيات اللائي أحببنك تسقط في فخ الزواج من إسرائيلية؟

فُتح الباب ليوقف سيل الأسئلة المتناسلة في فكري، أطلّت عليَّ أماليا، تلبسُ ثوباً حريرياً أبيض، بوجه صافٍ ازداد بياضا وهو يغرق وسط شعرها الأسود الذي وإن كان فوضويا غير مرتب إلا أنه بدا مغرياً شهياً برائحته التي سبقت أماليا إليَّ ...

عانقتني كطفلة وجدت دميتها المفقودة، رمت ثقل جسدها عليَّ، تعلقت بعنقي وصدري حتى صارت أقدامها مرفوعة عن الأرض. اكتشفت أن أماليا أقصر قليلاً مني، ربما لأن قدميها حافيتان وهي التي لا تغادر الأحذية العالية الكعب.

طبعتْ قبلة حارة على شفتي ثم قالت لي:

- خُلقنا لنكون معاً رغم تفاهات التاريخ وأخطاء أجدادنا... سمعتْ؟ خلقنا لنكون معاً، أنا وأنت؟

سرقتْ نظرة خفيفة من عينيَّ، ثم عادت لتعانقني، كنتُ صامتاً، بارداً لا أعرف ما أقوله. انتبهتْ أننا لا زلنا عند الباب ثم دعتني للدخول وهي تمسك يدي اليمنى كطفلة ترفض أن تفارق يد أبيها.

أغلقتْ الباب برفق، ضغطت على زر قريب من الباب زاد في إضاءة الشقة التي كانت تسبح في أضواء خافتة... طلبتُ منها أن تترك الإضاءة كما كانت، فكثرة الضوء لطالما أشعرتني بفراغ نفسي أجهل أسبابه.

تركتُ جسدي يجلسُ على الأريكة التي تتوسط مدخل الشقة، التي لازالت كما هي قبل خصامي مع أماليا ومغادرتي شقتها منذ أكثر من شهر. لم تُزل أعينها عن عينيَّ، كانت تبدو وكأنها تُسجل كل ملامحي في ذاكرتها بكل دقة. شعرتُ بارتباك وأنا أعلم أنها تنتظر مني جوابا على طلبها أو قرارها المصيري في أن نكون معاً للأبد أو لا نكون. كنتُ أسأل نفسي هل سنتخاصم مرة أخرى أم أنني استسلمتُ لرغبة أماليا في أن نكون معا إلى الأبد؟

جلستْ ملاصقة لي على الأريكة تدفع صدرها ووجها نحوي وكأني فريسة تتربص بها لافتراسها. تحاشيتُ النظر إليها، تركتُ حواسي تغرق في رائحة شعرها وعطرها الفتاك الذي قضى على كل كلماتي وأخرس صوتي كأنه سلاح كيماوي أردى رزانتي وعقلي قتلى لتبقى وحدها حواسي الرجولية واقفة منتصبةً للاشتباك بجسدها الأبيض الناعم وملامحها الجميلة المغرية.

دفعت أناملها لتراقص مقدمةَ شعري في الوقت الذي استنجدتُ فيه بسجائري البيضاء. قالت لي:

- ما بهِ حبيبي العربي لا يريد الحديث معي؟

اندفع صوتي بشراسة وكأنني أستجمعُ قواي التي انهارت أمام سيف أنوثتها لأجيبها:

- هنا يكمنُ الخلل في قصتنا يا أماليا، أنني عربي وأنتِ إسرائيلية...

ألقت بقفاها على ظهر الأريكة متذمرةً وهي تقول:

- تباً، لقد عدتَ من جديد لأسطوانتك القديمة، السياسة والحروب والتاريخ وإسرائيل والعرب ووو...

أدارت وجهها بعنف نحوي ثم أردفت:

- ألا يمكنكَ أن تنسى كل هذه المبادئ والأفكار المثالية التي جعلت منك مشردا تعيش على هامش الوطن وعلى هامش الحب وعلى هامش الحياة... وعلى هامش كل شيء؟ ألا ترى أنك تُضيّع كل شيء جميل في حياتك. أنا مِن إسرائيل نعم، ولكن لستُ أنا من يحتلُ فلسطين. لستُ أنا من دمرَ أمَالك في وطن عربي موحد وذو كرامة، لستُ أنا من صنع مأساتك ومأساة رفاقك مع الوطن والحياة والقدر. ربما أنا هدية القدر لك، كي أنقذك من هذا الضياع على سفينة الحب... كلٌ منا يستحق الحب، أنا وأنت نستحقُ هذا الحب بعيدا عن حروب أهلينا ومعاركهما، دعهم يتحدثون باللغة التي يفهمونها، لغة البنادق والرصاص والمفاوضات التي لا تنتهي وتعال أتحدث أنا وأنت بلغة العشق والحب الذي لا منطق له. قلبي الذي لم يخفق يوماً لأناشيد هَتِكْفاه وهافا ناغيلا الإسرائيلية، ها هو يخفقُ لك أنت وحدك منذ سنين ...

لم أجبها، ظللتُ شارداً وهي ظلت تتطلع إليَّ في حزن. صمتتْ للحظات وكأنها تستجمع كلماتها ثم قالت لي:

- كم أنا غبية، عندما رأيتك عند الباب ظننتُ أنك اتخذت القرار، وأتيتَ موافقاً على زواجنا...

أجبتها مقاطعاً:

- أنا فعلاً أتيتُ موافقاً على فكرة الزواج...

- إذن ماذا بك؟ متردد، نادم؟

- لا هذا ولا ذاك يا أماليا، أنتِ تعلمينَ معزَّتكِ عندي ولكنني غير قادر على تقبل هذا الواقع المنافي لمبادئي، المنافي لعقلي ولجسدي حتى، لا أستطيعُ وضع شفتي على شفتيكِ وأمتصَ رضابهما دون أن تمرُّ في ذهني صورة طائرة إف16 تقصفُ أهلي بغزة أو الضفة. لا أستطيعُ أن أحضنكِ دون أن أتخيل أن الآلاف من الفلسطينيين يحتضنهم ركام منازلهم التي دمرها أهلكِ ... كيفَ لنا أن نتزوج وأن ننجبَ أبناء؟ ماذا سأسمي أبناءنا مناحيم وغولدا وشارون وبيرتس على أسماء من دمر وحرق الشعب العربي؟

قفزت من مكانها لتجلس على الأرض بين ركبتي، وضعت يديها على وجهي ثم قالت وهي تصارع بداية دمعٍ في عينيها:

- أنا لستُ إسرائيلية يا طارق؟ من اليوم أنا لستُ إسرائيلية... وكل ما تريده سأفعله، أسمعت، كل ما تريده سأفعله. سأمزقُ جواز سفري الإسرائيلي سأمزق علم إسرائيل وأدوسه بقدمي إن شئت سأحرق نجمة داوود حتى ... المهم أن نكون معاً إلى الأبد، أنا لا هوية ولا وطن لي بعد الآن سوى أنت يا طارق.

جذبتها إليَّ وعانقتها، حينها انهارت وبدأت تبكي كطفلة... شعرتُ أنني قسوتُ عليها، وأنها لا تستحقُ كل هذا العذاب في قصتنا. لا أعرفُ لما حينها فكرتُ في ليلى والفرق بينها وبين أماليا. ليلى لم تَعُد لي ولا هي حاربت كل ما يفرقنا لتبقى معي، على عكس أماليا التي تتمسك بقصة حبنا اللامنطقي بكل جنون. أنا لا أملكُ إلاَّ أماليا الآن، لا حب لي الآن سوى أماليا. ربما القدر أبقاها لي لتكون الوحيدة التي ستنقذني من وحدتي ومن مأساتي. ربما مأساتي مع الوطن لن تشفيها إلا ابنة عدو الوطن.

مسكتُ وجه أماليا بين يديَّ ومسحت عينيها الزرقاوين ببنان أصابعي، قبّلتُ جبهتها ثم قلتُ كي أخفف حزنها:

- متى سنتزوج إذن؟

ابتسمت بالتدرج ثم صرخت بهيستيريا، وانطلقت تقفزُ من الفرح. ردَّت عليَّ:

- لولا أن العرس يلزمه استعداد مسبق لقلتُ غداً...

- استعدي كما تشائين يا عزيزتي.

من فرط سعادتها بدأت تسألني وتسأل نفسها من سندعو لزواجنا وماذا سنعد له وأين ومتى سنقيمه.

- ما رأيك في أواخر الشهر المقبل، شهر ماي؟ ما رأيك أن نقيمَ العرس بباريس أو روما أو في الرباط إن شئت؟

بقيتُ أنظر إليها مبتسما، وهي واقفة تُعدَّ عليَّ كل ما علينا عمله استعدادا للعرس... غرقتُ في مونولوج داخلي وأنا أتتبع حركات شفتيها، سحبني فكري إلى أيام الجامعة حيث كنتُ أبدأ يومي وأنهي مسائي على صوت ليلى وأحضانها الدافئة. أمعقول أن يكون "بلزاك" صادقا عندما قال إن الحب رجل وامرأة وحرمان؟ أمعقول أن أزفَّ لامرأة غير ليلى؟

8

الدار البيضاء -10 أيار/ماي 2015

قبلَ أن يبدأ اجتماع رفاقنا في مكتب ناصر هذا المساء انشغلتُ في الحديث عن تفاصيل عرسِ صديقتنا حليمة مع نزهة وبركات، كنتُ أحاول استرجاع كل تفاصيل ذاك العرس عسى أن يخبراني بما قاله طارق أو سمعاه عنه في غيابي، حتى سمعنا ناصر يصيحُ بحماسة:

- تحية حارة لكل الرفاق. أقترح قبل أن نمر لمناقشة الآلية التنظيمية للحركة كما هو مقرر لاجتماعنا اليوم أن نفتح مجالا وللمرة الأخيرة لمناقشة أرضية مبادئ الحركة. ما رأيكم؟

تدخلتْ نزهة مستغربةً:

- أظن أننا اتفقنا على مبادئ الحركة في اجتماعاتنا السابقة، الآن يجب على اللجان أن تبدأ عملها.

ردَّ عليها ناصر:

- بعضنا لازال يتحفظ على البعض من المبادئ يا نزهة.

ثم التفت إلى بركات قائلاً:

- بركات، أي مبدأ لازلتَ تتحفظ عليه؟

صاح بركات بصوته الجهوري:

- المبدأ الثالث: "تؤمن حركة "نحن نستحق" أن المؤسسة الملكية صَمَّام أمان للشعب المغربي وهي الضامن الحقيقي لسلامة الوطن واستقراره السياسي وهي في نفس الوقت الفاعل الأساسي في تخليق وإصلاح الحياة

السياسية وكذا الإشراف على الإصلاح الثقافي والفكري بالمملكة. لذلك ف "حركة نحن نستحق" ترفع كل مطالبها إلى الملك بالدرجة الأولى". هذا المبدأ لم يرق لي، فيه مهادنة جبانة اتجاه النظام وكأننا نزيّنُ صورته ونخرجه من مسؤولية الاستبداد وانسداد الأفق السياسي بالمغرب. هذا المبدأ عليه أن يزول...

لم يمهله ناصر حتى ردَّ عليه:

- هذا هو المبدأ الذي يحدد خصمنا يا بركات، اتفقنا منذ البداية أن خصمنا في الحركة هو الأحزاب السياسية وليس الملك...

صاحت نزهة معاضدةً فكرة ناصر:

- سنرتكب خطأ استراتيجيا سيقتل الحركة في بدايتها إن لم نُحيِّد النظام من معركتنا، ليست لدينا الإمكانات ولا الكادر الذي سيمكننا من مواجهة الأحزاب السياسية والنظام الملكي معاً، ثم تشخيصنا للوضع السياسي للبلاد يفيدُ بعدم مهاجمة المؤسسة الملكية، هذا ليس هدفنا في الحركة، على الأقل الآن. من الحكمة إذن أن نكسبَ معنا طرفاً نهاجم به الطرف الآخر. أي أن نكسبَ الملك معنا في مواجهة الأحزاب السياسية، هكذا سنكون أقوى...

صرخ بركات بنرفزة:

- ولكن ليس بهذه اللغة الانبطاحية، صمام أمان والضامن لاستقرار الوطن و"التخربيق" ...

تدخل يوسف غرادي لتلطيف الجو قائلا:

- أنا أتفهم بركات في فكرته، هو ليس ضد المبدأ، هو مع فكرة أن نواجه الأحزاب الحالية لا النظام الملكي لكن صياغة المبدأ صراحةً فيها لبسٌ ما، من يقرأ المبدأ سيظن أننا لا نحمّل النظام الملكي أي مسؤولية فيما يجري في الساحة السياسية. أنا أعتقد إذن أن نصحح الصياغة.

ردَّ ناصر بصوتٍ هادئ:

- حسنا يا جماعة، ماذا تقترحون لنصحح الصياغة.

أدار يوسف وجهه ناحية بركات ثم دفع كتفه ممازحاً:

- هي يا رفيق، أعطنا صياغة جديدة للمبدأ.

- فلنغير عبارة "صمام أمان" ب "أحد الثوابت الوطنية" ثم نحمّله مسؤولية الإصلاح السياسي والثقافي.

هزَّ ناصر رأسه موافقاً في الوقت الذي كان بركات يترقب ردة فعله. انتهزتُ لحظة الصمت التي حلّت حينها قائلةً:

- أما أنا لو سمحتم لي، فأطلب إعادة نقاش المطلب الثاني وليس المبادئ.

ابتسم ناصر قبل أن يقول لي:

- يا رفيقتي، أنتِ تُعيدينا لنقطة الصفر، المطالب اتفقنا عليها جميعا... نحنُ الآن بصدد المصادقة على المبادئ وإطلاق عمل اللجان وليس المطالب.

- اعذرني يا ناصر، لكن المطلب الثاني أجده لا يتوافق بتاتا مع الطابع السياسي للحركة. نحنُ نطالب بإسقاط الأحزاب السياسية الحالية وحلّها لماذا سنطالب بالإصلاح الفكري والثقافي؟ على الأقل في المدى القريب.

التفتَ ناصر إلى عبد الصمد ضاحكاً:

- تفضل يا عم، أعِد عليها محاضرتك في الأسبوع الماضي... فليلى لم تفهم بعد.

كان عبد الصمد سيهمُّ بالحديث قبل أن أقاطعه بصوتٍ عالٍ:

- لا لا اسمح لي، ليس الأمر أنني لم أفهم، بل لم أتفهم...

انفجر الرفاق جميعاً ضاحكين على كلامي، فما لبثت أن ضحكتُ معهم. لمحتُ بركات يضحكُ بقوة وكأنه يغتنم أول فرصة للضحك على أستاذته.

صاح ناصر وهو يغالب ضحكه:

- يا الله يا رفيقتي، ماذا تقصدين بأنَّكِ لا تتفهمين؟

- ببساطة أنا أفهم مغزى هذا المطلب، لكن لا أتفهم أن يكون مطلبا لحركة نحن نستحق، الإصلاح الفكري والثقافي مطلب سيُميّع فكرة الحركة وسيجعل النظام يلتفُّ علينا.

تدخَّل عبد الصمد بصوته الهادئ قائلاً:

- بدون شك هدفنا الأساسي في الحركة هو تغيير النخبة السياسية الحالية وتأسيس حزبين أو ثلاثة أحزاب كحدٍّ أقصى لنؤسس لحياة سياسية قوية وجادة تضع الملكية في مكانها الصحيح وتلبي التطلعات الحضارية للشعب المغربي. لكن من هم الأحزاب في آخر المطاف؟، هم أفراد من الشعب، إن لم نصلح ونقوِّم تربية الشعب الفكرية والثقافية سنجد أنفسنا من جديد أمام أحزابٍ فاسدة وضعيفة. لذلك فتحصين الشعب فكرياً وثقافياً ضرورة ملحة لتحصين الحياة السياسية وتقويتها.

على العكس يا ليلى، حركتنا من المفروض أن تحمل مطلب الإصلاح الفكري والثقافي إلى جانب حل الأحزاب وتغييرها.

قبلَ أن أتدخل لأشرح وجهة نظري، قاطعني ناصر:

- اسمعوا، اسمعوا، لن نضيِّع الوقت في نقاش كل شيء. علينا أن نتقدم في عملنا لا أن نعود للوراء. أولا، نحن الآن متفقون جميعا على مبادئ الحركة بعد صياغة بركات الجديدة. أليس كذلك؟

صاح الجميع قائلاً "نعم"، ثم نظر إليَّ:

- ليلى توافقين على المبادئ؟

- نعم أوافق.

- جيد، بخصوص مطلب الإصلاح الفكري والثقافي لن نناقشه، سنطرحه للتصويت. من يوافق على الإبقاء عليه كمطلب ثانٍ للحركة؟

رفع الجميع يده موافقاً على إبقاء المطلب الثاني، باستثناء بركات. تطلَّع إليه ناصر ساخراً:

- لم ترفع يدك تضامناً مع أستاذتك يا بركات؟

ردَّ عليه بابتسامة خفيفة:

- أبدا، بل لأني أراه مطلبا سابقا لأوانه.

التفت ناصر إلى نزهة، غمزها ثم قال:

- ليلى وبركات يشكلان اليوم جبهة المعارضة.

ضحك الجميع ثم أردف ناصر:

- أربعة أصوات مع بقاء المطلب وصوتان ضده. الديمقراطية واضحة، سنُبقي على المطلب.

أخذ يقلِّب في أوراقه ثم طلب منا أن نطالع خطة العمل قائلا:

- خطة العمل تقتضي في البداية إنشاء أربع لجان، لجنة الدراسات ستقوم بإعداد الملف القانوني لمطالب الحركة وكذا الدراسات النقدية للعمل السياسي في المغرب هذه اللجنة ستترأسها ليلى المرابط بحكم تخصصها. لجنة الإعلام والعلاقات العامة ستقوم بإعداد بيانات الحركة ونشراتها الصحفية وكذا الخطة الإعلامية هذه اللجنة ستترأسها نزهة صادق التي ستكون الناطق الرسمي باسم الحركة. لجنة تنظيم التظاهرات ستقوم بإعداد أفكار وخطط التظاهرات سيترأسها بركات طارق، لجنة المكاتب المحلية ستقوم بإنشاء تنسيقيات الحركة بمختلف مدن المغرب وضبط البنية الهرمية للحركة، سيترأسها عبد الصمد مرشد ثم أخيراً لجنة الدعم واللوجستيك سيترأسها يوسف غرادي. أوراق الخطة توضح كل تفاصيل عمل اللجان.

تَرَكَنَا نقرأ أوراق الخطة لدقائق ثم عاد ليقول:

- أعتقد أن كل شيء واضح.

صاح يوسف متسائلاً:

- لماذا المكتب الوطني للحركة مكون منا نحن الستة فقط؟

ردَّ عليه ناصر بسرعة:

- لكي نحصِّن الحركة من الاختراقات، لن نسقط في أخطاء الحركات الشبابية السابقة. المكتب الوطني للحركة هو الوحيد الذي يتخذ

القرارات ويوجه الحركة ويتفاوض باسمها، وأعضاؤه هم نحن فقط، لن نقبل بأعضاء جدد.

سألته نزهة هذه المرة:

- وإن أراد عضو جديد الانضمام للحركة؟

ردَّ عليها ناصر:

- اقرئي خطة الحركة جيدا، لكل عضو جديد الحق في الانتساب للتنسيقيات المحلية للحركة أو للجانها التنظيمية. لكن ليس بالمسموح له الانضمام إلى المكتب الوطني.
- لكن في هذا إقصاء للشباب؟
- يا رفيقتي، نحنُ نغلِّب مصلحة الحركة ونحميها من الاختراقات. ثم نحن لن نتخذ القرارات بانفراد بل سنستشير الجميع قبل اتخاذ أي قرار يهم مستقبل الحركة.

ظللنا نناقش خطة عمل الحركة لساعات طويلة قبل أن ينتهي اجتماعنا بلمسات من الضحك الصاخب والكوميديا السوداء كعادة الرفاق في كل لقاء. أدهشني اندماج بركات مع رفاقي القدامى وكأننا كنا نعرفه منذ زمنٍ بعيد، وكم تمنيتُ لو عرَّفته أكثر على نجيب وفيصل وطارق.

عندما هممتُ بمغادرة الرفاق، أمسكني ناصر من يدي قائلاً:

- ليلى، أريدك في موضوع.

رافقني إلى باب مكتبه وهو يتريث في مفاتحتي في موضوعه، سألني أولا عن طارق وأحواله قبل أن يقول لي:

- ما رأيكِ لو طلبنا انضمام طارق ولد الخيل للحركة؟ هو شخص ذو كفاءة وتجربة طويلة في التنظيمات السياسية كما أنه رفيقنا ويشاطرنا نفس التوجهات؟

فكرتُ طويلاً قبل أن أجيبه:

- لستُ متأكدة أنه سيرغب في الانضمام إلينا، طارق يعيش حالة ارتباك نفسي واجتماعي حاد جدا هذه الأيام.

- وما الجديد، لقد عهدناه هكذا منذ قرابة عشرين سنة...

لم أجبه، لذتُ بالصمت وأنا أقول في قرارة نفسي: لا أحد يعلم ما بداخل طارق سواي، لقد ولدَ وحيدا في هذه الحياة وسيبقى وحيدا.

قاطعني مصرّا:

- ما رأيك أن تخبريه أنتِ بموضوع حركتنا؟

أجبته وأنا أهم بفتح الباب مغادرةً:

- حَدِّثْهُ أنتَ على الهاتف أولا وأنا سأدبرُ لكما لقاءً قريباً هكذا أحسن. مساؤك سكر رفيقي.

ردَّ عليَّ مبتسما وهو يشير لي بتحية النصر:

- حسنا، تحياتي رفيقتي.

9

الرباط -1 حزيران/يونيو 2015

صاحتْ مها وهي تقفُ أمامي وتنظر إلى باب المطعم الزجاجي:

- ها قد حضر صديقنا الشيوعي أخيراً...

التفتُّ لأرى سعيد السلاك يدخل متثاقلاً من باب المطعم وعلى وجهه ابتسامة عريضة، هو دائما يسخر من الواقع بابتسامة يسميها ابتسامة الخديعة، يخدعُ بها قدره كما يقول.

صاح قائلا عند اقترابه منا قبل أن يطلق ضحكته الصاخبة:

- مها إياكِ أن يكون طارق قد غازلكِ في غيابي، أنت ملكية مشتركة كالكولخوزات السوفياتية، احذري.

أجابته مها غامزةً:

- ألم تكفكَ كلخوزاتك الأخريات؟

- أنتِ أجمل كلخوزة يا مها. ألفُّ وألف ثم أعودُ لكِ.

التفتَ إليَّ سعيد قائلاً وهو يهمُّ بالجلوس على كرسي بمحاذاتي:

- أينَ أنت يا رجل؟

- أنا هنا دائما، أنتَ الغائب... أين تختفي؟

- مررتُ هنا مرتين الأسبوع الماضي ولم أجدك، سألتُ مها عنك قالت لي إنك كنتَ محبطاً وحزيناً.

- ومتى لم أكن محبطاً وحزيناً... أنا كائن حزين كما تعرف.

- هذا ليس بجديد عليَّ ولكن صِدقاً هل أنت بخير؟

ادعيتُ انشغالي بإشعال سيجارة كي أفكر بما أجيبه. هل أخبره؟ أم أتجاهل سؤاله؟ أجد صعوبة في مشاطرة حياتي الخاصة لذلك أجبتهُ مراوغاً:

- دعكَ مني الآن، قل لي أنت؟ أين غبتَ كل هذه المدة؟

- آه يا عزيزي ماذا أقول لك؟

- ما دمتَ قد بدأتَ بالآه فإما أنك مشتاق لألمانيا أو أن هناك امرأة ما تشغلك.

- صراحةً، الاثنان معاً يا طارق.

- فسِّر...

قبل أن يهم سعيد بتفسير جوابه لي قاطعته مها سائلةً:

- ماذا تشرب يا صاحبَ الكلخوزات؟

ردَّ عليها سعيد بسرعة دون أن ينظر إلى وجهها:

- قهوة فقط، لافازا من فضلك.

استجمع أنفاسه ثم قال لي:

- أشعر أن قرار عودتي للمغرب كان قراراً خاطئاً، أشتاق لألمانيا، بالرغم أنني لستُ سوى مهاجرا فيها إلا أنها تُشعرني بالاستقرار والحيوية. هناك الكل يحترمك كإنسان ويقدّر حياتك الخاصة وطموحاتك. أتفهمني يا طارق؟ المغرب بالرغم أنه بلدي إلا أنني أشعر بنفسي في غربة هنا، كأنني

فردٌ لا قيمةَ له وسط كل هذا القطيع الكبير. لا أشعرُ بتاتاً أن هذا الوطن يعرفني أو يكترث لي حتى... أكاد أختنق هنا يا صديقي.

- لا جديد في قولك، المغاربة كلهم يختنقون في هذه البلاد. هناك لعنةٌ ما في أن تكونَ مغربياً أو عربياً في وقتنا الحاضر.

صمتنا لدقائق، ثم عدتُ لسؤاله:

- لا أفهم لحدِّ الآن لماذا عدتَ من ألمانيا !!؟

- عدتُ من أجل الحب، رجعتُ كي أبحث عن أسماء كما تعرف.

- وها أنت قد وجدتها كما لا تشتهي. اعتقدتَ أنك ستجدُ حبيبتكَ الشيوعية بأيام الجامعة كما هي، فوجدتَها قد أصبحت رأسمالية تؤمن بالربح والتجارة في كل شيء.

ضحكتُ بصوتٍ عالٍ من سخرية أقدارنا وعبثها وأنا أرى في سعيد مثال كل أولئك الذين خرجوا من الجامعة بآمال النضال في الحياة ومشاريع المستقبل فلم يلبثوا أن تاهوا في دوامة الزمن وانكسرتْ أمانيهم.

لجأ بخيبته إلى فنجان القهوة الذي تركته مها بمحاذاته. كان يرتشف القهوة حينا ويتيه في سوادها حينا آخر كأنه يحاور فنجانه، ينشر على حباله غسيله الداخلي عساه يجفُّ من مياه مأساته.

عاد لحديثه معي، بصوت مرتبك، قائلا:

- صراحةً يا طارق، لا أصدق أن أسماء التي كانت تناضل ضد الرأسمالية وتصف البرجوازية بالمتعفنة قد أصبحت مادية وتزوجت من رجل لا يجمعها معه سوى فيلاته وسياراته وحساباته البنكية المتخمة. تخيل

أنها قالت لي عند عودتي "لو كنتَ قد عدتَ من ألمانيا وأنت أغنى من خطيبي، لكنتُ فسختُ خطوبتي فوراً لأتزوجك".

ابتسم بألم وعاد لفنجانه. لأجيبه مهوناً:

- لا عليكَ يا صديقي، اليسار عموما ابتليَ بأشباه مناضلين يعانون من قطيعة وجودية مع المبادئ التي يعلنونها، يعانون من داء السفسطة، يدافعون عن الأفكار ونقيضها حسب موقعهم في الحياة. لقد سقط اليسار يا رفيقي وسقطت الماركسية...

صاح بنرفزته المعهودة كلما قلتُ له أن الماركسية سقطت:

- قلتُ لك ألف مرة إن الماركسية لم تسقط، الماركسيين هم من سقطوا...

- عن أي ماركسية وماركسيين تتحدث يا سجين رومانسية السبعينات؟ الماركسية أصبحت ماركسيات يا رفيق، ماركسية لينين ليست هي ماركسية ماو ولا ماركسية ستالين ولا ماركسية تروتسكي، أصبح لكل منظر ماركسي ماركسيته وأتباعه، ألتوسير وغرامتشي وبليخانوف ولوكاتش وكارل كورش لكل من هؤلاء ماركسيته، ألم يقل ماركس عندما علّق على ماركسية الحزب العمالي الفرنسي إذا كانت هذه هي الماركسية فأنا لست ماركسيا.

ردّ عليَّ بعصبية:

- على أساس أنكم أنتم القوميين العرب حافظتم على فكر واحد ومشروع واحد، كل النظريات تجدُ طريقها إلى التشتت والتشويه عندما تنزل للواقع. ثم إن اختلاف الماركسيين فرضته تعقيدات الحياة السياسية والاقتصادية وضرورات القرن العشرين بما فيها من تطور قوى الإنتاج

ومقدرة الرأسمالية على تجاوز أزماتها وتناقضاتها وتراجع شروط قيام الثورة...

- بل قل فشلت الماركسية في رهاناتها، الرأسمالية لم تسقط والصراع الطبقي لم يوصلنا إلى تفجير ثورة البروليتاريا وطبقة العمال والكادحين تراجع لديها الوعي الثوري وماركسي اليوم واليساريين أصبحوا أبعد مما تتصور عن المادية التاريخية والمادية الجدلية... هذه هي الحقيقة يا رفيق.

قاطعتنا مها بصوت خافتٍ كأنها تنبهنا لشيء ما:

- أوه عدتما من جديد لتناطحكما، لا تكاد تمرُّ دقائق على لقائكما حتى تتناطحان كالديكة بأحاديثكم الماركسية والقومية...

لم يُجبها أحد منا، لكنني تساءلتُ مع نفسي لم في كل مرة ألتقي فيها أنا وسعيد نفتح مواضيع الأمس وصراعات الماركسيين واليساريين مع محنة التاريخ، ابتسمتُ بمرارة وأنا أتذكر سخرية "جورج أورويل" من اليساريين في روايته مزرعة الحيوان.

تركتُ سعيد يحتسي قهوته على مهل وهربتُ ببصري بعيدا حيث تجلس امرأة بفستانٍ أسود جميل في طاولة تتوسط المطعم. تطلعتُ إلى ملامحها الجميلة، عينان هادئتان يطلُّ فوقهما حاجبين رقيقين ينسدل إلى جانبهما شعرٌ غجري أسودٌ كليلِ الصحراء... هذه هي المرأة التي تحضر كل مساء إلى المطعم منذ شهور طويلة تنثر جمالها ومرحها على المرقص وحيدةً ثم تمضي.

سمعتُ سعيد يقول لمها:

- مها من فضلك ضعي لنا أغنية الشاب خالد "ياد المرسم" واحضري لي زجاجة كازابلانكا

لحظات قليلة حتى تصاعدت في المطعم موسيقى الراي الراقصة وبدأ سعيد يدندن مع كلماتها.

- أين ذهبَ فكرك؟

قطعَ صوتُ مها لحظات شرودي في ملامح صاحبة الفستان الأسود، فأجبتها:

- ذهب عند تلك التي تلتحف بالسواد في هذه الليلة...
- تقصد رجاء الغالي؟
- تعرفينها؟
- كل ما أعرف عنها هو اسمها وأنها مغربية مهاجرة في كندا وتحضر للمطعم كل مساء منذ شهور، يبدو أنها في عطلة...

في تلك اللحظات عمّتني أفكار كثيرة وذكريات ثقيلة أوغلت بي في مشاعر الوحدة والضياع، لم أشعر بنفسي حتى وقفتُ مغادراً قائلاً:

- ماهي وسعيد، سيكون لنا مساء آخر، ربما غدا...

قبل أن أغادر الباب سمعتُ صوت سعيد يَصيحُ مع كلمات الشاب خالد بنبرة حزينة:

".. ما نعشق ما نقول ها نسوان غير لا كان عشرة الجبانا

وإلا كان تحيط في الكفان، آخرة الحيين للـفانا.. "

10

الدار البيضاء -20 حزيران/يونيو 2015

لمحتُ بركات يمرُّ بجانب الإشارة عند ملتقى شارع الزرقطوني والروداني. بدا شارداً، نظراته تائهة في الطريق الذي يمشي عليه. تذكرتُ أنه في الفصل كان أيضاً شارداً، حاضراً بجسده فقط. ضربتُ المنبه مرتين لكنه لم يستدر. أخذتُ هاتفي واتصلتُ به فجاءني صوته مشتتاً:

- ألو ... أستاذة ليلى.

- ارجع، أنا وراءك في سيارتي الواقفة في الإشارة الضوئية. ضربتُ منبه السيارة لك لكنك لم تنتبه.

- حسناً.

استدار في مكانه يبحث عن سيارتي قبل أن أحرك الإشارة الضوئية كي أساعده وسط زحام السيارات التي تنتظر إشارة المرور. تقدَّم بخطى سريعة عندما رآني، فتح الباب ثم صعد.

صحتُ في وجهه:

- فيما كنتَ تفكر، ضغطتُ على منبه السيارة ثلاث مرات لكنك كنتَ شارداً.

أجابني مبتسماً:

- لا شيء، لم أسمع المنبه وسط هذه الزحمة.

- تبدو هذه الأيام مختلفاً، لمحتكَ في الفصل شارداً أيضاً. ما بك؟

- ربما انشغالي بالحركة، أنتِ تعرفين أنني مسؤول عن إعداد مخطط المظاهرات. لم يبقَ سوى أقل من شهرين كي تنطلق مظاهرات الحركة.

لمحتُ في عينيه مراوغة في جوابه، لكنني لم أرِد إحراجه أكثر. بعد إشارة الضوء الأخضر تركتُ السيارة تمضي بنا في شارع إبراهيم الروداني الذي بدا ممتلئا عن آخره بالسيارات... كانت الحركة كثيفة، كل تائه في طريقه يسابق الزمن، تخيلتُ الدارالبيضاء ميتروبولا يبتلع الناس وقيمهم الإنسانية ويجعلهم آلات تدور وتدور لجمع المال وصرفه في حاجيات بيولوجية فانية.

- أين يوجد بيتك يا فتى؟

- لا تُتعبي نفسكِ أستاذة ليلى، انزليني فقط في ساحة لعوينة، سآخذ تاكسي من هناك إلى البيت.

نظرتُ إليه قاطبةً حاجبيَّ في الوقت الذي رمقتُ فيه قطرات مطر خفيف بدأت تتساقط على زجاج السيارة، استغربتُ من هطول مطر خفيف في بداية الصيف، ثم قلتُ له:

- مع هذا المطر لن أتركك للشارع وللتاكسيات، كما أنني في حاجة لصديقٍ أحادثه هذا المساء. هيا قل لي أين بيتك؟

أجابني مستسلماً:

- في حي النسيم.

- أين يوجد هذا الحي؟

ابتسم متهكماً ثم قال لي:

- اذهبي إلى عزبان وهناك سأريك الطريق.

أجبته مدندنة برأسي:

- حسناً، حسناً، عزبان بالقرب من جامعة الحسن الثاني، سآخذ طريق الجديدة ثم الطريق السيار... أليس كذلك؟

- نعم، لم تحفظي شوارع البيضاء بعد؟

- أنتَ تعرفني رباطية. حياتي كلها كانت في الرباط، والآن أحاول التأقلم مع هذه المدينة الغول.

- ناس الرباط لا يحبون البيضاء... لماذا قررتِ السكن فيها؟

شعرتُ مع سؤال بركات بغصة حزن تجتاحني، لم أكن أظن يوما أنني سأغادر الرباط تلك المدينة التي لاقتني بطارق وجمعتني به. رميتُ نظري على الطريق المزدحمة، نصفُ ساعة ولم نخرج بعد من شارع الروداني. ما إن اجتزنا ملتقى شارع غاندي والروداني حتى تركتُ السيارة تجري بسرعة، تبتلع الظلام الذي سقط مع المطر... التفتُّ لبركات كي أجيبه:

- أنت تعرف، زوجي يقطن بهذه المدينة كما أن عملي أصبح فيها هو أيضاً.

لم يعقِّب على كلامي، رأيته بطرف عيني ينظر من زجاج النافذة إلى الشارع تائهاً. كان في نظراته شيء ما يستفزني ويثيرُ فضولي.

سألته محاولةً إخراجه من شروده.

- أتحبُّ سماع هبة قوَّاس؟ لديَّ قرص أغانيها في السيارة

أجابني مستغرباً:

- هبة قوَّاس؟ لا أعرفها.

- لا عليك، هي مطربة غير معروفة كحال كل رواد الفن الملتزم... سأجعلك تتعرف عليها الآن.

دفعتُ يدي اليمنى للبحث عن قرص الأغاني في الدرج المحاذي للمقود ثم وضعته في جهاز الموسيقى. كانت السيارة تدخل بنا في الطريق السيار باتجاه جامعة الحسن الثاني عندما صدح صوت هبة قوَّاس في السيارة.

أشممتَ عِطري حينَ قُلْتَ تُحبُّني

كيفَ تَفَتَّحَتْ أَكمامُ الوردِ على جسدي

أَيقظتْني "عيناكَ" في الحُلُمِ رفّةُ جناحَيْنِ

أُعانِقُكَ وأنتَ في الغفْوَةِ

ترنو ولا أَرْتَوي من ضَمَّةِ العمْرِ

سبيلي إليك مياهٌ تُزْهِرُ من صحْرائي

منْ عُمْري رَعْشَةٌ أمْ خدَرُ ...!

صَوْتُكَ دَغْدَغَةُ المَطَرِ رَعْشَةٌ أمْ خَدَرُ

التفتَ إليَّ بركات مستغرباً:

- يا سلام، كيف لي ألا أعرف هذه المطربة؟
- هذه هي الحياة يا صغيري، تعرفُ شيئاً وتغيبُ عنك أشياء.
- أنا مدينٌ لكِ بالتعرف على هبة قواس إذن... لقد صرتُ أحد عشاقها.

نظرتُ إليه مبتسمةً ثم سألته مستغلةً جوابه:

- بإمكانكَ أن تؤدي دينك الآن لي.

التفت بسرعة من جديد قائلاً:

- كيف؟

- بأن تقول لي ما الذي يشغل بالك؟

تنهد بعد برهة صمت ثم قال مستسلماً:

- حسناً، استرجعتُ ذكريات ذلك اليوم الذي التقيتُ فيه برفاقك في عرسِ صديقتك حليمة.

- لقد مرَّ زمنٌ على ذاك اليوم، لم تتذكره الآن؟

- ذاك اليوم بَعثر أوراق الحياة في داخلي، جعلني أحفر في ذاتي بحثاً عن معنى الوطن والحياة والالتزام بقضية الأمة العربية... كنتُ أظن أنني سأجد رفاقي القوميين العرب يملؤهم الحماس والأمل في بعث هذه الأمة من جديد لكنني وجدتُ أشخاصاً مبعثرين وتائهين لم أكن أعلم أن نفسية القومي العربي هي بالضرورة متأزمة كأزمة الوطن العربي.

كنتُ أنظر إلى الخطوط البيضاء في الطريق وهي تتسابق لتتوارى تحت السيارة وأنا أفكر في كلام بركات. خمّنتُ أنه يسلك نفس الطريق التي سلكها طارق قبل عشرين سنة، هو الآخر بدأ يتوه وتستنزفه قضايا الوطن.

صمتَ ردحاً ثم استطرد قائلا وكأنه قرأ أفكاري:

- أتعلمين يا أستاذة ليلى؟ شخصية طارق أشعرتني بخوف مهول من الحياة والمستقبل، حزنه العميق استفزَّ أمالي...

شعرتُ بارتباك عندما ذَكر اسم طارق، كنتُ غير مصدقة أن يكون بركات قد نطق اسمه وتأثر بشخصيته فسألته كما لو كنتُ أبحث عن تأكيد منه:

- طارق من؟

فجاءني ردّه السريع:

- طارق ولد الخيل.

أجبته مصطنعةً عدم الاهتمام بذكر اسمه:

- آه، حسناً

ثم أردفَ قائلاً:

- شخصية ذاك الرجل مثيرة، من بين كل الرفاق الذين تعرفتُ عليهم ذاك اليوم هو وحده الذي جعلني أدخل في دوامة وجودية.

سألته مبديةً اهتماما هذه المرة:

- كنتُ قد لمحتك رفقته لوقت طويل في عرسِ حليمة الهلالي، أخمن أنكم تحدثتم في مواضيع كثيرة.

- نعم، تحدثنا في مواضيع كثيرة. كنتُ قد سألته إن كانت القومية العربية لعنةٌ تُصيبُ صاحبها بالحزن والضياع فأجابني بكون حال القومي العربي من حال الوطن العربي، مشتت ومحتلٌ وغير مستقر، استبدل ثوب الفرح بثوب الحزن منذ سقوط بغداد العباسيين في يد المغول إلى سقوط كل عواصم العرب بالتتابع. قال لي، حال القومي العربي كحال الخنساء لما لبست حداداً أبدياً حزناً على وفاة أخيها صخر.

لفَّهُ صمتٌ فُجائي ثم أشار لي بيده اليسرى أن أسير في الشارع المقابل على اليسار. كنا قد وصلنا إلى المدار الطرقي أمام شركة عزبان، في تلك اللحظة توقف قرص أغاني هبة قواس وخيم صمتٌ قاسٍ أحسستُ به يتوغل في عروق دمي. التفتُّ إليه لأجده يواصل النظر من النافذة شارداً وقد ألقى بقفاه على ظهر المقعد. كنتُ في سرّي ألعنُ القدر الذي جعل من طارق شخصية تنقل عدوى الفوضوى الوجودية والضياع إلى الآخرين.

فجأة دفع بركات رأسه نحوي وسألني بكلمات متسابقة:

- كيف لمأساة وطنٍ وانكسار أحلامٍ أن يُغرقا شخصاً في حزنٍ عميق كالذي يعيشه طارق؟

فاجأته بسؤال على جوابه:

- ألا ترى أنك تُشبه طارق؟

ردَّ عليّ بثقة:

- لا أظن، أنا على الأقل يملؤني الأمل في الغد وكلي تمرد على الواقع... أما هو فيبدو أنه استسلم للحزن ولأمواج القدر.

تنهدتُ قبل أن أجيبه:

- هو أيضا كان مثلك في بداية شبابه، كان ممتلئاً بالتحدّي والأمل. لم يكن يعرف سوى الثورة والنضال لتحقيق أماله والدفاع عن أفكاره. كان يقول دائماً "ما لم يأتِ بالنضال يأتي بمزيد من النضال"، كان وردةً مزهوة بفصل الربيع لكنه استعجل الخريف وتساقطت أوراق أحلامه ومبادئه. إنك تشبهه في كل شيء حتى في ارتدائك للبدل السوداء، في عصبيتك أيضاً وفي عينيك اللتين تحتضنان الشرود على حافة الحزن... ولأن القدر غريب ويعيدُ نفسه فأنتما تحملان ذات الاسم، كلاكما طارق.

سألني بنرفزة:

- ما قصةُ هذا الرجل؟

التفتُّ إليه ورسمتُ ابتسامةً وأنا أعلم في داخلي أن شخصية طارق تَملّكتهُ بقوة. أجبته وأنا أبطئ من سرعة السيارة كي أركز في كلامي معه أكثر:

- إنها قصةُ جيلٍ بأكمله مع أحلامه الضائعة. كان طارق في الجامعة يصارع الدنيا بأكملها من أجل فكرة الوطن الذي يحلمُ به، الوطن العربي

الموحد من المحيط إلى الخليج، كان يحلم بالاشتراكية والحرية لكنه عند خروجه من الجامعة اصطدم بواقعٍ آخر لا يؤمنُ بوطنه وأفكاره، وجد وطناً لا يعرفه ولا يحلم به. عاش طارق صراعا مريرا في داخله مع كل تلك الأفكار والمبادئ التي آمن بها قبل أن يكتشف أنها كانت أوهاما في أوهام. فهرب من كل شيء، هرب من الوطن، من الحب، من الانتماء، من الوجود... فقد ثقته حتى في فكرة الإنسان والإنسانية. لم يبقَ أمامه إلا الموت. لكن حتى هذا رفضه. وحدهُ الحزن فتح له أبوابه المشرعة على الضياع والعذاب. أراهنك أنه الآن يبحث عن وسيلة يحتال بها على القدر كي يغادر هذه الحياة.

سألني باستغراب:

- وكيف تعرفين كل هذا؟

تجاهلتُ سؤاله، لم أشأ أن يعرف بركات علاقتي العميقة بطارق. اكتفيتُ بالابتسام وأنا أقود السيارة في اتجاه الطريق السيار بوسكورة. سمعتُه يطلق زفيراً طويلاً قبل أن يقول لي بعد ثوان من الصمت:

- توقفي هناك من فضلك...

- هناك أين؟

- دوري على اليسار، وتوقفي حيث توجد تلك المدرسة

- حاضر يا باشا.

أوقفتُ السيارة قرب مدرسة ابتدائية تحمل اسم توبقال دون أن أوقف المحرك، أعدتُ تشغيل قرص هبة قواس قبل أن أتوجه له بالحديث:

- اسمع يا بركات، أعلم أنك تعيش دوامة وجودية بعد لقائك برفاقنا القوميين وأعرف أن أمالك قد خابت فيهم، لكن هذه هي الحقيقة. القوميون العرب كلهم منكسرون ويعيشون الضياع. لكن في يدك أن تَبني أملك وحدك وتصنع الحلم الذي تريده، كن أنتَ أملنا وواصل طريقك.

ظل صامتاً، كنتُ أنتظر منه أن يجيبني، لكنه فتح باب السيارة ودفع جسده إلى النزول. مسكتهُ من يده، كانت ساخنة جدا، تذكرتُ سخونة جسد طارق كأن ناراً موقدة تحت جلديهما.

قلتُ له:

- ما رأيكَ أن ترافقني كل يوم أحد للجري في شاطئ عين الذئاب؟ انقطعت عن الرياضة منذ زمن وأبحث عمن يشجعني لمزاولتها من جديد.

تطلَّع إليّ مبتسماً دون أن يجيبني، فأردفتُ ضاحكةً:

- وسأعطيك نُقطاً جيدة في آخر السنة الدراسية.

ضحك ثم قال:

- ترشيني إذن...

- آه، اعتبرها رشوة

- أقبل عرضكِ، ودون رشوة.

- حسنا، صباح كل أحد تجدني في انتظارك عند هذه المدرسة مع التاسعة صباحاً.

نظر إليّ طويلاً قبل أن يقول:

- اتفقنا...

أجبته بلطف:

- تُصبح على خير يا فتى.

أغلق الباب ثم دفع رأسه من النافذة قائلاً:

- شكراً على التوصيلة الجميلة أستاذتي، تصبحين على خير.

11

الرباط -02 تموز/يوليوز 2015

استلقتْ أماليا بجانبي على السرير، التفتُّ إليها ربما لأرى فيما تفكر حينها... كان صدرها عالياً، شاهقاً، أحسستُ بشعور يدفعني لتسلق هذا الجبل الشامخ وامتطاء سفوحه. لكن نفس الصور بدأت تغزو فكري: أشلاء شهداء فلسطين، أصوات الطائرات والبيوت المدمرة.... لقد أصبح جسد أماليا مُسيجاً بأسلاك مكهربة، لا أكاد ألمسه أو فقط أفكر في لمسه حتى تغزوني صور الألم والمعاناة التي كالها الصهاينة لشعبي في فلسطين.

أي ورطةٍ ساقها القدر إليَّ؟ بعد أن هزمتُ نفسي وقبلتُ الزواج بأماليا يأتي جسدي ليلفظ جسد أماليا كجيفة يأبى وصالها؟! هل جسدي أكثر وطنيةً وعروبةً مني؟ أم أنه فعلاً أصبح عاجزا عن الغوص والسباحة في مياه أجساد كل النساء؟ فكرة أن أصبح عاجزاً أثارت هلعا في نفسي.

فجأة، أدارت أماليا جسدها لتنام على جانبها الأيسر دون أن تنبس بكلمة. خطفتُ نظرة إليها فوجدتها مُقابلةً لي، تضعُ راحة يدها تحت رأسها وتنظر إليّ واستفسارات كثيرة بادية على ملامحها.

سألتني بصوتٍ خافتٍ بعد أن أخذت شهيقاً عميقاً:

- هل ستبقى هكذا؟

صمتتُ، تظاهرتُ بعدم اكتراثي لسؤالها، لتردفَ قائلةً:

- ما سبب برودكَ معي يا طارق؟ هل تُعاني من مشكل لا أعرفه؟ لم أعهدكَ هكذا...

أجبتها مقاطعاً بكبرياء:

- أنا بخير، لا أعاني من أي مشكل.

- إذن لماذا لا تقدر على معاشرتي؟ لا أكاد أقرِّب شفتي من ثغرك أو أدفع صدري إليك حتى أراك تهرب مني مذعورا؟

صمتتْ لحظة ثم واصلت بصوتٍ يقترب إلى المواساة والشفقة:

- هل ستبقى هكذا بعد زواجنا؟ يجب أن تذهب عند طبيب نفسي يا طارق...

- لا حاجة لذلك، أنا فقط مرتبك وأمرُّ بتراكمات أحداث كثيرة، كما أن زواجنا يزيدني توثراً.

سرقتُ من جديد نظرة سريعة إلى عينيها، بدت عليهما علامات استفهام كثيرة، ثم سرعان ما حركت شفتيها قائلةً:

- ما علاقة زواجنا بالموضوع؟

أرخيتُ رأسي على المخدةِ مستسلماً للورطة التي وضعتُ نفسي فيها بإثارة موضوع زواجي بأماليا من جديد. فكرتُ حينها في تدخين سيجارة ألوذ بها من ضغط أماليا عليّ، لكنني تذكرتُ أن علبة سجائري نفذت قبل أن أعود إلى البيت. تباً للسجائر، تنتهي في الأوقات التي أحتاجها أكثر...

سمعتُ أماليا تقول من جديد:

- هيا قُل ما عندك يا طارق...؟

استجمعتُ صوتي بصعوبة ثم أجبتها بكلمات مرتعشة:

- أريد أن نؤجل زواجنا يا أماليا لو سمحتِ، ريثما أرتب أوضاعي وأهدأ من حالة الفوضى التي أعيشها.

ظلّت صامتة لثوانٍ لم تجبني فيها... شعرتُ بموجة حزن عميقة تجتاحها، أشعرتني بذنبٍ قاتل وندم على ما تفوهتُ به.

نهضتْ فجأة من على السرير واتجهت إلى باب الغرفة، شعرتُ برغبة في المناداة عليها. كيف لي أن أتركها تنصرف بحزنها هكذا دون أن تناقشني وتصرخ في وجهي. لكنها قبل أن تغلق الباب وتغادر توقفتْ برهة لتسألني:

- لازلتَ غير مقتنع بزواجنا يا طارق؟

أجبتها بسرعة وأنا أنهض متجها إليها حيث وقفت عند الباب:

- لا لا أبداً، لا تُفكري هكذا يا أماليا. لا أريد إلغاء زواجنا بل تأجيله فقط.
- للأسف، تأجيل زواجنا لن ينفعنا في شيء. هذه حقيقة واضحة كالشمس. تصبح على خير.

12

الدار البيضاء -26 أغسطس/غشت 2015

طيلة الأشهر الماضية، كان بركات هو مؤنسي الوحيد في هذه الحياة، كان هو ذاك الآخر الذي أناقشُ معه كل شيء دون تحفظ ودونما تردد. لم أعد أشعر به طالبا عندي في المعهد بقدر ما أصبح صديقا قريباً لي. في كل مرة نلتقي فيها للركض بشاطئ عين الذئاب، نظل نتحدث في كل المواضيع ثم نلجأ بعد أن يتملكنا التعب إلى مقهى تاهيتي، نأخذ قسطاً من الراحة قبل أن نستكمل أحاديثنا التي لا تنتهي. في كل لقاء لنا كنا نتحدث في السياسة والقومية العربية وموضوع الهجرة إلى كندا. في مرة واحدة فقط أذكر أنه حدثني عن الأدب والحب.

كان ذاك اليوم مختلفاً، بدأ بالفلسفة والأدب لينتهي بآهات الحب وآمال الانتظار. شعرتُ به مجروحاً، كذلك الداخل في قصة حبٍ جديدة بكل خوف، تائها في بحر العشق دون مرسى.

قال لي بمجرد جلوسنا في المقهى:

- ألا ترينَ يا أستاذة ليلى أن حوادث حرق النفس والانتحار ارتفعت في الآونة الأخيرة بالمغرب؟

أجبته بقليل من الاهتمام:

- الانتحار ظاهرة اجتماعية قديمة، ما يثير الرعب هي حوادث حرق النفس، المسألة أصبحت ظاهرة تحتاج إلى دراسة عميقة...

- لقد اجتاحت الوطن العربي فكرة الجسد المحروق كقربان ذاتي لطبقة اجتماعية احتجاجاً على الظلم والاستبداد هذا كل ما في الأمر.

- أنا أنظر لها من وجهة أخرى، أرى أن حرق الجسد هو رغبة في تدمير الذات التي لم تستطع هزم السلطة المتجبرة، سلطة الحاكم والمجتمع والمعتقدات... هذا يشير إلى بداية تكون ظاهرة احتجاجية جديدة تطمح لتفكيك المنظومة السياسية والمجتمعية السائدة والإطاحة بكل التمثلات الخاوية التي تتحكم في مجتمعنا.

- صحيح، الفرد العربي انتقل من حالة الصراع مع الوجود وتمثلات الوجود والعدم إلى محاولة لإلغاء الوجود بأكمله من خلال تدمير الذات التي قهرتها سلطة الدولة والمجتمع. إرادة الحياة في الفرد العربي تتحطم وتتهاوى.

- لعل شوبنهاور كان محقاً، لطالما اعتقد أن إرادة الحياة أو فكرة الإرادة بصفة عامة هي سبب معاناة الإنسان وألمه، تصور لنا الوجود كخطيئة وتصور لنا المعاناة والألم كجزاء حتمي لخطيئة الوجود.

- تباً للوجود، كان أرسطو حكيما عندما آمن أن ألم الوجود لا نداويه إلا بالتراجيديا، هي وحدها التي تداوينا بما أسماه التطهير من الوجود.

- كيف؟

قال لي بعد أن رفع يدهُ اليمنى ليطلبَ من نادل المقهى الحضور لأخذ طلباتنا:

- المفكر المغربي "كمال فهمي" يقول أن في التراجيديا يشعر المتفرج بالخوف والشفقة وهو يتابع المصير المأساوي للبطل، الشيء الذي يحقق ما يسميه أرسطو بالتطهير، حيث يتم تفريغ الانفعال الذي يشعر به المتفرج فيما لو كان في وضعية البطل المأساوية ويشعر بعد ذلك بنوع من الارتياح يشبه ما يشعر به المريض النفسي عندما يفرغ همومه واضطراباته. خذي مثال شخصية أوديب في مسرحية سوفوكليس. كل

قارئ لهذه المسرحية يتفاعل مع أوديبيته الخاصة ويتحرر من أحاسيسها وأثارها، هكذا يتحقق مفهوم التطهير في أقوى مظاهره. أوديب في مسرحية سوفوكليس لم يكن يريد قتل أبيه ولا الزواج من أمه، لكن ما أرادته الآلهة هو ما سيقع فعلا، رغم أن والده سعى إلى التخلص منه منذ ولادته بعد أن أطلعه العراف على ما سيقوم به في المستقبل، ومن ثم يمكن القول إن التراجيديا تبدأ عندما يعي الإنسان حريته التي تدفعه إلى مواجهة المتعالي والتمرد عليه، والصراع الجوهري في التراجيديا يتمحور حول الصراع بين الإنسان والإله، الحرية والقدر...

- لا أظنها تطهرنا، التراجيديا تضعنا فقط أمام الوجه الرهيب للحياة، وجه مليء بالألم والظلم والشر. شوبنهاور على عكس أرسطو آمن أن التراجيديا سبيل لخلاص الإنسان عن طريق الاستسلام لا التطهير، فبالنسبة له البطل التراجيدي يكفر عن خطيئته في الوجود بالألم والمعاناة ليجد سبيله إلى الخلاص والاستسلام.

توقفتُ عن الكلام بعد أن حضر النادل، طلب بركات فنجان قهوة وطلبتُ أنا عصير برتقال. بعد أن تركنا النادل خيمت علينا لحظة صمت طويلة، قبل أن يقطعها بركات مُصرا على استكمال موضوعنا قائلاً:

- نيتشه أيضاً كان له رأيا مغايراً، اعتبرَ أن للتراجيديا نشوة خاصة تكمن في التحدِّي البطولي لقوى الموت، في التصميم على مواجهة الحياة في شموليتها وفواجعها والنظر إلى هوة الوجود وجها لوجه. التراجيديا قد تحول الأفكار الفظيعة حول الوجود وعبثيته إلى مفاهيم يمكن للمرء أن يتعايش معها.

أجبتهُ وأنا أبدي قلة اهتمام بموضوع التراجيديا هذا:

- التراجيديا هوية وطبيعة إنسانية متأصلة في البشر بغض النظر عن انعكاساتها...

- لا أؤمنُ أن هناك طبيعة إنسانية متأصلة في الإنسان بالمعنى الأنطولوجي، أنا مع سارتر في فكرة نفي وجود طبيعة إنسانية وأن لا وجود إلا لمواقف يواجه فيها الناس بعضهم بعضاً ويكونون مضطرين للاختيار فقط.

سألته بعد أن استسلمنا للصمت من جديد:

- أنتَ وجودي إذن وأنا لا أدري؟

- نعم، يمكنك اعتباري وجودياً

اعتدلتُ في جلستي وأنا أجيبه بصوتٍ خافت:

- أتعلم، في هذه النقطة أيضا تُشبه طارق ولد الخيل، هو أيضاً يؤمنُ بالوجودية كتجسيد للإنسانية والحرية المطلقة. لطالما اعتبر أن الإنسان حر ولا أهداف ماورائية من وجوده الذي يسبق ماهيته المتصارعة مع فكرة الآخر...

ردّ عليّ مبتسماً:

- ذكرتني بمسرحية huis clos لسارتر التي عالج فيها فكرة الآخر وعلاقته بذاتنا.

- تطرق لهذا الموضوع في كتابه الوجود والعدم على ما أظن !!

- صحيح، لكن في مسرحية huis clos تطرق له بحسٍ أدبي عميق. في هذه المسرحية وضّح سارتر أن وجود الذات لا يقوم إلا بالغير ومع الغير، لكن

الأنا أمام الغير تدخل في صراع مع السقوط والعذاب... لذلك أنهى هذه المسرحية بعبارته المربكة: الجحيم هم الآخرون.

- هذا العالم معقد، وعلاقاتنا مع الآخرين زادته تعقيداً

- أتعلمين يا أستاذتي، أنا أرى العالم عبارة عن بنى متداخلة ومتراكبة فيما بينها، علينا تفكيكها كلها ودراستها كي نفهم أنفسنا وما حولنا...

- صرتَ بنيوياً الآن؟

ردّ عليّ ضاحكاً:

- وليست أي بنيوية من فضلك، إنها البنيوية التكوينية التي تفسر الواقع والفكر الإنساني تفسيرا ماديا من خلال العلاقات المتداخلة والمتبادلة بين العناصر المكونة لهما.

ضحكنا بصوتٍ عالٍ قبل أن أسأله:

- قل لي إذن يا فيلسوف، أ ليست لديك أنت الآخر حبيبة تقيِّم معها قدرة ذاتك على بناء علاقة بنيوية مع الآخر؟

صمت طويلا وهو ينظر إليّ بطريقة لم أعهدها فيه، تغيرت ملامحه واحمّرت وجنتاه وعندما لم أزل نظري عنه لجأ إلى فنجانه ليسرق منه رشفة قهوة قبل أن يجيبني قائلاً:

- هناك امرأة في حياتي أحبها بجنون، لكن علاقتي بها غريبة ومعقدة، معقدة جداً.

سألته بلهفة:

- لمَ؟ احكِ لي.

- لا أستطيع أن أحكي لكِ.

- حسنا إذن، أخبرني فقط من تكون؟

عاد لصمته من جديد، كان كمن ينتقي كلماته من وسط الجمر أو كالهارب من أنفاسه بين شهيق وزفير. لم يُزل عينيه عن البحر، حيث كانت الأمواج تقذف بنفسها على الشاطئ ثم تختفي قبل أن تُعيد الكرَّة كأن لعنةً سيزيفية حلّت بها.

قلتُ له وأنا أدفعُ كتفه بيدي ممازحةً:

- هيا قل لي، لن أفضح سرّك.

قال بعد تردد:

- سيأتي يومٌ سأخبرك فيه من تكون حبيبتي، أتمنى فقط ألا يكون ذاك آخر يومٍ أراكِ فيه.

أحسستُ بانقباض حينها في صدري وأنا أشعر بقلبه يُخفي مأساة كبيرة. كان عليّ أن أنتظر شهورا بعد لقائنا هذا كي أعلم من تكون المرأة التي يحبها وكما توقع هو، في آخر يومٍ أراهُ فيه.

13

الدارالبيضاء -29 أغسطس/غشت 2015

صاح ناصر مستغرباً وهو ينزع فنجانه من بين شفتيه:

- تأخر طارق!

- القطار القادم من الرباط هو الذي تأخر، ألم تسمع إعلان التأخير؟

نظر إليَّ وهو يهزُّ رأسه مؤكدا كلامي ثم قال:

- متى كانت قطارات المغرب تحترم الوقت؟

كنتُ حينها أشعر بتوتر مربك وأنا أنتظر ملاقاة طارق من جديد، حاولتُ أن أهدئ نفسي لكن شوقي واستعجالي لرؤيته دفعا أناملي إلى الهاتف لأتصل به. سمعتُ صوته خافتاً وسط ضجة القطار:

- ألو... ليلى

- طارق، لم تصل بعد؟

- بلى، القطار يتوقف الآن بمحطة كازابور. أين أنتم؟

- نحن في مقهى فينيزيا آيس بالطابق التحت أرضي للمحطة.

- حسناً، دقيقتان وأكون عندكما.

وضعتُ الهاتف وأخبرتُ ناصر أن طارق قد وصل قبل أن أحمل فنجان قهوتي إلى شفتيَّ لأبلل ريقي.

خطف ناصر سؤالا سريعاً قبل مجيء طارق قائلاً:

- أتظنينَ يا ليلى أن طارق سيقبل الانضمام إلى الحركة؟

أجبته بسرعة أدهشته:

- لن يقبل، لكنك لن تخسر شيئاً إن حاولت معه.

ردَّ عليَّ بأسى:

- لماذا تغير طارق هكذا، صار كئيباً ومنهزما بعد أن كانت الثورة والجموح يملئانِ دماءه؟ هل قصةُ حبكما الفاشلة من جعلتهُ هكذا؟

- هي الحياة فقط يا ناصر، الحزن على أمالك وأحلامك الضائعة يروّض في داخلك كل شيء.

طلَّ علينا طارق وهو ينزل في المصعد الكهربائي، بدا أنه في مزاجٍ سيء، ذقنه مهمل وعيناه ضامرتان غائرتان من شدة التعب والتدخين.

وقفتُ متقدمةً نحوه لأعانقه، فابتسم وعانقني بقوة قبل أن يقول:

- كم أحتاج إلى حضنكِ هذه الأيام يا أمي ليلى...

أجبته وأنا أتفحصُ عينيه الناعستين إن كان لازال يُخاصمني:

- ستظلُّ ابني الغائب وحبيبي العنيد...

ابتسم وجرَّني من يدي إلى ناصر، عانقه بدوره قائلاً:

- تحيا عروبتنا يا رفيق... مشتاقٌ لك.

أضاف بعد أن جلس مستسلماً لتعبه:

- قبلَ أن أسألكما عن أحوالكما اسمحا لي أن أتلذذ بتدخين سيجارة. صار لي ساعة ونصف لم أدخن. أي قطارٍ هذا الذي يمنعوننا فيه من التدخين...؟

سمعته يضحك مع ناصر، في الوقت الذي كنتُ فيه غارقةً في النظر إلى تفاصيله وحركات عينيه عسى أن تحكيا لي عما سيعجز لسانه عن قوله. سألته:

- كيف هي أحوالك يا طارق؟

هزَّ كتفيه قائلاً:

- كما تركتني آخر مرة، لا شيء تغير...

ثم التفتَ الى ناصر متهرباً من عينيَّ ليقول له:

- ماذا هناك يا عم ناصر؟ أقسمُ أنك دعوتني إلى مناقشة موضوع سياسي...

ردَّ عليه ناصر مستغرباً:

- ما أدراك يا رفيق طارق؟

- يا رفيقي، أنا وأنت لا نلتقي إلا وكانت السياسة والقومية العربية ثالثنا...

- صراحة لم ألحظ ذلك طيلة هذه السنين الطويلة.

ضحكَ ثم عادَ لسؤاله:

- كيف حالك؟ وأحوال عملك؟

- بخير أنت تعلم أكيد أنني استقريتُ بالبيضاء ومكتبي أصبح يروج ببعض القضايا الجيدة ولله الحمد...

ردَّ عليه طارق بعد أن غمزني:

- المحاماة مهنة تُغني أذكياءها، وأنا لا أخشى عليك يا ناصر...

تطلع إليَّ وقال:

- وأنتِ يا أخت العرب، ما أخبار أسرتك؟ ابنتكِ وزوجك؟

أجبته باقتضاب:

- بخير، الجميع بخير.

- هذه المرة أيضاً لم تحضري ليال معكِ؟

فاجأني بسؤاله عن ليال، لا أعرفُ سبب إصراره على رؤيتها وشغفه بها. تراهُ يشعر بأنها ابنته؟ لا لا أظن. لم يُمهلني لأجيبه بعد أن نظر إليَّ بنظرة عتاب قاسية. التفتَ لناصر ليسأله من جديد:

- قل لي إذن يا ناصر، ما الموضوع الذي تريد أن تحدثني فيه؟

- أ مستعجل؟

- يا سيدي خذ وقتي كاملاً، أنا لا أملكُ غيره. قطار عودتي بعد ساعتين على أيٍ...

وقفتُ فجأة محاولةً التهرب من بدايتهما فسألني طارق:

- إلى أين يا سمرا، ودعينا على الأقل.

غمزته مجيبةً:

- سأحضر لك قهوتك، هنا المقاهي self service

سمعته يجيبني وأنا أخطو إلى داخل المقهى:

- تبا لمقاهي الدار البيضاء.

طلبتُ له قهوته المعتادة وقنينة ماء، كنتُ أختلس النظر إليهما وأنا أنتظر إعداد الطلبية. أخذ ناصر يتكلم محركاً يديه كعادته. بدت تقاسيمُ وجهه مشدودة يجاهد كي يُقنع طارق الذي بدا مستهتراً يدخن سيجارته بتلذذ.

بعد دقائق أخذتُ القهوة وقنينة الماء وعدتُ إليهما. صاح طارق وأنا أقتربُ منهما:

- تأخرتِ يا ليلى... أنقذيني بالقهوة.

رشف قهوته على عجل بينما استكمل ناصر حديثه:

- النظام يا طارق لن ينخرط في صيرورة دمقرطة الحكم بجدّية إلا إذا كانت هناك نخب سياسية قوية تضغط عليه وتكون جادة بما يكفي لتوصل مطالب الشعب إلى المؤسسات السياسية للبلاد وتترجمها إلى برامج حقيقية بدون ارتهان لبرامج الملك والمخزن. مشكلة الشعب الآن ليست هي الوصول الى الملكية البرلمانية أو الدستور الديمقراطي أو الإصلاح السياسي والاقتصادي، المشكلة الحقيقية متمثلة في عدم وجود أحزاب سياسية حقيقية وذات مصداقية ترفع مطالب الشعب وتستمدُّ منه مشروعيتها وتقف الند للند مع الملك والتحالف الطبقي الحاكم.

صاح طارق بصوتٍ هادئ بعد أن توقف ناصر ليشرب من كأس قهوته:

- يا سيدي أنا متفق معك في كل ما قلته. النظام في المغرب راهن دائما، حتى ما قبل الاستقلال، على خلق نخب سياسية عميلة له واستعمل من أجل ذلك كل الوسائل من الريع والإغراء حتى القمع والتصفية ولن أذكرك هنا بصراع النظام مع الشورى والاستقلال والاتحاد الوطني للقوات الشعبية في الخمسينات والستينات وبعده مع تنظيمات اليسار الجذري. النظام استطاع في الأخير أن يفصِّل كل الأحزاب السياسية على مقاصاته ويحولها إلى موظفين لديه، من أولئك الذين كانوا في الجبال يحملون السلاح ثم استبدلوه بالبدل والجلابيب البيضاء واستوطنوا البرلمان والوزارات والإسلاميين مؤخراً الذين أصبح برنامجهم السياسي من برنامج الملك، إلى الحقوقيين أيقونات سنوات الرصاص... من كان

يُصدق أن كل هؤلاء سيتحولون إلى خَدَم عند الملك والمخزن وركاعٍ لهم في حفلات الولاء. الساحة الحزبية التي من المفروض أن تكون ساحة شعبية جماهيرية بامتياز أصبحت حديقة للنظام، يخلق فيها حزبا جديدا لتنزيل سياساته وتجديد أشكاله السلطوية وبعدها يركنهُ إلى اسطبل الأحزاب الإدارية ثم يخلق حزباً جديداً آخر ويُحيي آخرا قديما وهكذا... متفقٌ معك أيضاً، أن الأحزاب السياسية الحالية تعيش حالة انعزال مع تطلعات الشعب ومطالبه وأنها افتقدت للخطاب الإيديولوجي والمرجعية القاعدية وأن الخطاب السياسي انحدر الي مستوى لا أخلاقي. لكن ما الحل؟ تقول لي أن تسقط الأحزاب الحالية!! النظام لن يسمح لك بذلك، سيدخل معك في معركة سيستعمل فيها كل الوسائل المتاحة له لقمعك، النظام لم يسمح للأحزاب ذاتها أن تغير نُخبها وتجدد الحياة الحزبية وأن ترقى بها الى مستوى الشعوب الديمقراطية الراقية فما بالك أن يسمح بذلك لحركة شعبية... يجب أن نفهم جميعاً أن الأحزاب في المغرب هي أدوات للحكم بالنسبة للنظام وهو بالتالي لن يسمح بإسقاطها لخلق أحزاب جديدة قوية، هو ليس بأحمق، لن يعيد تجربة الأحزاب القوية كما في الستينات والسبعينات وهو أيضا لن يسمح بتحديد عدد أقصى للأحزاب فهو هكذا يقطع عليه شريان حياته في أن يخلق الأحزاب التي يريد لإعادة إنتاج السلطوية دائما... النظام الملكي سيحاربك بشراسة يا ناصر.

كان ناصر يصغي لطارق في هدوء، لما رأى أن طارق أنهى كلامه ردَّ عليه بنبرة الواثق من نفسه:

- النظام لن يدخل معنا في تصادم مباشر ان استطعنا إقناع الشعب بفكرة الحركة وخرج معنا في مظاهرات واسعة... مستوى التعبئة الكبير هو الذي سيحمينا من شراسته واصطدامه معنا. أنت تعلم أن النظام

المغربي مناور، يخشى التصادم ويميل حيث يميل ميزان القوة في الشارع. في آخر المطاف سيجد نفسه مجبراً على التضحية بالحرس القديم من حاشيته الحزبية وسينخرط مع الشعب في مسلسل بناء أحزاب شعبية جديدة.

- يا عزيزي، الأحزاب نفسها لن تقبل الرضوخ لمطالبكم حتى وإن كان كل الشعب وراءكم، لا يمكن أن تقبل الأحزاب الحالية حلَّ نفسها وإعادة تشكيلها في أحزابٍ جديدة تفتح الطريق للكفاءات الشابة والنزيهة للعمل السياسي... الأحزاب غدت دكاكين سياسية تسترزقُ قياداتها من الأدوار التي يوزعها عليهم الملك، من المستحيل أن يتنازلوا على امتيازاتهم، عليك أن تفهم هذا يا ناصر.

- سنضغط من أجل ذلك، إرادة الشعب هي الأقوى. ثم لا تنسَ أن الأحزاب المغربية تضم شباباً واعياً وغيوراً على هذا الوطن سيساعدنا في قلبِ الطاولة من داخل الأحزاب نفسها على قياداتها.

- أرى أنكم تملكون خطة عمل!

- لا تعوزنا الخطة، ولا التنظيم. ما يعوزنا الآن هو فرد ذو خبرة لينضم إلينا ويساعدنا. لذلك نحنُ في حاجةٍ لأمثالك يا طارق.

- أنتَ فيك الكفاية يا ناصر، تجربتك في التنظيم والعمل السياسي لا يستهان بها، كما أنك رجل قانون...

قاطعه ناصر:

- لكننا نريدكَ أنتَ بالذات معنا، هكذا سننجح أكثر.

- تريدني معكم، هذا سبب دعوتك اليوم لي.

تنهد ناصر بعمق، هو يعرفُ أن مثل هذه الأسئلة التي يطرحها طارق، تبتغي الحذر لذلك ردَّ عليه بدبلوماسية:

- أولا نريدُ مشورتك، ثانياً نطلبُ منك الانضمام لنا. نحن الآن ستة أفراد. أتمنى أن تصبح سابعنا لنشكل طليعة الحركة وقيادتها.

ردَّ عليه طارق بلهفة:

- اخترتم اسماً للحركة؟

- "حركة نحنُ نستحق" هكذا أسميناها.

سمعَ طارق جواب ناصر دون أن يعلق عليه، رمى فقط أنامله على علبة السجائر بحثاً عن سيجارةٍ تداعبُ شفتيه. لاحظتُ أن شفتيه ازدادتا زرقة من فرط التدخين... وددتُ في خاطري أن أمنعه من تدخين هذه السيجارة لكنني تداركتُ نفسي بأن تذكرتُ قراري في الابتعاد عن طارق وتركه وشأنه فقد تفرقت بنا السُّبل كما قالت نزهة.

بعد أن أشعل سيجارته، صاح قائلاً:

- فعلاً "نحن نستحق"، الشعب المغربي يستحق نخباً سياسية جادة وذات مصداقية... لقد تعبنا من السياسيين الذين جثموا على أنفاسنا سنوات طويلة... لا نعرفُ إن كانوا أعضاء أحزاب سياسية أم موظفين في القصر الملكي.

لمحتُ ابتسامةً تعلو وجه ناصر وكأنه اطمأن لانضمام طارق لحركة نحن نستحق. كنتُ أداعبُ خصلة شعري عندما نظر إليّ طارق وكأنه يستنجدُ من ناصر بي. لمحتُ في عينيه أسئلة كثيرة، بدا منكسراً، عيناه تائهتان كعادته. أعرفُ طارق، إنه يخشى الدخول في مشاريع يخشى أن تفشل وتزيده انكساراً وهو الذي استنفذ كل مشاريعه في الحياة.

سألني بصوتٍ هادئ:

- أنتِ معهم يا ليلى؟

أجبته بنفس وثيرته الهادئة:

- نعم، انضممتُ لحركة نحن نستحق منذ شهور دون تفكير طويل.

سألني متلهفاً:

- لم؟

- لأن التجربة والتاريخ يحتمان علينا إسقاط النخب السياسية التي يحتمي بها القصر وتزيده تعنتا في عدم بناء ديمقراطية حقة. كل المعارك التي خاضها اليسار وبعده الطلبة والشباب في الحركات الشعبية وإن كانت أجبرت النظام على الانخراط مرغما في المسلسل الديمقراطي والحقوقي إلا أنها باءت بالفشل وارتدّ الوضع إلى أسوء مما كان. خذ حركة 20 فبراير مثلاً، لمَ فشلت في تحقيق مطالبها؟ ببساطة لأنها لا تستطيع وحدها الضغط على النظام لتحقيق مطالبها وبالمقابل ليس هناك نخب سياسية تترجم مطالبها وتضغط على النظام من أجل تحقيقها، بل اصطفت الأحزاب إلى جانب النظام ضد شباب الحركة بعد أن استغلت حراكهم. التشخيص الصحيح للوضع السياسي الآن في المغرب هو غياب خصم سياسي قوي للنظام، يُجبره على تلبية مطالب الشعب وخوض معركة ضده على المدى الطويل لإرساء ديمقراطية حقيقية. لذلك فالمسار الديمقراطي الصحيح للمغرب يبدأ بإنشاء أحزاب سياسية شعبية قوية ويتم تحديدها في حزبين أو ثلاثة أحزاب فقط منعا للتشرذم وتمييع العمل السياسي بأن يخلق النظام أحزابا جديدة عميلةً له. الأحزاب الشعبية الجديدة والقوية هي التي ستتكفل

بإدارة الجولة الثانية مع النظام للضغط عليه من أجل تحديد نفوذه وصياغة دستور جديد يسود فيه الملك ولا يحكم ويتم الفصل الحقيقي بين السلطات وإرساء عدالة اقتصادية واجتماعية... هذا هو المسار الصحيح، وواجبنا الآن جميعاً أن ندعو إلى الخطوة الأولى وهي إسقاط الأحزاب الحالية وبناء أحزاب جديدة.

قاطعني طارق وهو يصرخ بعصبية:

- من سيسقط الأحزاب؟ قولا لي؟! لا أحد في هذه البلاد يملكُ صلاحية إسقاط الأحزاب، حتى الملك نفسه، لا الدستور ولا الأعراف سيسمحان له بذلك.

ردَّ عليه ناصر بصبرٍ نافذ يوحي أن النقاش مع طارق يدور في حلقة مفرغة:

- الشعب، الشعوب التي أسقطت الأنظمة والحكومات لن تعجز عن إسقاط الأحزاب.

ضحكَ طارق بسخرية قبل أن يجيب:

- الشعب! إن كنتَ تتكلم عن الشعب التونسي أو المصري، نعم معك حق... أما الشعب المغربي لا تنتظر منه أن يُسقط حتى رئيس بلدية.

بعد جواب طارق وضحكته الساخرة حلَّت علينا لحظات صمتٍ قاتل لم نسمع فيها سوى صوت لفافة سيجارة طارق وهي تحترق على شفتيه.

بعد أن رمقني أتبادل نظرات الإحباط مع ناصر قطع صمتنا قائلاً:

- اعذراني لا يمكنني الانضمام لكم.

ردَّ عليه ناصر بسرعة حينها:

- لم؟

- أنتم تعرفونني، أنا أناركي بطبيعتي، رافضٌ لفكرة التنظيمات الهرمية والأحزاب والدولة وكل الكيانات السلطوية التي تقمع حرية الفرد وارادته في الحياة.

- كفاكَ طوباوية يا طارق، ستُعيدنا لنقاشاتنا القديمة والعقيمة. الأناركية ليست سوى حلم راود الإنسانية في حقبةٍ من التاريخ وانتهت...

- لمَ بذمتك؟ ألا يمكن للإنسان أن يعيش في مجتمع لاسلطوي ودون قوة قهرية مهيمنة؟ هل الإنسان دائماً في حاجة لحاكم وسيد كي يعيش؟ أمِن المفروض علينا أن نعيش دائما تحت سلطة فرد أو جماعة أو مؤسسات تحد من حريتنا الإنسانية وتفرض علينا نمط حياة قهري؟ أليس المجتمع الأناركي مشروع إنساني يستحق منا كمثقفين التفكير الجدّي والملتزم؟ صدقني، وحدها الأناركية ستعيدُ لنا إنسانيتنا وستوقف مسلسل العبودية التي نعيشها منذ فجر التاريخ إلى الإقطاعية، إلى الرأسمالية وإلى ما بعد الرأسمالية...

قاطعتهُ بقسوة:

- طارق أنت تراوغ فقط، قل إنك لا تريد الانضمام لنا لأنك تخشى من فشلٍ جديد.

صمتَ لحظةً ثم قال وعيناه تلمعان بنظرةٍ قاسية:

- أنا شخصٌ فاشل... لا أخجلُ من قول هذا، والفاشل لا يخشى فشلاً جديداً.

أخذ نفسا عميقا ثم أكمل:

- اعذراني، القطار سينطلق بعد دقائق. إلى اللقاء.

بقيتُ أنا وناصر متسمّرين في مقعدينا ونحنُ ننظرُ لأصابع طارق وهي تلمُّ علبة السجائر والقداحة من على الطاولة ثم غادر غاضباً.

رمقني ناصر بنظرةِ استغراب لردةِ فعله. لم أستطع الحديث، التفتُّ لطارق لأراه يمضي بخطى سريعة كعادته عندما يغضب ويجرُّ خلفه آماله التائهة في هذا الوجود.

14

الرباط-1 أيلول/شتنبر 2015

- لديَّ خبرٌ جميلٌ لك.

أجبتها وأنا أضمها إلى صدري:

- أخبريني به، أنا في حاجة إلى خبرٍ جميل هذا المساء.

- طارق، رائحةُ الخمر تفوح منك بشدة، لمَ أنتَ مصرٌّ على تدمير ذاتك؟

- هذا هو خبركِ الجميل !!

- لا، اسمع يا سيدي. سيزورنا جاكوب.

أجبتها مندهشاً:

- معقول؟ يعقوب كوهين !! كيف تَذكرنا؟

- اتصل بي صباحاً وعاتبني لأننا لم نخبره بمشروع زواجنا ثم قال لي لابد أن يزورنا ليبارك لنا.

- جميل، إنه حقاً لخبرٌ مفرح.

نظرتْ في عينيَّ ملياً ثم قالت:

- لماذا من بين كل اليهود تحبُّ جاكوب يا طارق؟

أجبتها وأنا أنزع ملابسي قبل أن أستسلم لرشاش الدوش الساخن:

- اسمه يعقوب، إنه يحبُ أن نناديه يعقوب وليس جاكوب. ثم يا جميلتي، أنا لا مشكل لدي مع اليهود، مشكلتي مع الصهاينة وأنتِ تعرفين هذا. فضلاً عن كون يعقوب فيلسوف ومفكر يناهض إسرائيل والصهيونية...

- ويناهض الحركة الأمازيغية ويفضحُ علاقتها بالموساد وإسرائيل. أليس هذا يروق لكم أنتم القوميون العرب؟

نظرتُ لها باستغراب قبل أن أسألها:

- كيف عرفتِ هذا؟ في أي كتاب ليعقوب قرأتِ موقفه من الحركة الأمازيغية؟

- لم أقرأه، سمعته يقول هذا بلسانه الأسبوع الماضي في حوارٍ له مع قناة الميادين، كان ضيفاً في برنامج "من الداخل".

أجبتها ساخراً:

- وتتابعين قناة الميادين أيضاً !! أصبح ينقصكِ أن تلبسي الكوفية فقط.

ردّت عليَّ وهي تمدُّني بفوطة الحمام:

- هذا لأنني أحبك وأحب ما تحبه يا غبي.

قهقهتُ ضاحكاً وأنا أدخل للحمام، أدرتُ الصنبور الأحمر للرشاش ليدفع مياهه الساخنة لتسقط على جسدي، تصاعدت درجة سخونة المياه لحدّ ما شعرتُ بأطرافي تحترق، لم أكترث، فالكحول التي تجري بدمائي قادرة على تخفيف الألم، ويا ليتها كانت قادرة على تخفيف ألم القلب ووجع الحياة.

تركتُ جسدي ينزلق على أرض الحمام وغرقتُ في ذكريات قديمة. تذكرتُ ليلى عندما كانت تأخذ قطعة الصابون وتدعك ظهري بها، كان حمام عشر دقائق

يتحول إلى ساعات وساعات... أنا وليلى كنا نصير طفلين متى التقينا، آهٍ يا ليلى، لقد تركتِ الطفل بداخلي يشيخُ برحيلك.

هل أحتاج أنا الآخر مسيرة خضراء لأعيدك إلى أحضان قلبي يا ليلى؟ كم من الكلمات والأشعار ستزحف إليك في طوابير الحب وشاحنات الآهات الحمراء كي أستعيدك؟! قولي لي، كم من حناجر قلمي سأشحذها لترفع لك أغنية "صوت الطارق ينادي بلسانك يا ليلى" ؟

أوَ سترضين بلا حرب وبلا سلاح كمعجزة الزمان؟ سترضين فقط بكتاب الله وبطريقي المستقيم، لأصل رحم قلبك بأعلامي؟ أم أنك ستقولين عني جبان لا أقوى على المعارك في حضرة الحب !!

أنا فعلا جبان، فكيف لي أن أستجدي عودة امرأة أقرَّت كل القوانين أنها لي، وحكمت محاكم العدل أن لها بيعة أبدية لي وأنها لم تكن امرأة خلاء!! فكيف خنتِ إذن؟ كيف استعمركِ رجل آخر فأصبحتِ قضية تصفية استعمار وتقرير مصير؟

كيف سيحارب قلبي من أجلك وهو متعب بألم الحب الجيوسياسي ووجع الفصل العنصري بين جغرافيتك وتاريخي؟ قولي لي كيف سيقاتل من أجلك وهو مهما فعل سيظل جنديا مجهولا في ساحة قلبك؟ كيف له أن يسير في مسيرات خضراء أو حمراء وهو مصاب بعمى الألوان؟ أترضين بحكم ذاتي وتعودين لي؟ أم ستتركين القدر يسخر مني ويسميني محتلاً في هيئة العشاق المتحدة؟ أتراني سأرضى بقدر الخسارة، فالخاسرون في قصص الحب يا ليلى هم الصادقون ... هم دائما الصادقون.

جاءني صوتُ أماليا بعد أن قرعت الباب مرتين:

- طارق؟ طارق؟ ما بك تأخرت في الحمام؟

- لا شيء أماليا، لا شيء... ها أنا خارج.

حملتُ جسدي على الوقوف ولففت عليه فوطةً بيضاء ثم خرجت لأشعر بهواء الغرفة بارداً. وجدتُ أماليا واقفة في انتظاري بجانب السرير تلبسُ قميصاً حريرياً بالكاد يغطي نصف جسدها العلوي ليترك ساقيها المغريين يغمزان لي "تعالَ".

مررتُ بجانبها متحاشياً جسدها المفخخ لكن عطرها القوي أرداني قتيلاً بعد خطوة من جسدها، التفتُّ لها ففتحتْ ذراعيها قائلةً:

- لقد اشتقتُ لعناق جسدينا، تعال إليَّ لأغذيكَ من أنوثتي.

اندفعتُ إلى حضنها كجائعٍ تتلوى أمعاؤه تحت سياط رذاذ شفتيها ولهيب جسدها المرمري، أمرّغ نفسي في انحناءاتها متعمّدا بزبدها الأبيض حتى صرتُ أشهقُ وأزفرُ هبوطا وصعودا على انحداراتها الوعرة. لكن فجأة، بدأ أزيز الرصاص من جديد يملأ أذنيَّ وصور القذائف ودخان القنابل تتناثر أمام أعيني الغارقة في سفوحها... حاولت تناسي تلك الصور والأصوات ولكنها كانت عنيدة ترفض تركي لجسدِ أماليا. وضعتُ أصابعي في أذنيَّ، أغلقتُ عينيَّ بقوة لكن ما غادرتني فلسطين وحروبها.

دفعتني أماليا إلى السرير ثم حطت فوق جسدي كطائرة أباتشي تحوم حولي مستعدة لقصف جيوب المقاومة في جسدي... لمحتُ نهديها يتقدمان إلى شفتي كدبابتي ميركافا تستعدان لسحق كل شيء حي في طريقها فانتفضتُ صارخاً في وجهها:

- لا أستطيع... لا أستطيع

ردَّت عليّ مستغربة كالعادة:

- ما بك؟ لم لا تستطيع...؟

- لا أعرف، هناك شيء بداخلي يمنعني منكِ

- لكنك لم تكن هكذا من قبل؟!

- أعرف، أعرف أنني لم أكن هكذا.

جلستُ على السرير أضغطُ على رأسي بكلتا يديَّ كي تغادرني أصوات القنابل والمدافع وصور الحرب وأشلاء شهداء فلسطين... يا إلهي ما الذي يجري لي؟ لماذا تحولت حياتي إلى فوضى وجحيم وجودي؟ لماذا صار حتى جسدي عبوةً ناسفةً تنتظر مرور أماليا عليها كي تنفجر في وجهي مأساة فلسطين وحروب العرب مع إسرائيل؟

15

الدار البيضاء-5 أيلول/شتنبر 2015

وصلتُ متأخرة للقاعة التي ينظم فيها المؤتمر الصحفي الأول لحركة نحن نستحق بشارع الزيراوي وسط الدارالبيضاء. كانت القاعة تعجُّ بالحضور، صحفيين بكامراتهم وميكروفوناتهم المختلفة الألوان والأشكال، شباب كثر يحملون لافتات وأعلام الحركة ورجال ببذل سوداء ذكروني ببذلة طارق السوداء التي يلبسها دائما.

توقفتُ لبرهة لآخذ نفسي فلمحتُ ناصر على المنصة يتلو بيان الحركة وبجانبه نزهة. فجأة وقفَ بجانبي عزيز، صديقنا القديم، ليسلم عليّ. انشغلتُ معه في حوار خفيف قبل أن أستأذنه في الانضمام إلى رفاقي. دخلت متجاوزة الحاضرين إلى الصفوف الأمامية إلى أن لمحني بركات، فأشار لي أن مقعدي شاغرا بجانبهم على يمين المنصة. كان يجلس بمحاذاته يوسف وعبد الصمد وبعض المنتسبين للحركة في مكتب الدار البيضاء.

عندما جلست بعد أن سلّمتُ عليهم، ارتفع في أذني صوت ناصر وهو يقرأ من بيان الحركة بصوتٍ قوي:

«...وعليه، فإن "حركة نحن نستحق"، حركة شبابية أكاديمية واحتجاجية مستقلة، تُطالب بالإصلاح الثقافي وبتخليق وإصلاح العمل السياسي في المغرب من خلال حل الأحزاب السياسية الحالية وخلق نخب سياسية جديدة ذات مصداقية وكفاءة، تؤسس لحياة سياسية خلاقة تليق بمستوى تطلعات وعراقة الشعب المغربي وتنفتح بشكل حقيقي على كفاءات الشباب. تطالب "حركة نحن نستحق" ب أولا: تشكيل هيئة وطنية أكاديمية تضم الكفاءات والفعاليات الثقافية

والمدنية بهدف الإعداد لاستراتيجية وطنية شاملة للإصلاح الثقافي والفكري والعلمي بالمغرب... »

ما كاد ناصر يُنهي هذا المطلب الأول حتى اهتزّت كل القاعة بالتصفيقات والصياح، كان الشباب المتواجد بالصفوف الأخيرة أكثر حماسة واندفاعا، رأيتُ كل رفاقي يبتسمون كأن جرعة من الثقة بالنفس والأمل في نجاح حركتنا قد تسلّلت إلى عروقهم.

بعد أن هدأت القاعة أكمل ناصر قراءة البيان:

«...ثانياً : تطالب "حركة نحن نستحق" بحل الأحزاب الحالية وإعادة تشكيلها من جديد في إطار قانون أحزاب ينصُّ على ما يلي : أ-تحديد عدد الأحزاب في ثلاثة أحزاب فقط، تُؤسس بانتخاب ديمقراطي مباشر، ب-إلزامية دَمقرطة الأحزاب داخليا وفتح الآفاق أمام الشباب لتولي المسؤوليات الحزبية.

مبادئ الحركة:

تعتقد *"حركة نحن نستحق"* أن الشعب المغربي يستحق نخب سياسية ذات كفاءة ومصداقية تخدم مصالحه وتحقق تطلعاته إلى عيش كريم ونهضة حقيقية وتحترم أخلاقه وقيمه الحضارية. في حين تحولت الأحزاب السياسية الحالية إلى عبءٍ ثقيل وعائق أمام إرساء قواعد عمل سياسي نظيف وناجع، إذ إنها تحولت في الأغلب إلى دكاكين تَسترزق بالعمل السياسي وإلى هياكل تنظيمية عقيمة تُدار بمنطق الولاءات والزبونية والمحسوبية عوض الكفاءة والاستحقاق وتُنتج الفساد والصراعات اللاأخلاقية عوض الأفكار البناءة والبرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية الناجعة. ومن هذا المنطلق، ترى *"حركة نحن نستحق"* أن:

- عزوف الشعب المغربي، والشباب خصوصا، عن العمل السياسي والانخراط الحزبي، دليل على الخيبات المتراكمة لدى المواطنين المغاربة وعدم ثقتهم في النخب السياسية الحالية.

- الأحزاب السياسية الحالية فشلت في استقطاب الشباب المغربي وتأطيره وفتح آفاق العمل السياسي والحزبي له وهو ما جعلها تعيش في حالة انعزال تام عن انشغالات هذه الفئة الحيوية ما قد يهدد بلادنا على المدى المتوسط، لا قدر الله، بموجات تطرف وكبت سياسي واجتماعي عميق.

- الأحزاب السياسية الحالية، أبانت عن فشلها الكبير في التسيير والمساهمة في حل الملفات الكبرى والاستراتيجية للمملكة المغربية وأصبحت تتستر وراء برامج ومبادرات الملك. كما باتت، في نفس السياق، عاجزة وفاقدة للمبادرة بالمقارنة مع الجمعيات والفعاليات المدنية التي أصبحت صاحبة السبق والقوة الاقتراحية في الملفات الحيوية التي يُعنى بها الشعب المغربي.

- التشتت والتجزئة الحزبية التي تعرفها بلادنا ما هي إلا نتيجة لانسداد الأفق داخل الأحزاب السياسية الحالية وغياب العقلية الديمقراطية والتشاركية لدى المتحكمين بهذه الأحزاب، مما يجعل هذه الأخيرة تلفظ على الدوام كفاءاتها وأطرها إلى الانشقاق والشتات.

- الكم الكبير للأحزاب السياسية الحالية لا يجد له تفسير فكري مبادئي أو سوسيوسياسي ولا يرتكز على تعدد المرجعيات الفكرية والإيديولوجية لدى الشعب المغربي، بل أُفرِغَتْ الأحزاب من دورها الحقيقي في مناقشة الأفكار والإيديولوجيات وصياغة البرامج السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ناهيك عن الغياب والسبات العميق الذي تعيش فيه أحزاب سياسية كثيرة لا يذكر الشعب المغربي حتى أسماءها في الوقت

الذي تستنزف فيه المال العام وتُذكي العبثية والارتجالية في العمل السياسي.

- الأحزاب السياسية الحالية، انزلقت إلى مستوى سياسي لا يحترم حتى القيم الأخلاقية والحضارية للشعب المغربي إذ أصبحت مرتعاً للصراعات المشينة والشتائم اللاأخلاقية والظواهر الصوتية.

- الأحزاب السياسية الحالية تزخر بكفاءات وطنية كبيرة لكنها مهمشة للأسف، خصوصا في صفوف الشبيبات والمؤتمرات الحزبية، وقد آن الأوان لهذه الكفاءات أن تتحمل مسؤوليتها وتوحد مجهوداتها لتدارك تدهور الوضع السياسي والحزبي وخلق قوة إصلاحية ترقى ببلادنا إلى مصاف الدول الحضارية... »

عندما توقف ناصر عن تلاوة بيان الحركة، عمّت القاعة من جديد موجة تصفيقات وهتافات، تساءلتُ مع نفسي حينها هل سيستقبل الشعب المغربي مشروع حركتنا بذات الحماسة أيضا وسينخرط معنا في مسيرة النضال لتحقيق مطالبنا.

صاح ناصر وهو يلمُّ الأوراق التي بُعثرت أمامه أثناء خطابه:

- اسمحوا لي أن أترككم الآن مع الناطقة الرسمية باسم الحركة والتي ستتكلف منذ الآن بمهمة التواصل مع كل فعاليات الشعب المغربي، أقدم لكم الأستاذة نزهة صادق.

تقدّمت نزهة بخطوات ثابتة إلى المنصة، مبتسمةً وأنيقة كأنثى طاووس تفرد على القاعة جمالها وحسن طلتها، في الوقت الذي اتجه فيه ناصر للجلوس بجانبي بالقرب من المنصة. عندما وقفت نزهة على المنصة اعتلت وجهها ملامح جادة وصارمة، ثم قالت بصوت هادئ:

- مساء الخير، بعد أن تفضل الأستاذ ناصر الواعد منسق الحركة بقراءة بيان الحركة ومبادئها التأسيسية على مسامع حضراتكم، نفتح المجال الآن للإجابة على تساؤلات الصحفيين. سؤال واحد لكل صحفي من فضلكم نظرا لضيق الوقت وللحضور الكبير للصحفيين الكرام...

ما كادت تُنهي كلامها حتى سقط عليها السؤال الأول:

- ما علاقة حركتكم بحركة 20 فبراير؟

- لا علاقة لنا بتاتاً بحركة 20 فبراير، مبادؤنا ومطالبنا مختلفة... ربما قاسمنا المشترك الوحيد أن الحركتين جماهيريتين وتشتركان في نفس النهج الاحتجاجي الشعبي ونحنُ أكيد سنستفيد من تجربتها وقد درسنا مسبقا وبشكل تحليلي نقدي مسار هذه الحركة المتميزة والشجاعة في تاريخ المغرب المعاصر.

ثم تقاطرت عليها الأسئلة فيما بعد، وهي تردّ بذكاء وبصراحة كبيرة:

- ما رأيكم في الملكية؟ هل تريدون ملكية برلمانية؟

- حركة نحن نستحق ليست بحركة أيديولوجية ولا حزبية وبالتالي ليس لها أي رأي إطلاقا في نظام الحكم بالمغرب وليس لها موقف من شكل الملكية الذي يجب العمل به. هدف الحركة هو تشكيل نخب سياسية جديدة، حقيقية، قوية ونزيهة... هذه النخب الجديدة هي التي سيكون بإمكانها النظر في المستقبل في شكل نظام الحكم وموقع الملكية.

- هل تظنون فعلا أن الحل من أجل الإصلاح السياسي بالمغرب هو حل الأحزاب الحالية؟ وهل بإمكانكم فعلا إسقاط الأحزاب؟

- الحقيقة التي نؤمن بها في حركة نحن نستحق هي أن الأحزاب الحالية لا يمكنها أن تقوم بالإصلاح السياسي الحقيقي الذي يتطلّع إليه الشعب

المغربي وقد ظهر ذلك بشكل جلي للشعب المغربي، استنفذنا سنوات طويلة وضيعنا أجيالا كثيرة من شعبنا دون أن نصل لإصلاح جذري وحقيقي. الأحزاب السياسية الحالية إرادتها مُصادرة وتحولت في الغالب إلى دكاكين للاسترزاق السياسي فضلا عن كونها أصبحت معزولة شعبياً. نحنُ نعتقد أن الخطوة الأولى في طريق الإصلاح السياسي هي أن يُوصل الشعب المغربي كفاءات سياسية جديدة، نزيهة، قوية وذات مصداقية شعبية إلى الحكم، هذه الكفاءات والنخب السياسية الجديدة هي التي ستتكفل فيما بعد بتنفيذ باقي الخطوات في مسلسل الإصلاح السياسي والاقتصادي والثقافي أيضاً. بخصوص الشق الثاني من السؤال أقول، إسقاط الأحزاب ليس بالأمر الصعب، هناك شعوب أسقطت أنظمة وأقامت ثورات، لا أظن أن الشعب المغربي سيعجز أمام حفنة أحزاب متآكلة ولا قواعد شعبية حقيقية لها.

- هل ستبدؤون بالاحتجاج في الشارع على الطريقة المصرية والتونسية لحل الأحزاب وتنفيذ مطالبكم؟

- سنبدأ أولا بتوعية الشعب بمطالبنا من خلال توزيع مناشير وملءِ استمارات الانضمام للحركة، كما أننا سنوصل مطالبنا لمن يهمهم الأمر عن طريق الحوار والإقناع، في النهاية التصعيد لن يخدمهم. وفي حين استنفاذ كل الوسائل أكيد سننزل للشارع وبقوة.

بينما كانت نزهة تواصل أجوبتها عن أسئلة الصحفيين، أخفضَ ناصر رأسه باتجاهي قائلاً:

- ماذا قال لك ذلك الخائن، لقد لمحتك تتحدثين معه؟ ألا يريد أن يتركنا بسلام؟

قلتُ له مستغربة:

- تقصد عزيز؟

- نعم، عزيز الخائن...

- جاء ليسلّم عليّ، ويحيينا على مشروع حركة نحن نستحق، قال لي إنه سعيد لرؤية رفاقه القدامى يحاولون تغيير الوضع السياسي بالمغرب ويقدمون البدائل النضالية.

ضحك بسخرية قبل أن يقول لي:

- احذري من ذلك الخائن يا ليلى، لقد جاء حتماً ليتجسس علينا لصالح النظام.

بينما كنتُ أنظر إليه مبتسمةً، تجمع حولنا الصحفيون بعد انتهاء نزهة من الأجوبة على أسئلتهم. بدأوا في أخذ الصور لنا ونحن واقفين نمسك يدا بيد وفي قلبنا أمل كبير لتحقيق تطلعات هذا الشعب في رؤية وطن يحترمُ حرية وكرامة الإنسان.

16

الرباط-6 أيلول/شتنبر 2015

ها قد أصبح اسمكِ يسكنُ الجرائد وكل وسائل الإعلام، كأنه يتربص بي أينما رحلتِ ليعيدني إلى شريط ذكريات الأمس التي لا تغادرني. نجحتِ إذن، نجحتِ في أول مشروع نضال لكِ بعيداً عني، كأن لعنة النضال ولعنة المبادئ كُتبتا بإسمي فقط. هل فعلاً سيصبح وطننا كما نستحق؟ وستملؤونه مظاهرات واحتجاجات لتزيلوا النخب القديمة من معابد السياسة التي باعت لنا دينا سقيماً أعيا تاريخ الوطن؟

قالت لي مها همسا وهي تقرّب شفاهها من أذني:

- ما رأيك أن تقرأ لي قصيدة من نسج خيالك يا شاعر؟ لم أسمع منك شعرا منذ زمن...

- هذا ليس وقتُ الشعر يا مها، إنه وقت الحرب. الحربُ تُعلنُ في كل مكان وعلى كل شيء، حتى على الشعر والأدب.

- الحرب لن تستطيع قتل الشعر والحب. الحب هو البذرة التي تخرجُ منها الحياة والشعر هو الماء الذي يسقيها.

- لازلتِ تحلمين يا ماهي، أُنظري لهذا الجيل الذي ضيع معاني الحب أصبح يلهث وراء الجنس واللهو والعلاقات العابرة الفارغة من كل الأحاسيس الجميلة. أُنظري للشعر الذي أصبح غريباً منبوذاً لا يُقرأ إلا في المقررات المدرسية. هذا ليس زمن درويش ونزار قباني وجبران يا مها هذا زمن الكلاشنكوف وداعش وكيم كارديشيان.

سكتت لدقائق طويلة ثم قالت لي بجرأة:

- أتعرفُ ماذا أشتهي الآن؟

- ماذا؟

- أن أقضي ليلةً معك، أريد أن أمتلكَ ما لم تستطع امرأة أخرى امتلاكه ...

ضحكتُ ساخرا من كلامها قبل أجيبها:

- للأسف، لم تترك لك الأخريات شيئاً تملكيه فيَّ، فقد صرتُ أطلالا خاوية يا عزيزتي.

- عيناك تكذبانك، عيناك تقولان لي أن لك سماوات لم تحلّق فيها امرأة قبلي.

تجاهلتُ كلماتها المغرية بإشعال سيجارة جديدة، لكنها ظلت تبحلق في عيني بإصرار ثم قالت:

- ماذا قلتَ؟

في هذه اللحظة سقطت أماليا في فكري، تذكرتُ أن أمها ستحضر اليوم إلى المغرب لتعينها في تحضيرات زواجنا. أجبتُ مها بقسوة:

- قلتُ إن كأسي قد فرغ منذ لحظات...

انصرفت مها غاضبة من أمامي، لأتركَ بصري يتوه في مرقص المطعم بين الأجساد الراقصة. لمحتُ رجاء الغالي من جديد ترقص كحورية بثوبها الأسود وتنظر إليّ وكأنها تغريني بالرقص على شواطئها هذا المساء. آه يا رجاء، أنا لم أعد قادراً على الدخول في حياة امرأة جديدة، صرتُ أخشى محادثة امرأة جديدة وأنا المسكون بأطلال امرأة قديمة.

أينكِ يا ليلى؟ فهم يُحاصرونكِ الليلةَ دوني، يُسيجونَ جسدكِ بالأشواك، بالحديد والنار. ما بي دونكِ لاجئ، وما بكِ دوني عذراءْ؟ أتتذكرينَ وأنا ألجُ أرضكِ ذاك المساء؟ ذاك المساءِ المعطَّر بتوابل السَّماء؟ أتتذكرين عزفَ الرملِ على نهود الصحراء؟ حينَ كنتِ تُعدِّينَ كَفني لِأبعثَ من جديد في جوفكِ، حينَ تضاربتْ الألوان على شفتيكِ، الأسودُ يفاوض الأبيض والأحمر يُغري الأخضر.

وما بكَ يا طارق تحنُّ؟ وما بكَ بعلقمِ الحبِّ تجنُّ؟ ... لا تُجبني يا أنا، فأنتَ أخرسٌ من الإجابات، أصمٌّ من الإشارات ولا حواس لك، لا ليلَ لكَ سوى ثوبٌ أسودٌ تلبسهُ عشيقتكَ الأولى في دروب الغروب، عندما ينتصبُ الليل أمامَ شفتي النهار، فيكون لهم ليلهم ويبقى نهاركَ إلى الأبد.

يا أيها الأبد، يا أيها الأبد لم لا أبدَ لكَ في حكايات الحب السقيمة؟ لمَ أحلتَ قصصكَ إلى أساطير القبائل القديمة؟ ... لمَ تزفُّ كل العشاق إلى مدرج النهايات، حيثُ طائرة الرحيل تربدُ كقدرٍ يستعجلُ الرحيل؟ ... ولم النهايات شهادةُ وفاتكَ اللعينة؟ ولم الطائرات تلبسُ لنا الأبيض في نهاياتنا السريعة؟ أما كانت ستكون مغريةً وهي سوداء سوادَ النهايات؟ ألم تقرأ هي الأخرى "الأسود يليقُ بكِ" كعشيقتي الأخيرة؟

17

الدار البيضاء-18 تشرين الأول/أكتوبر 2015

هذا أول يومٍ تنطلق فيه مظاهرات حركة نحن نستحق بعد أن استطعنا جمع مليوني استمارة للمطالبة بحل الأحزاب الحالية. يوم أحد مشمس يحمل في جوه الأمل ونسمات الحياة الجميلة. عند التحاقي بمجموعة الرفاق في صباح هذا اليوم بمقهى أوديسا وسط المدينة رأيتُ أن شوارع الحسن الثاني وساحة الأمم المتحدة قد غصت بالمتظاهرين من كل الفئات العمرية، يحملون الشعارات واللافتات وتعلو ملامحهم الأمل والعزيمة. دبّت بي حماسة وأنا أصافح الرفاق بالمقهى قائلةً:

- يبدو أننا سنكسّر عظامَ النظام في أول يومٍ يا رفاق.

الكل كان مبتسماً ومتحمساً إلا ناصر الذي ردّ عليَّ بارتباك:

- أخشى أن تكون دراستكِ الاستراتيجية للحركة يغلبُ عليها التفاؤل يا ليلى. هل سننجحُ حقاً؟

أجبته بكل ثقة:

- لقد كررتَ على مسامعي هذا السؤال ألف مرة يا رفيق. اسمع هتافات الناس، أُنظر إلى ساحة الأمم وشارع الحسن الثاني وأنت تعرف الجواب.

أردفتُ بعد أن لمحت عيون نزهة ويوسف يبحثون في كلامي عما يشجعهم أكثر ويزيدهم ثقة:

- في الأشهر الماضية استطاعت حركتنا من خلال الإعلام والتعبئة تشكيل قاعدة شعبية كبيرة ستتوسع مع تراكم المحطات النضالية وتطوير أساليب التظاهر والاحتجاج.

قال ناصر كمن يبحث فقط عن فرصةٍ للتشاؤم:

- الدار البيضاء وحدها لا تكفي، يجب أن تغوص كل المدن بالمظاهرات يا رفيقي.

ردّت عليه نزهة متحفزةً:

- مشوار الميل يبدأ بخطوة يا ناصر، هيا لنبدأ خطوتنا الأولى.

ثم أكملتْ بعد أن نظرت إلى ساعتها:

- يجب أن نلتحق بالمظاهرات إنها العاشرة الآن.

قبل أن نغادر المقهى سألتُ ناصر عن بركات وعبد الصمد فأخبرني أن بركات يقوم هو ولجنته بضبط مسار المظاهرة والشعارات المرفوعة فيها أما عبد الصمد فيقوم بتوزيع المنشورات واللافتات. في طريقنا إلى المظاهرة التفت ناصر إلى يوسف ونزهة ليطلب منهما أن يتفرغا للإجابة على أسئلة الصحفيين ناصحاً إياهما بأن تكون أجوبتهما مقتضبة ومتحفظة في انتظار البيان الرسمي للحركة هذا المساء، فضربته بكتفي ممازحة:

- وأنا، ألن تكلفني بمهمة يا زعيم؟

ابتسم ثم قال:

- أنت يا مخططة، مهمتك أن تبقي بجانبي وتراقبي كل صغيرة وكبيرة في المظاهرة.

أردف بعد أن اعتلت ملامحه لمحة جد وصرامة:

- النظام خبيث، علينا أن ندرس تحركات قوات الأمن وسلوك أعوان النظام كي نستنتج طريقة تفكيره يا ليلى. فهمتني؟

- فهمتكَ يا رفيقي، يكون خير إن شاء الله.

بمجرد التحاقنا بمقدمة المظاهرة وتعرُّف الناس علينا حتى صاحت كل الجماهير بصوت عالٍ يصدح في كل أرجاء وسط الدار البيضاء "الشعب يريد إسقاط الأحزاب". انطلقت المظاهرة بكل حماسة من ساحة الأمم المتحدة في اتجاه شارع محمد الخامس. في الصف الأول تشابكت أيدي ناصر ونزهة ويوسف وأنا مع أيادي بقية المتظاهرين الذين كانوا يصرخون بملءِ حناجرهم بإسقاط الأحزاب، كانوا شباباً وشيوخا ونساء تظهر على محياهم ملامح الغضب ونفاذ صبر مما يعيشه الوضع السياسي المغربي.

كنتُ في كل مرة ألتفتُّ فيها للخلف لأرى مدى المظاهرة كانت تبدو لي صفوف المحتجين بلا نهاية، متراصة بانتظام وعلى الجنبات انتشرت كاميرات وسائل الإعلام والصحفيين وبعض رجال الأمن الذين بدأوا يخففون تواجدهم بشكل كبير مع تقدم المظاهرة في مسارها.

عند وصولنا ساحة السوق المركزي، اعتلى ناصر الشاحنة التي كانت تحملُ مكبرات الصوت أمام المظاهرة. بمجرد ما أمسك مكبر الصوت حتى سَرَتْ موجة هدوءٍ وترقب في صفوف المتظاهرين في انتظار ما سيقوله ناصر. في تلك الآونة لمحتُ بركات يجري وسط الصفوف ليطلب من المتظاهرين إنزال شعارات لا علاقة لها بمطالب الحركة.

ظلَّ ناصر صامتاً لدقائق وهو ينظر لجنبات المظاهرة، خشيتُ أن يكون قد أصابه الارتباك قبل أن يصيح بصوته الجهوري الذي ذكرني بأيام نضالنا في الجامعة:

- علاش جينا اليوم؟

ردَّ المتظاهرين بصوت تقشعرُّ له الأبدان حماسةً:

- لإسقاط الأحزاب، لإسقاط الأحزاب.

كرّر ناصر عبارته أكثر من مرة وردّت عليه الجماهير في كل مرة بحماسة أكبر، قبل أن يصيح ناصر كنسرٍ معلّق في السماء ليحفز المتظاهرين:

- هاد البلاد حنا مَاليها، ما غاديش يديروا فيها ما بغاو. حنا ماشي بهايم وهداك ماشي مول البلاد، وحنا ماشي عبيد وهادوك ماشي أسياد. عاش الشعب، عاش المغرب اللي بغيناه ديمقراطي ديال بصح ماشي الديمقراطية ديال الأوراق والهضرة الخاوية، بغينا سياسيين يشرفوا الشعب ويدافعوا عليه ماشي يشفروا البلاد ويتآمروا علينا. علاش جينا اليوم؟

ورددت الجماهير من ورائه:

- لإسقاط الأحزاب، للإسقاط الأحزاب...

ظلَّت الجماهير تردد شعار إسقاط الأحزاب بقوة والمظاهرة تتقدم في اتجاه ساحة الياسر بآخر شارع محمد الخامس. قبل أن نصل الساحة التحق بنا بركات يملأه الحماس قائلاً:

- تخيلوا المظاهرة يفوق عددها 500 ألف، نصف مليون يا رفاق، نصف مليون...

سأله ناصر فرحاً:

- وماذا عن بقية المدن؟

ردَّ عليه بركات وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

- كل التنسيقيات أكدت لي أن التظاهرات كبيرة في الرباط ومراكش وفاس وأكادير وطنجة وكل التظاهرات منظمة ومتماسكة.

من فرط الحماس أخذ ناصر يعانق بركات مثنيا عليه قبل أن يأمره بالعودة إلى عمله رفقة لجنته. التفتُّ لنزهة وجدتها غارقة في حوارات مع الصحفيين وهي

تتصبب عرقاً وملامح التعب بادية على وجهها. فجأة مالَ رأس ناصر اتجاه أذني وصرخ كي أسمع كلامه وسط الضوضاء:

- هل لاحظتِ شيئاً يا ليلى؟

قبل أن أجيبه سقطت في بالي فكرة أن أكتب له على ورقة كي لا يسمع أحد ما سأقول له، فأخذت قلما وورقة من حقيبتي وكتبتُ له:

- النظام ذكي، ترك المحلات والمتاجر في الشارع مفتوحة في المقابل أوقف الترامواي وسحب قواته الأمنية بالتدريج. إنه يُخطط لبث الفوضى في المظاهرة وتلطيخ صورة المحتجين. أكيد أن عملاءه مدسوسون بيننا الآن. علينا ألا نطيل زمن المظاهرة.

وضعتُ الورقة في يد ناصر ثم قرأها بتمعن قبل أن يضعها في جيبه. انشغل في التفكير للحظات، ثم أخفض رأسه مرة أخرى ليقول لي:

- أقترح أن تصل المظاهرة إلى أمام محطة القطار.

- لا يا رفيق، إنها المظاهرة الأولى للحركة يجب أن تنتهي بصورة جيدة ومتماسكة، لذلك عليها أن تكون مقتضبة...

هزَّ رأسه موافقاً ثم قال لي:

- حسنا، سننهي المظاهرة في ساحة الياسر.

كانت مظاهرة هذا اليوم مفتاح النصر الأول لحركتنا، أصبحت مطالب حركة نحن نستحق على كل لسان وأصبحت تشغل وسائل الإعلام الوطنية والدولية وغدونا لا نبرح القنوات والإذاعات كي نشرح للشعب مطالبنا ونضغط على النظام أكثر.

استمرت مظاهرات الحركة لأكثر من شهرين، تضامنت معنا خلالها شبيبات الأحزاب وتفهمت أحزاب اليسار الراديكالي مطالبنا داعيةً إلى تشكيل أحزاب

جديدة وإصلاح المنظومة السياسية بشكل جذري، فيما ظل النظام ومعه قيادات بقية الأحزاب صامتين يُعدّون لنا خطوتهم المفاجأة.

هاديس

18

الرباط-20 تشرين الأول/أكتوبر 2015

في مطعم لوكراند كومبتوار جلستُ هذا المساء أيضاً أقلّب ذكرياتي ... تارةً أخطف نظرة على شاشات التلفاز عسى أن أرى ليلى ضيفة على أخبار المساء تتحدث عن "حركة نحن نستحق" وتارة أخرى أستمتع بالنظر إلى مها وهي تلبي طلبات الزبائن، بدت لي هذا المساء مختلفة، جميلةً أكثر لكنها حزينة أكثر أيضاً.

رميتُ نظري على زبائن المطعم، بدوا جميعاً حزينين هم الآخرين تائهين بين كؤوسهم ووجبات العشاء التي يأكلونها وسط نزف الذكريات. على الطاولة التي تجلسُ عليها عادة رجاء الغالي وصديقاتها كان يجلس رجل خمسيني يحتسي فنجان قهوة على مهل بجانب سيدة من عمره، خمنتُ أنها زوجته. ذكرني مشهدهما باللحظات الجميلة التي كنت أشرب فيها قهوة الصباح إلى جانب سلوان بقطاع غزة.

لم أعِ ما أفعل حينها، جرفني تيار الذكريات لأركّبَ رقم سلوان على هاتفي دون أن أفكر وفي تلك اللحظات التي سمعت فيها رنين الهاتف، تصاعدت دقات قلبي تباعا حتى كاد يتوقف عند سماع صوتها الدافئ كعادته لكنه يحمل نبرة عتاب هذه المرة:

- تذكرتني لتوك...
- لم أنْسَكِ لأتذكركِ يا سلوان.
- اشتقتكَ يا طارق، كل شيء في فلسطين اشتاق لك، حتى أزيز الرصاص يشتاق لعزف أجمل السمفونيات لك.

- سأعود قريباً يا سلون، سأعود لأشرب قهوة الصباح إلى جانبك وألتحف بندقيتي في المساء.

- لن تجدني عندما تأتي... يبدو أنك لا تعلم ما يجري في غزة وما جرى لرفاقك.

شعرتُ بانقباض في صدري وأنا أسمع كلماتها الأخيرة، بدا صوتها حزينا كأنها ستقدمُ على فعلٍ ما يُحزنها، لم أعرف عمَّ تتحدث. فسألتها بانفعال:

- ماذا تقصدين يا سلوان؟ ماذا هناك.

- لا تشغل بالك الآن، ليس هذا وقت الشرح ...

صمتت لحظة ثم أردفت:

- طارق، لماذا يأتي الحب مغلفاً بطعم الخوف والهزيمة؟

أجبتها مستسلماً لسؤالها:

- لأننا نخاف أن نفقد من نحب ونخشى من أقدارنا المجنونة أن تهزم فينا آمال الحب... هذا هو الحب يا عزيزتي، لا يأتي كاملا.

- القدَرُ ذاته لا يأتي كاملا يا طارق. القدر كما الحياة ينقصهما أشياء كثيرة كي يكونا جديرين بالوجود. قدري كفلسطينية ينقصه وطن وقدري كامرأة ينقصه أنت.

- لو تعلمين كم ينقصني أنا يا سلوان، ينقصني وطن ينتمي لي كما أنتمي إليه، ينقصني حلمٌ يعيد الحياة لسكة الأمل، وينقصني الحب ملجأ اللاجئين، ينقصني الطفل الذي ضيعتُه في زحمة الآمال المنكسرة، هل بوسعي يا سلوان أن أشفى من وجع الحياة؟

- لم لا تنسى كل شيء وتبدأ من جديد...؟

- في كل مرة أحاول فيها النسيان أنتهي من جديد...

سمعتها تقول بصوت موغل في الحزن:

- طارق، لن نلتقي مجددا، لكنني سأنتظرك، سأنتظرك مع كل شهداء الوطن...

- سلوان، ماذا تقصدين؟

- سأتركك الآن، اعتني بنفسك.

وقطعت الخط تاركةً إياي لجمر التخمينات التي غزت قلبي لتحرقهُ على مهلٍ وأنا أتذكر كل لحظاتي معها. تساءلتُ مع نفسي أين ستذهب سلوان؟ لماذا قالت لن نلتقي مجدداً؟ بدأ شعورٌ بالانقباض يتوغل في داخلي أكثر وأكثر إلى أن سمعتُ نغمات عزف العود للثلاثي جبران تجتاح مسامعي وتُحيلُ ناري إلى رماد يقتات من نغمات العود الحزينة.

التفتُّ إلى مها، كانت تنظر إليّ بعينيها الصافيتين وعلى شفتيها الكرزيتين ابتسامة وَلْهَى. قلت لها مبتسماً أنا أيضا:

- شكرا لكِ على وضعكِ هذه الموسيقى...

ردّت عليّ بصوتها العذب:

- لمحتك حزينا تناجي كأسك، فتذكرتُ هذه المقطوعة التي تُعجبك.

- نعم هي تعجبني، لكنها توغل بسامعها في أعماق الحزن وتعزف على أوتار الوجع...

- لذلك الإخوة جبران أطلقوا عليها اسم شجن.

أومأت لها برأسي قائلاً:

- يجب عليك أن تسمعيها وهي ترافق صوت درويش وهو يقرأ قصيدة انتظرها، فعلا تحفة.

أدارت ظهرها لترصّ الكؤوس على فيترينا الكومبتوار، ثم جاءني صوتها مدندنا بقصيدة درويش، كأنها تهديني كلماته التي حفظتها مع أنغام الثلاثي جبران:

بكأس الشّراب المرصّع باللازوردِ، انتظرها

على بركة الماء حول المساء وزَهر الكُولونيا، انتظرها

بصبر الحصان المعدّ لمنحدرات الجبال، انتظرها

بذوق الأمير الرفيع البديع، انتظرها

بنار البخور النسائيّ ملءَ المكان، انتظرها

قالت لي وهي تقفُ أمامي بعد لحظة صمتٍ عدتُ فيها لتأمل زبائن المطعم:

- هل ستنتظرها أنت؟

سألتها مستغرباً:

- من سأنتظر؟

- أنا؟

- لماذا؟ أين ستذهبين؟

- سأرحل إلى إيطاليا، لقد أخبرتني أختي أنها وجدت لي أخيراً عقد عملٍ هناك.

تساءلتُ في نفسي مستغرباً، ما الذي يجري هذه الليلة؟ الكل يودعني مغادراً... لقد تحولتُ إلى محطة يغادرها الجميع بعد حضور قطار الرحيل... قلتُ لها شارداً وأنا أفرغ ما تبقى من كأسي في فمي:

- ألف مبروك يا مها.

ظلت تحدقُ في عينيَّ طويلا قبل أن تقول لي بصوتٍ حزين:

- هذا آخر مساء لي في المطعم.

لم أستطع النظر في عينيها، كانت عيناها تعزف أغنية وداع قديمة، رأيتها في ملامح الكثيرين وهم يقفون في طوابير الرحيل أمامي... تركتُ شفتيَّ تهذيان بكلمات لا يسمعها إلا قلبي هذا المساء:

"... لا مكان لي بعدكِ هنا يا مها إلاّ الهواجس، تغزلُني كالصوف معطفاً لرحيلك وكالحرير في شرنقةِ القدر، أنسجُكِ ذكريات وكلماتٍ وصور. لا مكان لي أمام كؤوس الخمر دونك، فهي تسرقُ القبلَ من شفاهِي إليكِ وتسوقني إلى مقصلتي، شفتيكِ... أنا وإن كنتُ لقيطَ شفتيكِ، فأنا الأولُ في الغرام والأصلُ في حكايات كل الرجال. تُراني من أعشقُ الآن؟ ليلى، سلوان، مها، أماليا... هذا هو سؤالي المعتق في خوابي الذكريات وعمري المكتوب بلعبة نردٍ مغشوش، أخسِرُ وأخسِرُ حتى أُدْمَى على صفحات القدر من الخواء. أنا رجلٌ أخلدُ لمن توجد الآن في أمسيات الوجود وأحنُّ لتلك التي تختبئ وسط ركامِ القدر وتراتيل الغياب... "

رفعتُ رأسي لأجدها ماتزال متسمّرة أمامي، كأنها تسجّل كل تفاصيلي قبل أن تَرحل. قالت لي وكأنها تتعمّدُ إيلامي:

- سأشتاق لك...

لم أفهم الشعور الذي خالجني في تلك اللحظة، وجدتني فقط أطفئ سيجارتي وأقول لها:

- ألازال عرضكِ لي بالرقص على أنغام زهرة هندي قائماً؟

نظرتْ إليّ طويلا وهي تغالب الخجل على وجنتيها، ثم قالت:

- في شقتك؟

ابتسمتُ لها مع إماءة من رأسي، قلتُ لها:

- فليكن، اذهبي لتأخذي حساب نهاية خدمتك وتعالي نُقيمُ عرساً لرحيلكِ، فبقلبي آلاف الكمنجات تعشق العزفَ على نغمات الرحيل ونوتات الوداع.

طوال الطريق، مشت بمحاذاتي كفراشةٍ ترقص بأجنحتها منتشية برحيق وجودي بقربها. كانت تعدُّ خطواتنا بابتسامتها وهي تعانق ذراعي وتوغل برأسها في حضني إلى أن وصلنا إلى شقتي في حسان.

بعد أن تناولنا وجبة العشاء التي أعددتها بيديّ احتفالا برحيلها غرقنا في حديث ممتع عن ذكرياتنا في مطعم لوكراند كومبتوار، تحدثنا عن لقائنا الأول، سنواتنا الأولى. ضحكنا على حماقاتنا وعن اللحظات التي اشتبكت فيها مشاعرنا على أحضان الكؤوس والشعر وتاريخ الأدب إلى أن قالت لي بنبرة حزينة:

- لقد مرّ بنا الزمن سريعا يا طارق، أمعقول أن يكون لقاؤنا في شقتك هنا آخر لقاء لنا؟

أجبتها وأنا متعجب أيضا كيف وصل بنا القدر على غفلة إلى نهايتنا:

- لا تخشي النهايات، فمِن بعضها تولد البدايات.

أردفتُ قائلاً وأنا أداعب ملامِحها بأناملي:

- أنا وأنتِ لا نهاية لنا، سنهزم القدر وسننتزع من السماء بدايةً لنا في كل لقاء...

أطفأتُ سيجارتي ووقفت لأبحث في دولابٍ صغير عن قرص مدمج لأغاني زهرة هندي. وجدته مغلفا بالغبار كما بالذكريات القديمة. وضعته في جهاز الموسيقى وضغطت على رقم 4، لتنبعث كلماتها الجميلة:

Here comes the time
For my heart to heal the past
From now and then
There will be the good and the best
Oh when your eyes and mine
Can see the same
Our love could last

التفتُّ إليها فاتحاً ذراعيَّ في الهواء قائلاً:

- تعالي، لنكتب معاً بداية فصل جديد، تعالي لنهزم النهايات...

دلفت بجسدها إليّ والتصقنا، صدرها على صدري يرقصان على دقاتهما ورقصنا نحن على أنغام زهرة هندي. ظلت تتطلع إليّ بملامحها التي كانت تعيدني إلى سنواتي الطويلة على مشربة لوكراند كومبتوار وذكريات التائه بداخلي على مشارف الحب والوطن والقضية. شعرت بنبضات قلبها تزداد وبدمعٍ خفيف يغرقُ عينيها. مرّ بي حينها تيار جارف قذفني إليها لأضع شفاهي على شفتيها وأمتصُّ منهما رضابها العذب المعدّ لي منذ زمن. تداركتُ نفسي لأصلح خطأ شفاهي على شفتيها، لكنها رفضت تركي والتحمت شفاهنا.

سَرت بجسدي نشوة افتقدتها مع أماليا وتعجبتُ لجسدي اللعين الذي تَبنى حتى هو القضية وغرقتُ أنا في عجبي بين ضفافها، كلاجئ يمارسُ حق العودةِ إلى أرضه بعد طول غياب. بدأتُ من الأعالي تارة، حيث أعناقنا غنّت لرضاب الحب المعتق في شفاهنا، ومن سيقان الحياة تارة أخرى حيث غابت الشمس بكسل تاركةً خيوطها

خنادقاً ووشماً في وجه الحب ومياهه اللزجة. تلعثمت وأنا أراجعُ درسَ مطارحة الغرام على تفاصيلها وأغرقُ في خاصرتها حدّ الفناء وفي يديَّ حَمَامُ صدرها أحرسهما كي لا يحلقان بعيداً دوني. ثم أطلُّ برأسي من على صفحة الماء كالباحث عن أنفاسه وسط هواء الآخرين ويجذبني الحب إلى الأسفل من جديد، جيئةً وذهاباً، إقبالاً وإدباراً ... ألهثُ من أجل البقاء، أنسى تنفسي السريع وراء الموتِ غرقاً ونرتعشُ معاً على نغماتٍ قديمة في الزمن، قدم آدم في سفوحِ حواء... ونصرخ معاً لا طلباً للنجاة، بل للغرقِ معاً، فما أجمل أن نغرق معا... إلى الأبد.

في الصباح، تلمستُ مكانها بجانبي على السرير فلم أجدها، صحتُ مناديا عليها بكل الأسماء التي سميتها إياها: مها، ماهي... لكنها ما ردّت عليَّ. نهضتُ مستغربا من السرير بحثا عنها، لتفاجئني رسالة كتبتها بأحمر الشفاه على مرآة الدولاب: "لقد ولدتُ من جديد بين أحضانك، سأعود إليك، نعم سأعود إليك ... عساكَ تكونُ لي يوماً. أحبك"

19

الدار البيضاء-20 تشرين الأول/أكتوبر 2015

كنتُ جالسة أمام المرآة عارية، أرقبكَ واقفا ورائي تنظر إليّ بعينيك السوداوين. قلتُ لك وأنا أتحسس خيالك على وجه المرآة اشتقتك يا طارق، لكنك لم تجبني... غرقتُ في حضنك وأنا أتخيلك تضمني بشوق وتترك يديك تتحسس ظهري ثم تداعبان نهديَّ...

شعرتُ بيدين باردتين تلمس كتفيَّ، ما عهدتُ يديك باردتين يا طارق !! فتحتُ عينيَّ فقفزتُ من مكاني وقد تملكني الهلع. لقد كان جلال.

- صار الهلع يتملككِ عند رؤيتي؟

قال لي متفاجأ من ردة فعلي قبل أن يخفض رأسه للثم عنقي. أجبته مرتبكةً:

- فاجأتني بدخولك بلا حس ولا حركة...

لم يُجبني. ترك فمه يعبث لاهثاً بأسفل عنقي ويضغط بيديه على صدري ويوغل بهما بين ساقيَّ. وقفتُ مبتعدة عنه قائلةً:

- من فضلك يا جلال، لا مزاج لي لهذا.

قال بنرفزة وهو يلتصق بصدري بقوة رافضاً تركي:

- لن أدعكِ، أنا أشتهيكِ هذه الليلة...

دفعني على السرير ثم أخذ ينزع ثيابه ويمرغ جسده بجسدي، لم أستطع مقاومته كان هائجاً عنيفاً، بدأت الدموع تنهمر على خدي وأنا أرى جسدي قد أصبح مستباحا من رجل آخر غيرك، يغتصبني كجارية لديه، أصابني الهلع وأنا أتخيل

بطني ينتفخ، وأحملُ جنيناً لرجلٍ غيرك... فصرخت كالمجنونة ورميت بجسد جلال كالجيفة من على السرير. غرقتُ بعدها في موجة بكاءٍ هيستيري.

ظلّ جلال جالسا بجانب السرير متفاجأ من ردة فعلي، دون أن ينبس بكلمة. مرّت علينا دقائق طويلة من الصمت قبل أن أسمعه يقول وهو يلبس ثيابه:

- أتظنينَ أنني لا أعلمُ ما تخبئينَ طيلة سنتين من زواجنا، سنتين بأكملهما وأنتِ غريبة الأطوار، سارحة، هائمة على نفسك، سنتان وأنتِ تخونينَ زوجك...

قاطعتهُ مستغربة:

- أخونك؟!

صرخ في وجهي قائلاً:

- نعم، تخونينني. ماذا تسمينَ كل تلك الاعترافات في دفتر يومياتك، عن حبك لذاك المُسمى طارق؟ أليست هذه خيانة؟ ماذا عن صوتكِ وأنتِ نائمة تصيحينَ باسمه "طارق" "طارق"؟ وأنتِ سارحة في ذكرياتكِ القديمة معه؟ حتى عندما كنا نمارس الحب على الفراش كنتُ أكاد أسمع همسَ اسمه على شفتيكِ وكأنكِ تناديهِ هو ليملأ جسدك لذة ونشوة...

توقف لبرهة وكأنه يلملمُ عبارات خانته هي الأخرى على لسانه ... طأطأ رأسه ثم أردفَ قائلاً بصوتٍ مرتفعٍ أكثر:

- ماذا عن سفركِ المتكرر للرباط؟ ستقولينَ لي ليس لزيارة طارقكِ هذا؟ ... كم أنتِ ساقطة.

تمالكتُ نفسي وأنا أتلقى هذا السيل من الشتائم والتجريح، ربما لأن نصف كلامه صحيح وربما أيضا لأنني أصبحتُ قريبة من الخلاص. نعم في هذه اللحظة انتابني شعورٌ قوي ملِّح بالخلاص. استجمعت كلماتي ورميته بحجارة الخلاص.

- طلِّقني يا جلال

ردَّ عليَّ مستهتراً:

- أو تظنينَ أنني سأبقى معكِ بعد خيانتك؟ أو ليست لي كرامة؟

وقفَ بزهو بالغ وكأنه يتشفَّى من انكساري. قرَّب وجههُ منِّي وهو يرتدي قميصه قائلاً:

- مصيرُ كل خائنةٍ الذبح، لكنني رجلٌ متحضِّر لن ألطخَ نفسي بعفنِ خيانتك، سأكتفي بتطليقك.

تجاوزني مغادراً إلى باب الغرفة، خطا خطوتين ثم صاحَ دون أن يلتفتَ لي:

- "ليال" ستبقى معي ولن ترينها أبداً.

استدركتُ حالة ضعفي وانكساري وصحتُ حينها بشراسة:

- ليال ليست ابنتك.

استدار بعنف، دفعه الغضب نحوي كثور هائج، أمسكَ ذراعي بقوة لكنني لم أكترث لغضبه وبقيتُ هادئة.

- ماذا قلتِ؟

- كما سمعتَ، ليال ابنةُ طارق، تزوجتني وأنا حبلى بها، إن لم تُصدِّق اجرِ التحليلات اللازمة ألستَ طبيباً؟

نزلت عليه كلماتي باردة وقاسية أفشلت لسانه عن الكلام، ظلَّ يحدق بي مندهشاً ومستغربا. هل استغرب من هول الصدمة أم من برودي وأنا أخبره أن ليال ليست ابنته لا أعرف؟

فجأة اندفع فمه منفجرا بكلمات نابية بالكاد سمعتُها. انهال عليَّ ضرباً ولكماً على وجهي وصدري، لم تُشفِ غليله لكماته فبدأ برفسي بقدميه. لم أصرخ لم أنبس بكلمة كنتُ كالمذبوحةِ بكبرياء في يديه. أنتظر فقط الخلاص منه كيفما كان الثمن، أن أتخلص منه وأعود إليك. نعم، أعود إليك فأنا لم أكن لغيرك ولن أكون لغيرك.

بعد خروجه التقطتُ هاتفي بأناملي المخضبة بالدماء وكتبتُ لك رسالة من لغة الوجع "تباً لك، تباً للوطن، تباً لأحلامنا المتكسرة... أحبك فقط وتباً لكل شيء"

20

الرباط-5 تشرين الثاني/نونبر 2015

عند اقترابي من مطعم لوكراند كومبتوار لمحتُ سعيد من الواجهة متكئاً على الكومبتوار وشاردا كأنه يفكُّ طلاسم قضية ما. ما إن لمحني داخلا قاصدا إياه، حتى صاح بصوت متثاقل:

- تأخرتَ يا طارق.

سلّمتُ عليه قبل أن أستفسرهُ:

- ماذا هناك يا سعيد؟ أفزعتني على الهاتف. لماذا طلبتَ حضوري على عجل؟

غرقَ في صمتٍ طويل قبل أن يُجيبني بيأس:

- أردتُ أن أسلّم عليكَ قبل أن أرحل يا صديقي...

قاطعتهُ منفعلا من شدة تفاجئي:

- ترحل أنتَ أيضاً؟ هل حلَّ موسمُ الرحيل دون أن أدري؟ يا إلهي، ترحل إلى أين؟

- سأرجع إلى ألمانيا، لم يعد لي مكانٌ في هذا الوطن.

- نحنُ جميعاً لا مكانَ لنا في هذا الوطن، لكن الرحيل ليس هو الحل يا سعيد.

- بلى، الرحيل هو الحل. أنا أختنق هنا كما تعرف، وأنت كذلك. أُنظر إلى نفسك كيف تذبل كل يومٍ هنا. هذه البلاد طغا فيها الاستبداد وغدت لا

تحترم إنسانيتنا ولا حريتنا في الحياة. لقد أخذتُ قراري، سأمضي بقية عمري هناك، في ألمانيا.

شعرتُ بأمواج الحزن تقترب لتلطمَ شاطئي الذي كان هادئا قبل أن يعكّره قرار سعيد بالرحيل. تساءلتُ في قرارة نفسي وأنا أتنفس دخان سيجارتي اليتيمة بين أناملي، لماذا كل من حولي يقررون الرحيل وأبقى أنا وحيداً أشربُ من خوابي الأطلال وحنين الذكريات؟ هل هناك لعنةٌ ما تُفرق بيني وبينَ كل من رافقتُ في حياتي؟

قلتُ له محاولا بثَّ الأمل فيه:

- اسمعَ يا سعيد، لازال بإمكانك أن تحقق آمالك هنا، فشلُ قصتك مع أسماء ليس نهاية العالم، ستعيشُ قصةَ حبٍ جديدة وستبني هنا عشاً وتحقق مشاريعك، لا تفقد الأمل يا صديقي...

قاطعني مبتسماً بسخرية وهو يجفف شفتيه من آخر رشفة قهوة من فنجانه:

- وهل تملك أنتَ الأمل يا طارق؟

أسكتني سؤاله، خنق كل الكلمات على شفتي وجعلني أَنْكَأُ جرحي القديم الجديد مع الأمل. أينكَ يا درويش لترى صدقَ قصيدتكَ فيَّ، فقد غدوتُ العاطل عن العمل أربي الأمل.

تداركتُ سؤاله قائلاً:

- على الأقل أجّل رحيلك لبضعة أيام.

ردَّ عليّ متأسفاً:

- لقد فات الأوان، لقد حجزتُ لي في طائرة السابعة مساءً.

صمتنا للحظات، ثم أردفَ قائلا بعد أن خطف نظرة على ساعته:

- عليَّ الذهاب الآن يا طارق، سأشتاق لك...

فتح لي ذراعيه، ثم عانقني بقوة قبل أن يقول:

- تباً لك، إن توديعك لصعبٌ عليَّ يا رفيق.

اكتفيتُ بالابتسام في وجهه وأنا أداري الحزن الذي تملكني برحيله. خطا مسرعاً نحو الباب ليتبعه صوتي منادياً إياه باسمه. التفتَ إليَّ منتظرا ما سأقوله له. ابتسمتُ، ورفعت شارة النصر قائلاً:

- الماركسية لم تسقط يا رفيقي...

ردَّ عليَّ بملامح حزينة:

- نعم يا رفيق، والقومية العربية لم تسقط أيضاً، نحنُ من سقطنا... نحنُ من سقطنا.

ذهب سعيد وتركني وحيدا، أشربُ سجائري على مهل في محراب الفراغ والعدم. تماماً كالمسافر وحيدا عبر الزمن، ينتظرُ نهاية التاريخ، ينتظرُ ما وراء التاريخ ليعرف آخر الحكاية ونهاية القدر، إن كان للقدر نهاية !! تُرى، هل يملكُ هذا العالم نهاية؟ أم أنه سيواصل دورانه الأزلي إلى الأبد عكسَ ما قاله كل الأنبياء والأديان؟ لقد شِختَ أيها العالم وأصبح وجهكَ قبيحاً تحفرهُ التجاعيد ومآسي التاريخ، أما آن لكَ أن تنتهي من دورانك العبثي وتدفنَ كل حكاياتك السخيفة؟

نظرتُ إلى مقعد سعيد وجدتهُ يبكي غيابه هو أيضا ثم تطلعتُ إلى مكان مها فبدا شاحباً من دونها هي كذلك. ابتسمتُ وأنا أتخيلُ نفسي سائحاً يتجول وسط أطلاله، يقلّبُ صوره على أسواره البالية ويستمع كأي عجوز إلى موسيقاه القديمة التي تسافر به إلى تفاصيل الماضي الذي لا يعود. في ذاك الحين سقط نجيب في فكري، تذكرتُ أن غيابه أقسى غياب أعيشه بعد رحيل ليلى، ثم تذكرتُ ما طلبهُ

مني في آخر اتصال لي به، أراد أن يسمع صوت نرجس، حبيبة عمره. لا أفهم لماذا الرجل يتذكر حبيبته الأولى عندما يكون على أبواب الموت؟

ترددتُ كثيراً وأنا أبحث عن رقم نرجس في هاتفي لأكلمها، أي ورطةٍ تضعني فيها يا نجيب. تباً للحب.

- ألو ...
- صوتكِ لم يتغير رغم كل هذه السنين، لازال قويا كعادته.
- من معي من فضلك؟
- طارق، طارق ولد الخيل. أتمنى ألا أكون قد أزعجتك هذا المساء.

أجابتني بارتباك بادٍ على صوتها:

- طارق !!، أهلا وسهلاً. سعيدة بسماع صوتك، كيف حالك؟
- تمام، بخير، بين مدِّ الحياة وجزرها.
- عليَّ أن أعتذر منك، لأنني لم أبارك لك عودتك سالماً من فلسطين. أعلم أن سنوات مرّت على عودتك لكن بحق أنا متأسفة.
- وهل تظنين أن عودتي سالماً من فلسطين أمرٌ نفرحُ له؟ نحنُ لا نذهب إلى فلسطين بأمل العودة منها سالمين. ثم، لا أحدَ يعود سالماً من فلسطين، كل من يذهب هناك لابد أن يَترك شيئاً، حياته، قلبه، أعضاء من جسده أو أحلامه.
- معك حق، أنتَ تعلم أن أحد أكبر أحلامي عندما كنتُ بالجامعة هو أن ألتحق برفاقنا في فلسطين، أقاتل هناك من أجل تلك الأفكار التي آمنا بها...

صحتُ ضاحكاً بصوتٍ خفيف، متعمداً أن أوصل لها ضحكتي المترنحة بين السخرية والألم، ثم أردفتُ قائلاً:

- كل رفاقنا أيام الجامعة كان لديهم نفس الحلم، الكل كان ينتظر أن يستبدل الكتب والدروس بالبندقية والرصاص ليدافع عن العروبة وعن فلسطين والوطن... لكن في آخر المطاف الكل انصرف إلى حياته الخاصة ومشاريعه الشخصية الصغيرة...

أجابتني مقاطعة:

- إلاَّ أنتَ ونجيب، بقيتما على العهد وتسابقتما إلى فلسطين دفاعاً عن الوطن الذي تؤمنان به، تركتما كل شيء، حتى حبكما.

قالت الجملة الأخيرة بنبرة تعيسة تركت مرارة صوتها على خط الهاتف... أجبتها:

- لا أحد يترك الحب ويهرب إلى الحرب يا نرجس...

- نجيب فعلَ ذلك. ترك حبنا وغادر إلى فلسطين، كان يقول لي لا يمكن أن أرى الصهاينة يقتلون إخوتي ويحتلون أرضي بفلسطين وأجلس أنا هنا أستمتع بالحب بين أحضانك وأخطط لإنجاب الأطفال وامتلاك شقةٍ بالتقسيط...

تنهدتُ عساي أنفض عني ألم هذه الكلمات وقلتُ:

- نجيب لم يضحّ بحبكما من أجل فلسطين، لقد عاد من أجلك، ووجدك قد تزوجتِ وأنجبتِ طفلاً... أنتِ من يُلام يا نرجس ليس نجيب...

أجابتني بعدائية:

- أهي عنصرية جنسية هذه؟ تقفُ إلى جانب نجيب لأنه رجلٌ مثلك وتلومني لأني امرأة؟

- أبداً، هذه هي حقيقة علاقتكما...

أجابتني مستمرةٌ في عدائيتها:

- الحقيقة يا طارق هي أن المرأة لا تستطيع انتظار حبٍ واهم إلى الأبد، لن تقبل أن تبقى معلَّقة على مشجب الانتظار حتى يلبسها رجل ما باسم حبٍ قد يأتي وقد لا يأتي. المرأة كأي تربة زراعية في انتظار أوهام المطر، تجف، تتشقق وتموت ...

خيمتْ على خط الهاتف سحابة صمتٍ كئيبة، لم يقطعها سوى صوتُ نرجس بعد ثوانٍ قائلةً:

- على أي، لم تقل لي ما سبب اتصالك؟

أجبتها بصوتٍ خافتٍ يميلُ إلى الاعتذار:

- متأسف إن كنتُ قد أزعجتكِ في هذا المساء يا نرجس، خصوصا إن كنتُ قد أحرجتكِ في تواجد زوجك...

تنهدت بصوتٍ عالٍ أرسلت معه صوت ريح قوي على خط الهاتف قائلةً:

- أعذرني يا طارق، أنتَ تعرف أنني عصبية... لا تشغل بالك أنا لوحدي في المنزل.

- لن أطيلَ عليكِ يا نرجس، اتصلتُ بك كي أقول لكِ إن نجيب يُريد سماع صوتك ...

قاطعتني قائلةً:

- طارق، أي جنون هذا؟ لقد انتهت قصتي مع نجيب، أنا الآن امرأة متزوجة ولديَّ طفل...

- أعرفُ يا نرجس، نجيب لا يطمح في العودة إليكِ. كل ما في الأمر أنه يمر بأوقات صعبة هذه الأيام، يعيش معلَّقاً بين الموت والحياة ويطلبُ آخر شيء منكِ، أن يسمع صوتكِ ليس أكثر.

أجابتني باستسلام:

- أينَ هو؟ في فلسطين مرةً أخرى؟

- هو الآن في تونس، ولكن من أجل فلسطين، أنتِ تعلمين.

- لا أعرفُ إن كانت فلسطين قدَركم أم لعنتكم !!

صمتت ثوانٍ ثم قالت:

- ماذا تخفي عني يا طارق؟

- لا أخفي عنكِ شيئاً... نجيب هربَ من المغرب إلى تونس لأن الموساد والمخابرات المغربية تلاحقانه، ومن تونس سيذهب إلى فلسطين إن استطاع الفرار. اتصل بي قبل يومين وقال لي "ربما تكون هذه هي أيامي الأخيرة، لكنني لا أريد أن أغادر دون أن أسمع صوتَ نرجس من جديد. من فضلك أريد سماع صوتها ... لا أريد من قدرنا المحتال هذا سوى صوتها لحافا لي في لحظاتي الأخيرة "

ظلت صامتة، أسمع فقط أنفاسها على خط الهاتف لثوانٍ طويلة، ثم أجابتني بكلمات يخنقها الدمع:

- سأفكر في الأمر وأجيبك يا طارق، شكراً لاتصالك. عمتَ مساءً.

أقفلتُ الخط وأنا ألعنُ هذا المساء وألعنُ الحب الذي يتواطأ مع القدر كي يعيثَ في أيامنا الفوضى والخراب، ويُحِيلَ التاريخ بين الرجل والمرأة تاريخاً من الحروب والهَجر.

ألا يمكن أن تكونَ هناك منطقة وسطى بين الرجل والمرأة، معزولة السلاح بينهما؟ يمشي كل واحد منهما إلى الآخر دون توجس، دون شك وحتى دون خوفٍ من الوقوع في الحب؟

من هذا المحتال الذي ربط كلمة "الوقوع" ب "الحب" في جملة جدلية متناقضة، مليئة بالسقوط وإرهاصات الجاذبية؟، من هذا الإرهابي الذي زرعَ حرفَ "الراء" وسطَ كلمة الحب ليحولها إلى نقيضها المأساوي "الحرب" هل هناك احتيال ما في الحكاية؟

21

الدار البيضاء – 27 تشرين الثاني/نونبر 2015

كما تتسرب المياه من شقوق الجبال، تسرّبت إليّ مشاعر الشك والريبة في المستقبل هذه الليلة. تلخبطت كل أوراقي على دفتر الحياة عندما اتصل بي بركات فرحاً يطلبُ مني فتح التلفاز والاستماع لخطاب عاجلٍ للملك. لم أفهم مدعاة فرحهِ! شعرتُ بالتوجس وبالخوف فقط وأنا أستمعُ لنهاية الخطاب. بقيتُ متسمرةً أفكرُ فيما قد يحمله الغد لحركة نحن نستحق بعد هذا الخطاب، قبل أن يعود رنين الهاتف ليخطفني من جديد. أجبتُ دون أن أدري من المتصل:

- ألو...
- مساء الخير ليلى، أزعجتك في هذا الوقت؟
- عزيز، لا لا، كيف حالك؟
- بخير وأنتِ؟
- عادي، كما تعلم لا شيء جديد في حياتي سوى انشغالي بالحركة...

قاطعني بصوتٍ مرتبك:

- ليلى، أنا اتصل بك بخصوص الحركة، وهذه المرة كي أحذرك. أنتِ صديقة عزيزة عليّ ولا أريد لكِ المضرة.

أجبته منشغلةً بما قاله:

- خير يا عزيز، أخفتني؟
- استمعتِ لخطاب الملك هذا المساء؟

- ليس كله، ماذا هناك؟

- الملك أسس لجنة وطنية لصياغة قانون أحزاب جديد يلبي تطلعات الشعب ويتماشى مع مطالب حركتكم...

قاطعته بانفعال:

- سمعتُ ذلك، هذا التفاف فقط على مطالبنا وليس استجابةً لها. مطالبنا هي حل الأحزاب الحالية وتأسيس أحزاب جديدة بطريقة شعبية وتحديد الأحزاب في ثلاثة فقط.

- ليلى، أنا لم أتصل لأناقشك في مطالب حركة نحن نستحق، لديَّ معلومات بأن دوائر عليا في السلطة أخذت قراراً بطيّ هذا الموضوع وإعادة صياغة قانون الأحزاب كأقصى تجاوب للدولة مع حركتكم...

- ماذا يعني هذا يا عزيز؟

- يعني أنه بعد خطاب الملك سيمنعون كل تحركاتكم وسيعتقلون نشطاء الحركة. الآن أنتم مجبرون على الموافقة على مبادرة الملك أو ستواجهون الدولة. أنتِ تعلمين جيداً ماذا يعني ذلك يا ليلى.

أجبته بعد لحظة صمتٍ:

- عزيز؟ هل أرسلوك لإخافتنا؟

- ليلى، أقسم لك بأيامنا الجميلة التي قضيناها معاً، أنا خائفٌ عليكم وهذه المعلومات وصلتني للتو. أنتم لم تهونوا عليّ رغم كل شيء. بلغي رفاقك وحذريهم قبل فوات الأوان...

- ما مدى قرارهم؟

- هم ينتظرون موقفكم من الخطاب الملكي، إذا كان سلبياً سيتحركون لاعتقال قادة الحركة وسَجنهم حتى تهدأ الأوضاع وتنتهي المظاهرات في الشارع.

صمتَ بُرهةً ثم عاد ليقول لي:

- ليلى، فكري في ابنتك ليال وفي طارق الذي ينتظرك كي تكوني جنبه. ليلتك سعيدة.

فجأة توقف العالم من حولي وحلّت عليّ لحظات سكون قاتلة. لا أبشع من أن تجدَ نفسكَ تائها، غير قادرٍ على فهم ما يدور حولك، غير قادرٍ على التفكير والتخطيط لغدك. سألتُ نفسي ماذا عليّ فعله الآن؟ أتجاهل كلام عزيز وأترك رفاقي في الحركة لمصيرهم؟ أم أخبرهم؟ ... بقيتُ أفكر لدقائق طويلة قبل أن أسحب هاتفي واتصل بناصر:

- ألو...

- ألو ناصر، مساء الخير

- بل قولي مساء الانتصار يا رفيقتي.

صحتُ مستغربةً:

- انتصار؟ !!

- ألم تسمعي خطاب الملك؟

أجبتهُ بلا اكتراث:

- ستقول لي كبركات أن النظام أظهر ضعفه وبدأ يتراجع...

- نعم، بركات معه حق... هذا هو التحليل السليم، هذه هي فرصتنا للانقضاض ودفع النظام إلى الاستجابة لمطالبنا من خلال الرفع من وثيرة المظاهرات...

تفاجأتُ من حماسته ومن صوته الواثق قبلَ أن أردّ عليه بحذر:

- ناصر اسمع، اللعبة أصبحت خطرة الآن... علينا أن نتريث.

تبدّل صوته كأنه شعر بشيء مريب في كلامي قائلاً:

- ليلى ماذا هناك؟

نظرتُ إلى الساعة في يدي، كانت تشير إلى قرابة التاسعة والنصف ليلاً. فأجبته:

- ناصر هل يمكننا الاجتماع الآن؟ الموضوع طارئ.

سكت برهة ثم قال مستسلماً:

- كما تريدين، أنا لازلت في مكتبي، سأدعو رفاقنا.

- حسنا نلتقي في المكتب.

- الى اللقاء...

وصلت مكتب ناصر متأخرةً بعد معاناة مع المواصلات دامت أكثر من ساعة في وسط المدينة. فتح لي ناصر بنفسه الباب وصاح بنرفزة:

- ليلى أنتِ دائما متأخرة، هذه المرة أنتِ من دعوتنا للاجتماع يا حسرة.

- أنت تعرف أزمة السير في هذه المدينة الغول...

تركته يقفل الباب ورائي واتجهت إلى مكتبه مسرعةً حيث وجدتُ كل الرفاق يتجمعون حول المكتب. عندما ألقيتُ عليهم التحية لمحتُ بركات غارقاً في نقاش حاد وعصبي مع نزهة، خمّنتُ أنها تعارضهُ في موقفه من خطاب الملك.

عندما عاد ناصر الى المكتب خيمت لحظاتُ صمتٍ طويلة، كأن كل واحد منا يتحاشى البداية قبل أن تقطع نزهة صمتنا قائلةً:

- ناصر، طمئني أنك لم تدعونا لتناول وجبة صمت ونمضي.

ردّ عليها ناصر بسرعة:

- اسألي ليلى، هي من طلبت اجتماعنا في هذه الساعة. لقد أخبرتكم بذلك على الهاتف.

التفتت إليّ نزهة قائلةً:

- ليلى، الله يسمعنا خير!

أجبتها مطمئنة:

- خير إن شاء الله. لكن قبل أن أخبركم بما لدي، أود أن أعرف ارتساماكم حول خطاب الملك هذا المساء وما القرار الذي ستخرج به حركتنا. هل سنوافق على مبادرة الملك لإعداد مشروع قانون أحزاب جديد أو سنتشبث بمطلب حل الأحزاب؟

رفعتُ نظري إلى ناصر قائلةً:

- ناصر، أنت أولا من فضلك.

- بالنسبة لي، الوضع لا يحتاج ذكاءً كبيرا لفهمه. فبعد شهرين من المظاهرات التي تتسعُ كل يوم ومع حجم الضغط الكبير في الشارع وفي وسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي يبدو أن النظام بدأ يستشعر خطورة استمرار الوضع على ما هو عليه وأصبح يبادر إلى إيجاد حل للوضع على غرار خطاب الملك هذا المساء. أنا أرى أن هذه بداية النهاية

والنظام سيتنازل أكثر وأكثر حتى يحقق مطالب حركتنا ويتخلى عن دعم الأحزاب الحالية. ليس علينا الآن سوى الصمود حتى النهاية يا رفاق.

التفتُّ لبركات على يساري ثم قلتُ له:

- بركات أنت تشاطر ناصر نفس الموقف كما أعلم، أليس كذلك؟

ردّ عليّ بحماسة:

- تماماً.

- وأنت يا عبد الصمد؟

ردَّ عليّ عبد الصمد متثاقلاً:

- أميلُ لرأي ناصر لكن علينا استشارة التنسيقيات والمكاتب المحلية لاتخاذ موقف رسمي، نحن حركة جماهيرية يا رفاق يجب ألا ننسى هذا.

حدقت في نزهة:

- نزهة ما رأيكِ؟

ترددت طويلاً قبل تنبس بكلمات متقطعة قائلةً:

- علينا أن نرحب بمبادرة الملك، ونعمل في إطارها.

صرخ ناصر وبركات وعبد الصمد في الحين ذاته من شدة الاندهاش:

- ماذا، أجننتِ يا نزهة؟ تريدينا أن نتخلى عن مطالب الحركة ومبادئها...

ردّت عليهم صارخة بدورها:

- إن لم نفعل ذلك سنواجه النظام وسيرمموننا في السجن ورغم ذلك لن نستطيع فعل شيء. من الحكمة أن نُصلح من الداخل على أن نتشبث بمبادئنا الراديكالية دون طائل...

تسمّرتُ أنا الأخرى مندهشة من كلام نزهة، لم أكن أتوقع أن يكون هذا موقفها. بَدَت مختلفة هذا المساء، ملامحها مشدودة ونظراتها تائهة. كان شيء ما يشغلها لم أستطع معرفته.

أردفت بصوتٍ هادئ بعد أن تركتُ لحظات صمتٍ تعمّنا:

- وأنت يا يوسف ما رأيك؟

ردّ عليّ مرتبكاً وبصوتٍ متقطع:

- صراحة لا أعرف، الوضع ضبابي وغير واضح...

حلّت لحظات صمتٍ من جديد علينا بعد جواب يوسف، كان الكل ينظر إليّ منتظرا كلامي، وحدها نزهة كانت سارحة منشغلةً في شيء ما. ترددتُ بدوري كثيراً قبل أن أفاتحهم في الموضوع قائلةً:

- حسنا اسمعوا يا رفاق، أنا تماماً كيوسف ليس لديّ موقف محدد، لكن لدي معلومة مهمة لأشاطرها معكم وفي رأي علينا أن ...

لم يتركني ناصر أكمل كلامي حتى قاطعني بعصبية:

- هيا يا ليلى لا تطيلي علينا من فضلك، قولي ما عندك دفعة واحدة...

استكملتُ كلامي بفارغ الصبر:

- هذه الليلة اتصل بي عزيز وأخبرني أن النظام ينتظر أن نصدر موقفنا من خطاب الملك، إذا لم ننضم لمبادرته ونؤيدها سيتحركون لاعتقالنا وسيواجهون أنشطة الحركة بالقمع وبالقوة.

ضحك ناصراً ساخرا قبل أن يقول:

- لازلت تسمعينَ لترهات ذلك الخائن يا ليلى، لقد أرسلوه ليخيفنا ويؤثر علينا كي نؤيد مبادرة الملك وينهون مشروع الحركة، هذا كل ما في الأمر.

- لا يا ناصر، لقد شعرتُ بعزيز صادقا في كلامه هذه المرة، كما أن كلامه منطقي. إن لم نؤيد صياغة قانون أحزاب جديد سنصبح في مواجهة الملك والأحزاب معاً ونحن اتفقنا منذ البداية أن نحيّد الملك من صراعنا مع الأحزاب...

تدخل بركات بنرفزته المعتادة:

- الملك هو الذي اختار أن يقف مع الأحزاب ضدنا الآن، ولن نرحمَ من يقفُ ضد الحركة...

أجبته بنرفزة مماثلة:

- الملك قادر على أن يقتل حركتنا في ساعة واحدة يا أهبل، المواجهة لن تُفيدنا في شيء خصوصاً أننا لا نملكُ القوة لها...

- الشعب معنا، وسنضغط حتى يتحقق المطلب الأساسي للحركة...

- الشعب دائما يمشي وراء الملك طيّعاً مستسلماً، سنجد أنفسنا وحيدين في آخر المطاف...

قاطعنا ناصر رافعا صوته بحدّة:

- اسمعوا يا رفاق، لا يمكننا أن نتراجع عن مبادئنا. المبادئ التي أسسنا بموجبها حركتنا تبقى خط أحمر.

نظرت نزهة إلى ناصر طويلاً ثم قالت له بصوتٍ خافت:

- إن لم نتفق على إصدار بيان يؤيد مبادرة الملك وننضم لها، سيتعذر عليّ أن أواصل معكم مشوار الحركة...

زفر ناصر في وجهها قبل أن يقول مبتسماً بسخريةً:

- أنتِ وليلى مختلفتان كلياً هذا المساء... لا نكاد نفهمكما.

ثم التفت إلى عبد الصمد مسترسلا في سخريته:

- يبدو أن النساء أقل حماسة وشراسة من الرجال في مسيرة النضال يا رفيق...

قاطعته نزهة من جديد غاضبة:

- لا تتفوه بكلام رجعي من فضلك يا ناصر، هذه وجهة نظري وموقفي...

- لن نقبل بمبادرة الملك، ولن يخيفنا أحد، الحركة ستستمر في النضال من أجل تحقيق كل مبادئها التي اتفقنا جميعاً حولها منذ البداية. من يتراجع عن مبادئها فليغادرها... النضال لا يتوقف على شخص أو مجموعة أشخاص في الآخر...

سكتنا جميعاً بعد كلام ناصر ونحن ننظر إلى نزهة تَجمعُ حقيبتها غاضبة ثم تغادر المكتب دون أن تنبس بكلمة واحدة. بدا واضحا أن فريق الحركة بدأ يتشتت.

بعد لحظة صمتٍ أردف ناصر قائلاً بزهو:

- الذي يوافق نزهة في موقفها أو يرى أن على حركة نحن نستحق أن توافق على مبادرة الملك، فليتفضل بالمغادرة، مكانه أكيد ليس معنا.

لم يترك لي ناصر ما أقوله، أربك كل الكلام في لساني. لم أعرف هل أغادرهم أنا الأخرى أو أبقى معهم وأنا غير مقتنعة بمسار الحركة ومتأكدة بأن النتائج ستكون كارثية علينا جميعاً.

في الوقت الذي كان فيه ناصر وعبد الصمد وبركات ينظرون إليّ وكأنهم ينتظرون حسم موقفي، صاح يوسف بخجل:

- آسف يا رفاق، سأغادر أنا الآخر... ليست لدينا الإمكانيات لمواجهة الملك ولستُ مقتنعا بنجاح مشروع الحركة بعد هذه الليلة...

لم يمهله ناصر لينهي كلامه حتى قاطعه:

- مع السلامة يا يوسف.

أخفض يوسف رأسه متأسفا لما يجري. ثم وقف مغادرا. بعد أن أقفل يوسف الباب وراءه التفتُّ لناصر قائلةً:

- ناصر، في مثل هذه الظروف الصعبة علينا أن نسمع لبعضنا البعض ونناقش جميع وجهات النظر ونتخذ القرار الأقل ضراراً لا أن ننقسم ونشتت جهودنا هكذا...

- القرار الأقل ضررا هو أن نتشبث بمبادئنا لا أن نبيع الحركة للنظام ونخدع الجماهير التي آمنت بمشروعنا. اسمعي يا ليلى لن أطيل النقاش معكِ، هذه الليلة سنصدر بيان الحركة الذي سيتماشى مع المبادئ التأسيسية لها وسنرفض مبادرة الملك ونحن مستعدون للتصعيد مع أي كان. عبد الصمد وبركات يُشاطراني نفس الموقف، وبإمكاننا استكمال مهام قيادة الحركة بكل سهولة، ماذا عنكِ الآن؟ احسمي موقفك.

تبادلنا نظرات طويلة في الوقت الذي شعرتُ بصوتٍ في داخلي يقول لي لا تغادري رفاقك، هذه الحركة هي أمل كل الشعب المغربي، هي أمل كل من يغنون للحرية، للحب، للوطن وللحياة. لكن صوت كلمات عزيز التي قالها لي في الهاتف كان أقوى، معهُ حق، فليال وطارق عندي أغلى من كل شيء وهما في انتظاري لأجمعهما وأعود لهما معاً. وقفتُ بكل ثبات قائلة: "أتمنى لكم التوفيق يا رفاق" وحملت حقيبتي وغادرت.

22

الرباط – 28 تشرين الثاني/نونبر 2015

أدرتُ المفتاح في القفل، دورتان على اليمين فانفتح باب شقتي... خطوتُ خطوتين في الظلام وأنا أتحسّسُ مكان مفتاح الضوء. ضغطتُ عليه فصاحَ الضوء راقصاً بلونه الأبيض في أرجاء الشقة... تسرَّبت إليَّ نشوة غامضة، ربما لأن الظلام بدأ يخيفني على غير عادتي وربما أيضاً لأنها ترافقني هذا المساء.

ها قد نجحتُ أخيراً في ربط قلبيهما ولو باتصال هاتفي ينقلُ همساتهما، وما الحب في الأخير سوى قصص أبطالها نظرة وهمسة وقُبلة.

التفتُّ إلى الباب المفتوح وصحتُ:

- تفضلي، أكيد لن تبقي عند الباب.

دخلت نرجس بخطوات متثاقلة وكأنها تحترسُ من مفاجأة ما، تجولت بعينيها في أرجاء المكان. بدا عليها الاستغراب عندما لم تجد أي قطع أثاث أخرى غير تلك الأريكة المتسمرة كاليتيمة في وسط الشقة.

فاجأتني قائلةً:

- شقتك هادئة، لكنها حزينة، ألديك مشكلة مع قطع الأثاث؟

أجبتها وأنا أتوجه إلى غرفة النوم:

- كثرة الأثاث توحي بالاستقرار والانتماء... وأنا لا أريد أن أقتل فيَّ طارق المشرد واللامستقر ...

سمعتها تُجيبني وأنا منشغل في نزع سترتي ووضعها في الدولاب:

- ربما من الأفضل لك أن تقتل حالة اللاستقرار والضياع التي تعيشها.

لم أجبها، اكتفيتُ فقط باختلاس النظر إليها وهي تنشغل في النظر إلى اللوحات التشكيلية المعلَّقة على الجدران ...

توجهتُ إلى المطبخ، حيث وضعتُ القهوة فوق النار وأخرجت عصير الليمون الذي أضعه دائما في الثلاجة كي ينقذني في مناسبات كهذه عندما يزورني ضيوف على غفلة.

لحظات قليلة ثم عدتُ إليها مُحملا بكؤوس العصير وفناجين القهوة ... كانت لا تزال منشغلة باللوحات.

حاولتُ أن أقطع انشغالها قائلاً:

- عصير ليمون أو فنجان قهوة؟

بدا أنها لم تسمع ما قلت أو أنها منشغلة بالتفكير في شيء ما. كانت تائهة بالأصح، ناديتها من جديد:

- نرجس !!

أمسكتْ خصلة شعرها بأناملها الرقيقة وأعادت حزمها برباطٍ أحمر جميل ظل ملتصقاً بشعرها بشكل فوضوي منذ لقائنا، ذكرتني هذه الحركة بليلى ...

ليلى دائما تداعبُ خصلة شعرها بين الحين والآخر، تُعيد ربطها حتى وإن كانت في غير حاجة لذلك، ربما فقط لتنثر عطر شعرها في الهواء. هي تعرفُ أن رائحة شعرها تغريني وتبني لي طرقاً حمراء إلى الهاوية. هاوية الغرام.

- أختار كأس العصير ...

أجابتني نرجس وهي تُدير نصف وجهها نحوي... سَمعتْ سؤالي إذن! لكنها ظلت منشغلة، توزّع نظراتها على كل لوحة وكأنها تحفظ تفاصيل ألوانها وخطوطها. ما الذي أثارها في هذه اللوحات يا ترى...؟

حملتُ إليها كأس العصير ووقفتُ بجانبها متأملا اللوحة التي لم تُغادر أعينها منذ مجيئنا.

لم أسألها، كنتُ أنتظر أن تبادلني الحديث... بعد لحظات صمت قالت لي بصوتٍ يميلُ للهمس:

- هذه اللوحة أشعرتني بقلق غريب.

أجبتها مبتسماً:

- القلق هو ذاته السبب الذي جعل "ادفارد مونش" يرسمها. هي فعلا تُشعر كل من يقفُ أمامها بحالة من القلق والخوف والشعور الشديد بالوحدة، توغلُ بنا في عالم من الصراخ وسؤال الذات، لذلك سُميتْ بلوحة "الصرخة".

بدا على نرجس اهتمام كبير بلوحة الصرخة فبدأت تسألني عن حياة صاحبها ومعانيها. حاولت أن أتهرب من موضوع اللوحة كونه موضوعاً حزيناً ويثير في داخلي ذكريات قديمة ولكنها أصرت أنها لن تشرب العصير إلا وأنا أحكي لها كل شيء عن هذه اللوحة.

خطفنا الحديث من الزمن حتى وصلت الساعة الى السادسة مساءً. كان نجيب قد طلب مني الاتصال به في هذه الساعة ومعي نرجس. نظرتُ إليها وسط لحظة صمت حلّت علينا قبل أن أقول لها:

- إنها السادسة تماماً... سأتصل بنجيب، مستعدة؟

أومأت لي برأسها بالإيجاب. لمحتها وأنا أركِّبُ رقم هاتف منزل نجيب بتونس وهي تعد شعرها وتُصلحُ جلستها وكأن نجيب سيحلُّ بيننا بعد دقائق. تباً للحب، لا عقلَ له.

ظلَّ الهاتف يرن وأنا منشغلٌ بملامح نرجس التي امتزجت عليها تعابير الحب والارتباك، فجأة قطعني صوتُ امرأة على الطرف الآخر من الخط:

- ألو ...

هذا صوتُ وداد، صديقة نجيب. لكن ما به صوتها حزين هكذا.

- وداد أليس كذلك، مساؤك ورد، أنا طارق...

لم تمهلني لأكمل كلامي حتى صاحت بنبرةٍ خافتة:

- ع السلامة طارق، أهلاً

لم تُفارق نبرة الحزن صوتَ وداد، كانت تتحدث بثقلٍ وتشتت كبيرين. حزن أخافني ودفعني لسؤالها:

- ما بكِ وداد، تشكين من شيء؟

قبل أن أنهي عبارتي انفجرت باكية والكلمات تقفز منتحرة بلا منطق على لسانها...

- لقد مات يا طارق، قتلوهم، الرصاص الغادر قتلهم...

- ماذا؟ من الذي قُتل يا وداد؟

صرختُ دون شعور وأنا أترقب سقوط الخبر الكارثة على مسامعي. كانت نرجس تجلسُ في ذهول، لا تدري مثلي من الذي قتل؟ وكيف قتل؟ كانت يداي ترتعشان وقلبي يدقُّ بعنف وكأنه يريد التحرر من قفصي الصدري.

يا قدر، لا تؤلمني، لا تُفجعني، لا تأخذ مني أولئك الذين يخففون عليَّ علقم الحياة ومرارتها، لا تأخذ مني رفاقي الذين أبني معهم آخر أمالي في الحياة، لكن القدر لم يسمعني فنزل الخبر الفاجعة على مسامعي بكل سادية: استشهدَ نجيب، وليس وحده، القدر كريمٌ في المآسي، نجيب وخليل وفيصل كلهم استشهدوا. فجأة صرتُ يتيما من أغلى الرفاق ومن أجمل المشاريع في الحياة. لستُ وحدي اليتيم، نرجس هي الأخرى أصبحت يتيمة حبيبها وفلسطين كلها أصبحت ثكلى مناضليها.

ما كادت تمر دقائق قليلة على حلول غيوم الحزن ومغادرة نرجس باكية تجمع أشلاء قصص الحب مع القدر حتى سمعتُ قرعاً متسارعاً على الباب وأصوات ضجة وخُطا كثيرة. نهضتُ دونما اكتراث لألبس سترتي، مشطتُ شعري، بعدها لاحظتُ أن الشيب أصبح يغزو الجانب الأيسر من رأسي أكثر. على المرآة تخيلتُ نجيب يقفُ بمحاذاتي مبتسماً، تبادلنا النظرات... قلتُ له "لمَ تركتني وحيداً يا رفيقي؟" انضاف لطيفِ نجيب طيفُ فيصل وخليل وليلى وسلوان ومها وسعيد... كل أولئك الذين غادروا حياتي أو أنهوا تواجدهم فيها. يا إلهي، غدت حياتي فارغة من كل الناس الذين أعرفهم... سأصيرُ في الآخر مجهولا. ماذا تكون حياتنا سوى كل هؤلاء الذين تواجدوا فيها ونثروا عليها عطرهم كتوابل تنضاف إلى الأطباق لبث الحياة فيها.

قطعني عن هذا المشهد التخيلي صوت القرع الذي بدأ يعلو صوته على الباب... فاتجهتُ متثاقل الخطوات لفتحهِ، أطفأتُ نور الشقة وفتحتُ الباب لتنهال عليَّ الأيدي شداً وجراً.

- طارق ولد الخيل، أنتَ موقوف، هناك مذكرة من الضابطة القضائية ضدك.

هكذا صاح ضابط يبدو أنه أعلى رتبة من عشرات عناصر الشرطة التي تجوقت عند باب شقتي وفي درج العمارة.

توقف نظري عند ضخامة أجسادهم الممتلئة، كان نصفهم لا يرتدي زي الشرطة، تعرفهم فقط من الهواتف اللاسلكية التي تقبض عليها أياديهم الخشنة. رفعتُ نظري لأجد سي عمر وزوجته فاطمة يسرقان النظر من باب شقتهما الموارب وقد علت وجوههم ملامح التساؤل والحزن والأسى.

التفتُّ إلى الضابط قائلا:

- أليس من حقي أن أعرف السبب؟

أجابني بعنف:

- هناك سيخبرك المسؤولون.

أضفت إليه مستعذبا استفزازه:

- وأنت لست بمسؤول؟

لم أكد أنهي جوابي الساخر حتى دفعني رجال الشرطة إلى النزول على درج العمارة ماسكين بذراعي الأيمن، أحسستُ بألم بالغ في كتفي المصاب حد الصراخ، لكنني منعتُ نفسي أن أبدو ضعيفا أمام هؤلاء.

عند باب العمارة وجدتُ عناصر أخرى من الشرطة تتجمهر حول سياراتهم التي انطلقت منها أضواء حمراء وخضراء جميلة، حوّلت الشارع إلى مرقص بملهى ليلي لا ينقصه سوى أصوات الأغاني وبائعات الهوى.

دفعني رجال الشرطة إلى سيارة كبيرة من نوع بوجو بوكسر تلبس اللون الأبيض كمحتالة تعلنُ عليك السلام بألوانها وهي تبتلعُ في جوفها أبناء الوطن الذين سَبَحوا ضد تيار النظام الحاكم، مزهوة بالعبارة التي كُتبت على ظهرها "الأمن الوطني".

أي عبث هذا؟! متى كان الأمنُ وطنياً؟، متى كان رجال الأمن والشرطة والجيش يخدمون الوطن؟، أي وطنٍ يخدمون أصلاً؟ أليس هؤلاء سوى أداة لحماية الطبقة الحاكمة وحراسة ممتلكاتها؟ تماماً كما يضعُ الأثرياء حراساً على أبواب وجدران فيلاتهم وقصورهم.

ثم إن كان هؤلاء فعلاً حراساً للوطن، لماذا يعتقلوني كل مرة هكذا بسبب الكتب التي آمنتُ بها وبالأفكار التي أدافع عنها؟ أيكره الوطن مناضليه في السياسة والفكر والثقافة في الوقت الذي يُمجد ويكرّم مناضليه في الغناء والرقص وهزِّ الخصور؟

هل تحول الوطن أيضاً إلى منافقٍ كبير وضعَ عقله في نصفه السفلي؟

ما إن تحركت سيارة الشرطة، وأنا جالس على مقعد خشبي تزاحمني عليه بقية أجساد رجال الأمن، حتى ملأت فكري صور نرجس وهي تنتظر قبالتي صوت نجيب بكل أمل وحب، بابتسامة تعلو وجهها وعينيها تلمعان ببريق يضيء ظلام كل من يجلس بمحاذاتها.

هكذا نستقبل جميعاً الحب، نفتحُ له ذراعينا بكل ثقة وسذاجة لنضمه إلى صدورنا عسانا نبني مشاريعاً جديدة في الحياة. لكن الحب يرفض دائماً أن يأتينا هادئاً، كريماً، يرفض أن يفتح لنا ذراعيه هو الآخر ليحتضن صدورنا الخاوية من الحب والطالبة للجوء من قهر التشرد العاطفي وجفاف محاصيل الحب.

الحب قبل أن يأتينا، يجلس إلى طاولة القدر ليتآمر معه على أمننا وسلامة قلوبنا، ليتباحثا معاً عن نوع الأسلحة التي ستدمر حياتنا وتُحيلها أطلالا وساحة خراب.

في غفلةٍ مني فُتح باب سيارة الأمن لينزل عناصر الشرطة بالتتابع. نهرني أحدهم بعصبية قائلاً:

- أنزل أخونا.

نظرتُ إلى عينيه، كانتا حمراوين غاضبتين دونما سبب. أي حياة يعيش هؤلاء؟ ينفذون الأوامر طيلة حياتهم كأصنام تتغذى على الكره والغضب لخدمة أسيادهم وحينما يصلون إلى سن التقاعد يرمونهم كجيف لا تحمل سوى عظامهم بعد أن امتص سيدهم اللحم والدم.

حينما نزلت على درج السيارة اقتادني عنصري شرطة في طرقة طويلة شبه مظلمة. تذكرتُ هذا المكان، إنه الدائرة السابعة لأمن حسان، وذاك المكان الذي نزلنا فيه هو مرآب سيارات الأمن. لديَّ قصص طويلة مع هذا المكان الرومانسي بهراواته وعنف شرطيه اللفظي والجسدي منذ أيام دراستي بالجامعة.

في نهاية الطرقة اصطفت مكاتب كثيرة على اليمين وعلى الشمال. توقفنا أمام المكتب الرابع على اليسار كتب في أعلى بابه "العميد حمو". توقف ثلاثة عناصر عند الباب فيما دخلت أنا وشرطي آخر إلى المكتب. أقفلَ الباب ثم قال لي قبل أن يغادر:

- اجلس هنا. ممنوع أن تتحرك فهمت.

جلستُ على كرسي بجانب المكتب لدقائق طويلة قبل أن يحضر عميد الشرطة. جلس أمامي على المكتب بملامحه المتجهمة ونرفزة مغرضة تقفز من عينيه. لم يبدو لي شكله غريباً، فقد جمعتنا الظروف أكثر من مرة قبل عشرين سنة، عندما كان ضابطاُ صغيراً. ما شاء الله، هو صار ضابطاً كبيراً وأنا صرتُ فاشلاً كبيراً. لا غرابة في ذلك، فكل من يضع نفسه ضد الدولة وضد التيار مصيره الفشل الكبير.

نظر إليَّ ملياً ثم قال:

- أكيد أنتَ تعلم سبب إحضارك عندنا؟

أجبته مستغرباً:

- كيف يمكنني أن أعلم في نظرك؟

- تريد أن تبدأ بداية غير ودية إذن؟

أردف وهو يقف لينتقل إلى المقعد الذي يوجد قبالتي عند مقدمة المكتب:

- يا أخي راعي العِشرة التي كانت بيننا قبل سنوات...

توقف للحظات، أشعل سيجارته ثم أشار لمساعده بحركة من يده فهمتُ أنه قد طلب منه فتح محضر التحقيق.

التفتَ إليَّ وقال بنبرة المحقق الغاضب:

- آخر مرة التقيتَ بها نجيب الصحراوي متى كانت؟

- منذ زمنٍ طويل، عشرين سنة أو أكثر، لا أذكر...

- أنت تكذب.

أجبته غير مكترث:

- أنا أدرى بحياتي وبمن ألتقي فيها على كلٍ.

ردَّ عليَّ بقوة:

- آخر مرة التقيتَ فيها نجيب الصحراوي كانت في بداية شهر أبريل في حفل زواج رفيقتكم حليمة.

- لا أذكر أني التقيته هناك وإن كان قد حضر أصلاً.

- لماذا؟ أين يوجد؟

- سمعتُ أنه غادر المغرب بعد دراسته في الجامعة.

- صحيح ... ذهب إلى فلسطين ليقاتل هناك إلى جانب الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ويتردد على المغرب بين الحين والآخر.

- لا علمَ لي بذلك.

- لا علمَ لك بذهابه إلى فلسطين أم بتردده على المغرب؟

- لا علم لي بالأمرين.

- أكيد ستنكر كما هي عادتك دائماً، لكن تأكد هذه المرة الإنكار لن يفيدك، أصبحنا نعلمُ عنكم كل شيء. نعلمُ أنك ونجيب الصحراوي وفيصل الحرشاوي وناصر الواعد وليلى المرابط وآخرون غادرتم إلى فلسطين بعد دراستكم في الجامعة للالتحاق بالجبهة في فلسطين، بقيتم هناك لفترات متفاوتة، عاد بعضكم دون أن يرجع وبعضكم الآخر يتردد على فلسطين مرة تلو الأخرى... نعلمُ أيضاً أن مخططاتكم ترمي إلى تشكيل جيش قومي عربي يقاتل إسرائيل ويضرب مصالح الغرب في الدول العربية... ما رأيك؟ ألستم مكشوفين لنا؟

شعرتُ باستغراب وذهول من إطلاع الأمن المغربي على كل مخططاتنا ومعلوماتنا السرية. كيف استطاعوا الوصول إلى كل هذه المعلومات؟ أكيد نحنُ مخترقين... فكما استطاعوا تجنيد عزيز ليتجسس علينا أكيد هناك جاسوس آخر لهم يتصيدنا، لا عجب في أن يغتالوا نجيب وفيصل وخليل دفعةً واحدة إذن...

بقيتُ جامداً غير مكترث بما قاله الضابط ليصيح من جديد:

- ألن تُجيب؟

أجبته متهكماً:

- على ماذا سأجيب يا سيادة المحقق؟ على تخيلاتك وقصصك السينمائية؟ ألهذا أنا موقوف الآن؟

- واصل إنكارك، الإنكار لن يزيد وضعك إلا تعقيداً... كم مرة ذهبتَ إلى فلسطين؟

- ولا مرة.

- لدينا صور لك خلال زياراتك المتكررة إلى بيروت والقاهرة...

- ظننتك سألتني عن فلسطين وليس لبنان أو مصر...

- من هناك كنت تدخل إلى فلسطين رفقة مجموعتك.

- على حد علمي من المستحيل دخول فلسطين من الحدود اللبنانية أما إن كنتُ قد دخلتها من الحدود المصرية فأكيد ستجدون تأشيرة حرس الحدود المصري على جواز سفري...

- أكيد تستعملون جوازات سفر مزورة أو تعبرون في الأنفاق الأرضية من سيناء إلى غزة...

- أرني دلائلك إذن، أرني صوري بلبنان والقاهرة كما قلت... لن تجد شيئاً.

- ما الذي يجعلك مطمئناً هكذا؟ أتغير مظهرك وملامحك عند ذهابك إلى فلسطين؟

- مُطمئنٌ نعم، لسبب بسيط هو أن كل ما تقوله عبارة عن ترهات وتهيؤات... لم أكن أعلم أن الأمن والمخابرات على هذا القدر من الارتجالية واللاحرفية.

لاذ بالصمت، بحث عن سيجارة جديدة أشعلها وهو ينظر إلى النافذة الصغيرة التي يدخل منها ضوء خافت ثم قال لي:

- خليل الكاتم، أتعرفه؟

- لا

- فيصل الحرشاوي؟

- نعم، أعرفه...

- كيف تعرَّفتَ عليه؟

- لا أظنكَ نسيتَ ملفي عندكم خلال هذه السنين سيادة الضابط...

ردَّ عليَّ بعنف:

- فقط أجب على الأسئلة.

- كان يدرسُ معي في الجامعة.

- وكان رفيقك أيضاً في فصيل الطلبة القاعديين قبل تأسيسكم لحركة القوميين العرب.

- معلوماتك غير صحيحة، أنا لم أكن قاعدياً في يومٍ من الأيام. يبدو أنك فعلا تنسى ملفاتك مع الزمن.

- ألم تكن ماركسياً؟

- ثقافتك محدودة للأسف، لا يكفي أن تكون ماركسيا لتصبح قاعديا، طلبة النهج الديمقراطي القاعدي هم ماركسيين لينينيين أما أنا فكنتُ متعاطفاً مع الفكر الماركسي فقط دون أن أتخندق في اللينينية أو الماوية أو التروتسكوية.

- أذكر أننا وجدنا رسائل لك في أيام الجامعة تصفُ فيها الحركة التروتسكوية بالتحريفية والشوفينية ألا يُفشي هذا أنك من أتباع الماركسية اللينينية.

- لا أذكر أنني كتبتُ هكذا أشياء.

- قلّي إذن لماذا انشققتم عنهم وأسستم فصيل قومي عربي بالجامعة؟

- قلتُ نحن لم نكن مع القاعديين لننشق عنهم.

توقفتُ لبرهة عن الحديث، كان يواصل النظر إليَّ كي أكمل جوابي عن سؤاله... ارتأيتُ أن أهادنه قليلا الآن قبل أن أعود لاستفزازه.

أردفتُ قائلاً:

- في سنتي الأولى بالجامعة انخرطتُ في خلية سرية كانت معروفة لدى الطلبة اليسارين باسم "البعثيين الجدد" تضم مجموعة من الطلبة ذوي الميولات القومية العربية. كنا نقيم حلقات نقاش وتدارس حول الفكر القومي العربي فقط. في السنة الثانية طُرحت فكرة تأسيس تيار يوحد صفوف كل القوميين العرب وإعادة صياغة الفكر القومي العربي وفق ثوابت جديدة تنهلُ من تلاقي أفكار قسطنطين زريق، ساطع الحصري، ميشال عفلق، منيف الرزاز، زكي الأرسوزي وكل منظري الفكر القومي العربي ولم لا تعميم التجربة على كافة الأقطار العربية.

- ما المبادئ العامة التي رسمتموها لحركتكم آنذاك؟

- هي ذاتها مبادئ الفكر القومي العربي، وحدة الوطن العربي وتحريره من قبضة الاستعمار والتحالف الطبقي العميل له بالإضافة إلى تبني الاشتراكية العربية كنهج اقتصادي... ميزتنا الوحيدة أننا نهدف إلى وحدة كل فصائل الصف القومي العربي ...

- توحيد البعثيين والناصريين في حركة واحدة هذا حلم مثالي.

- وما الحياة أيها العميد سوى حلمٌ وعمل...

- وماذا عن حملِ السلاح؟

تظاهرتُ أنني لم أفهم مبتغاه فقلتُ له: عفواً.

أجابني:

- في حركة القوميين العرب ألم تُفكروا في حمل السلاح للنضال ضد إسرائيل والأنظمة العربية التي تنعتوها بالرجعية والعميلة؟
- ضد إسرائيل نعم، هذا أول نضالٍ يؤمنُ به القومي العربي.
- إذن سبق وأن ذهبتَ إلى فلسطين لقتال إسرائيل؟
- سألتني إن كنا نُفكر في ذلك؟ وليس إن كنتُ قد ذهبت!
- ألم تذهب إلى هناك أنتَ ورفاقك؟
- لا
- لمَ؟
- المسألة كانت صعبة مادياً ولوجستياً
- لكن كانت هناك أطراف خارجية تدعمكم.
- أبداً !!
- لا تنكر، رصدنا في تلك الآونة زيارات متكررة لشخصيات فلسطينية ومصرية عندكم، على رأسهم خليل الكاتم الذي ربطَ حركتكم تنظيمياً بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أجبتهُ مستهتراً:

- لا علمَ لي بهذا.

نظرتُ إليه متذمراً قبل أن أضيف:

- بربك لما أنا هنا؟ لماذا هذا التحقيق العبثي؟

ظل صامتاً للحظات ثم قال لي بصوت خافت:

- صديقك نجيب وجدَ مقتولا برصاصةٍ في رأسه بالأمس في قمارت بضاحية تونس العاصمة، هو وخليل الكاتم وفيصل الحرشاوي.

اصطنعتُ الاندهاش والتأثر قائلاً:

- أكيد هذا الخبر غير صحيح.
- للأسف الخبر صحيح، البركة في راسك...
- من قتلهم؟
- السلطات التونسية تتهم جهاز استخبارات دولة أجنبية...
- وما السبب في التحقيق معي أنا إذن؟ هل أنا هو جهاز استخبارات هذه الدولة الأجنبية؟

أجابني وهو يبتسم بخبث:

- في شقة نجيب في تونس وجد رجال الأمن قطع سلاح وجوازات سفر مزورة ووثائق تُفيدُ أن نجيب ورفاقه كانوا يعدّون لعملٍ عسكري كبير تحت مسمى الجيش القومي العربي بفلسطين ومجموعة من الدول العربية، بطبيعة الحال أنتَ تعرف عما أتكلم بحكم أنك عضو في المجموعة لذلك فأنتَ متهم بالانضمام لعصابة دولية مسلحة والانخراط في أعمال عدائية تمس أمن واستقرار المملكة.
- استقرار المملكة !!

- بهذه التهم سنحاكمك بموجب قانون الإرهاب.

- حسناً بيننا المحكمة.

- لا تغتر هكذا، الأمر ليس بهذه السهولة.

استرسل قائلا بعد أن غير نبرة صوته وكأنه يستجدي مساعدتي:

- اسمع يا طارق، إن ساعدتنا سنساعدك... أنتَ تعلم هذا أمن المملكة والدولة سترُدُ جميل مساعدتك بالعفو عنك وعن ماضيك المتعب...

- ما المطلوب مني؟

- نريد أن نعرف ما كانت تُخطط له مجموعة نجيب، من يدعمها في الداخل والخارج، أسماء أعضائها وممولها وطريقة عملها وتدريبها في فلسطين...

أجبته بنبرةٍ متهكمة:

- خلتُ أنكم تعلمون كل شيء عنهم! ألم تقل لي أن الوثائق التي وجدتموها في شقة نجيب بتونس تفضح كل شيء؟

بدا على وجهه التذمر والانزعاج، لم أكترث له، أضفت قائلاً:

- ثم كيف لي أن أعرف كل هذه الأشياء... أنا لستُ معهم، ولم ألتقِ نجيب وفيصل منذ أيام الجامعة...

وقف وبدأ يصرخ ويضرب على الطاولة بكفيه وهو يصيح:

- ستعترف يعني ستعترف، برغبتك أو مرغما ستعترف...

- ماذا ستفعل لي؟ ستعذبني؟ ستعود لأساليبكم القديمة؟

- متى كان التعذيب وسيلتنا القديمة هو وسيلتنا على الدوام مع من لا يتعاون مع الأمن... القرعة والشيفون والطيارة لازالت تنتظر أمثالك...

- إذن لا تنفع معكم لا إنصاف ولا مصالحة ولا عهد جديد...

انحنى برأسه قليلاً كأنه يود أن يهمس لي ثم قال:

- الإنصاف والمصالحة وصلة اشهارية للاستهلاك لا يُصدقها سوى الأغبياء أمثالك.

قال عبارته وضرب المكتب بقوة حتى دوى صدى الضربة في الغرفة وعاد لصراخه من جديد:

- هنا ستعترف بكل شيء، لن تنام، لن تأكل، لن تشرب، لن تدخن حتى تعترف بكل ما يدور في رأسك وإن لم تعترف بإرادتك سنرميك في أوسخ الزنازين وأقذرها وسنكرمك بكل أساليب التنكيل والإهانة حتى تعترف رغما عنك.

التفتُّ إلى مساعده وجدته ساكنا دون حركة، لا يكتب أي شيء على المحضر، خاطبته محاولا استفزاز العميد المحقق وكأني لا أكترث لكلامه:

- لماذا لا تكتب ما يقوله سيادة العميد أم أن كلامه خارج السياق لا معنى له؟

استشاط غضبا وارتمى على عنقي بكلتا يديه، ضغط عليَّ محاولا خنقي بهستيريا وهو يقول:

- والله يا مك حتى نخرج منك القديم والجديد...

بقيتُ بارداً جامداً في مكاني، غضبه وانفلات أعصابه يدلُّ على فشله في الحصول على أي معلومة تفيده ودليلٌ على أنه لا يملكُ أي خيط أو دليل حقيقي كما يزعم. اعتقالي لن يكون سوى عملا روتينيا ثم سيخلون سبيلي بعدها.

خرج من المكتب مسرعاً، يضربُ بكعبِ حذائه غضباً على الأرض كمن يُنفّس هزيمته. بقيتُ لوحدي دقائقَ قليلة ثم عاد رجلا أمن ليمسكا بي وأخرجاني من المكتب إلى زنزانة في آخر الطرقة التي يوجد بها مكتب العميد. بابها من قضبان حديد تسمح برؤية كل ما يدور في داخلها.

أدخلاني وأقفلا الباب ثم غادرا. كانت زنزانة ضيقة بالكاد تتسع لتمدد شخص بطولي، لا يوجد فيها سوى فراش خفيف فوق قطعٍ من الكرتون... بحثت عن دورة مياه فلم أجد غير صنبورٍ صدئ يعلو حفرة صغيرة في الأرض تصلحُ لكل الاستعمالات.

أسلمتُ جسدي المتعب للأرض، تمددتُ محاولاً إراحة جسدي والتفكير في أحداث الليلة. لم أشعر حتى بدأت أبكي والدموع تنهمر من عينيَّ كنهرٍ جارفٍ، تذكرتُ كل المنعطفات التي مرّت بها حياتي وجعلتني كائنا حزينا تائهاً. مالي أنا ومال الوطن؟ لماذا انتميتُ إلى هذه المبادئ الخاوية، اليسار، العروبة، الاشتراكية، الثورة، الحرية وفلسطين؟ كان خطئي الكبير أنني قرأتُ كتباً رمتني خارج تيار الحياة وبعيداً عن سياق الواقع، بدأتُ باليسار والقومية العربية فانتهيتُ إلى شبه إنسان، لا أنا حي ولا أنا ميت. الشعب منصرف إلى مباهج الحياة واللهو والمرح والجنس، غير مكترث بمآسي الوطن، وأنا أجلس هنا أحتسي كؤوس ألم أربعين سنة.

تملكني غضبٌ يحرق الدم في عروقي فصرختُ كالمجنون بأقصى صوتي: تباً للعروبة، تبا للوطن، تباً لفلسطين، تبا للاشتراكية ولحلم الثورة... تباً للمبادئ، تباً للجميع، تباً للجميع.

بقيتُ أصرخ حتى أنهكني الصراخ وتطلّعتُ إلى نور القمر من خلال النافذة الصغيرة القابعة بأعلى الزنزانة وأنا أكفكف دمعي مستشعراً أملا جديداً يجتاحني.

في الصباح، أخلوا سبيلي بعد تحقيقٍ فارغ، ثم هرعتُ إلى بيتِ أماليا كالمجنون، أستجديها أن نتزوج بسرعة ونغادر هذا الوطن اللعنة... فما عادت تربطني به إلا ذكريات قديمة وسأنساها. سأنسى كل مبادئي وسأخونها... خلاصي هو النسيان والخيانة كي أعيش مثل باقي البشر.

23

الدار البيضاء – 28 تشرين الثاني/نونبر 2015

جلستُ هذا المساء إلى فناجين قهوتي، تائهةً أقلب صفحات الشهور الماضية وتسارع الأحداث التي جعلتني أدور في حلقة مفرغة. لا أنا انتهيتُ من قصتي مع طارق ولا حافظتُ على زواجي من جلال. لا أنا مع الحبيب ولا أنا بدونه، كما قال الرومي. حتى المشروع الوحيد الذي دفع بجرعات الأمل في حياتي ها قد دُمّر هو الآخر. كم كنتُ مغفلة عندما ظننتُ أن حركة نحن نستحق ستنجح وستبني وطنا جديداً لنا جميعاً. لقد أصبحتُ أشك في كون هذه البلاد تستحق فعلا الأفضل. أشك في أن هذا الشعب سينتفض يوماً من أجل الحرية والعدل والحياة الكريمة.

عندما كنتُ أهم بحمل فنجان القهوة إلى المطبخ رنَّ الهاتف الداخلي للعمارة. تساءلتُ مع نفسي قبل أن أحمل السماعة لأرد على المتصل عمن يكون هذا الذي سيأتي عندي في هذا الوقت المتأخر، أتراه جلال عاد ليأخذ شيئا ما؟ أم أنها أمي فاطمة؟ أجبتُ على الهاتف فجاءني صوت بركات لاهثا وسريعاً:

- ليلى، من فضلك افتحي لي الباب بسرعة...
- ما بك بركات؟ اش واقع؟
- افتحي لي أولا...

شعرتُ برعشة في أناملي وأنا أضغط على زر الهاتف كي أفتح له باب العمارة، ثم ذهبت بخطى سريعة لأفتح له باب الشقة. سمعته يصعد وكأنه هارب من شيء ما، ما إن وصل إلى شقتي حتى دخل وأقفل الباب، ثم بقي واقفا وراءه يلتقط أنفاسه المختنقة.

سألته بذعر وأنا لا أعرف ما الذي يجري معه:

- بركات أفزعتني؟ ماذا هناك؟

ردّ عليّ بصوت متقطع:

- رجال الأمن يبحثون عني...

قاطعته مستغربةً:

- لماذا؟

- لقد كانت معلوماتكِ صحيحة. بعد أن اتضح للنظام أن الحركة قررت التصعيد بعد خطاب الملك وصدور بيان الحركة بالأمس، تحركت قوات الأمن هذا الصباح إلى مكتب ناصر واعتقلته ثم اعتقلت عبد الصمد أيضاً.

عاد لالتقاط أنفاسه المتقطعة للحظات ثم اتجه إلى الأريكة المتواجدة بمدخل الصالون ورمى جسده عليها، بدا متعبا والعرق يتصبب من جبينه بغزارة. استجمع أنفاسه ثم أردف قائلا وأنا واقفة بمحاذاته:

- عندما وصلني الخبر أسرعت إلى شقتي كي أجمع حقيبتي وأغادر المدينة، لكنني وجدت الشرطة تحيط بالحي الذي أسكن فيه وتبحث عني... فلم يكن عندي غيرك لأسرع إليه.

جلست بجنبه أفكر فيما قاله، قبل أن أعبر عما أشعره بعد لحظة صمت ثقيلة خيمت علينا:

- هذا هو ما كنتُ أخشاه...

ردّ بانفعال:

- ماذا سنفعل الآن يا ليلى؟

- لا شيء، ناصر وعبد الصمد أذكياء ولهم تجربة طويلة في الاعتقال سيعرفون كيف يتصرفون. الشرطة ستبقيهم عندها حتى تهدأ الأوضاع ويمررون قانون الأحزاب الجديد وبعد ذلك سيطلقون صراحهم.

- لكن لن نبقى مكتوفي الأيدي هكذا !!

- صدقني ليس بيدنا ما نفعله، الأمن لن يوجه لهم أي تهمة، سيبقيهم عنده حتى تهدأ الأوضاع ويمررون مخططهم. علينا أن نفكر فيك أنتَ الآن وكيف نواريكَ عن أعينهم.

- لن أبقى هنا... تبا لهذا الوطن.

التفتُّ إليه متسائلةً:

- كيف لن تبقى هنا؟ إلى أين ستذهب؟

- سأغادر إلى فلسطين...

نظرتُ إليه مستغربة، بدا جاداً في كلامه فأجبته ساخرةً:

- ماذا؟ أجننت؟ تعتقد فلسطين ساحةً للعلب تلجأ لها وتغادر كما تشاء. لا تجعل الغضب يعميك، هذه فترة توتر قصيرة مع النظام وستمر.

ثم أردفتُ وأنا أدفع كتفهُ ممازحةً:

- هذه أول محنة لك مع النظام، استعد ستعيش ما هو أفظع في تجاربك القادمة يا بطل.

لم يُجبني، ظلّ شارداً لدقائق قبل أن يقطع صمتهُ:

- لن أبقى في هذا الوطن المتعفّن، أصبحت لديّ قناعة أن كل المشاريع النضالية ستفشل هنا. هذا الوطن لا يريد مناضلين، لا يريد مثقفين ولا

من يحملون همّ الحرية. هذا الوطن قدره الاستبداد والتخلف وقهر شعبه. من الأجدر لي أن أذهب إلى فلسطين لأناضل هناك من أجل المبادئ الحقيقية التي أؤمنُ بها وأنتهي...

أجبته ساخرة وأنا أرى فيه مشروعاً جديداً لطارق ولد الخيل:

- تقصد لتهرب إلى موتٍ جميل.

ردّ عليّ منفعلاً:

- وإن يكن... من فضلك يا ليلى أنا أعلم أنه لك علاقات بحركات المقاومة في قطاع غزة وتستطيعين إيجاد مكان لي بينهم، ساعديني لألتحق بهم، من فضلك... هذا آخر طلب مني لك...

نظرتُ إليه مطولا قبل أن أسأله:

- كيف علمت أن لديّ علاقة بحركات المقاومة في غزة؟

أجابني بصوتٍ مستسلم:

- في عرس صديقتك حليمة، سمعتُ رفاقك يتكلمون في هذا الموضوع وعلمتُ أن أغلبهم قاتلوا في فلسطين ومنهم أنتِ أيضاً، كما أن نجيب وطارق قد عادا لتوهما من هناك...

- وماذا عن حياتك الخاصة وعائلتك، ستترك كل شيء؟ ماذا عن مشروع هجرتك إلى كندا والاستقرار هناك ستترك كل شيء؟

- صدّقيني، لم يعد لي مشروع في الحياة، لقد تبعثرت كل آمالي... ساعديني فقط في تحقيق حلمي الأخير. أن أذهب إلى فلسطين وأؤدي واجبي هناك كأي عربي يناضل من أجل وطنه وقضيته.

تركتُ الصمت يخيم علينا لدقائق طويلة وأنا أفكر كيف تحول بركات من ذاك الشاب المفعم بالحياة وبالأمل إلى انسان يعيش على حافة أحلامه وآماله. حمّلتُ نفسي مسؤولية هذا الانعطاف المؤلم في حياته، فأنا من عرّفته على رفاقي المُتعبين بأوجاع السياسة والقومية العربية وبآلام الوطن وأنا من دفعه إلى مشروع حركة نحن نستحق فاصطدم بمأساة النضال من أجل وطنٍ لا يبتغي له القدر الحرية والديمقراطية واحترام كرامة الإنسان.

فكرتُ في أن أمنعه عن فكرة الذهاب إلى فلسطين أو على الأقل ألا أساعدهُ فيها لكن شيئاً ما بداخلي كان يقول لي ساعديه، ففلسطين أمل كل القلوب الصادقة التي أتعبها القدر في دروب النضال. قلتُ له بصوت متقطع وحزين:

- قبل أن أتصل بالرفاق في غزة، عليّ أولا أن أدبر لك جواز سفر باسم آخر، لا يمكنك أن تغادر باسمك الحقيقي في ذلك خطر عليك.

صمتتُ لحظة ثم مسكتُ يده قائلةً:

- سألبي طلبك لكن لدي شرط...

نظر إليّ مستفسراً قبل أن أكمل كلامي:

- أريدك أن تُبقي على أمل العودة في بالك، هذا الوطن سيحتاج أمثالك في يوم من الأيام كي ينفض عنه غبار الذل. عدني بأنك ستفعل.

أومأ لي برأسه قائلا:

- أعدك أنني سأعود...

وابتسمنا، لم أعرف سبب ابتسامة بركات حينها، لكنني أعرف أنني ابتسمت عندما تذكرتُ كلام طارق قبل أن يرحل لفلسطين. كان دائماً يعدني بأنه سيعود... حتى وهو وسط الحرب كان يعدني بأنه عائد لي. عشتُ حياتي بأكملها على أمل عودته في كل مرة... لم أكن أعلم أن انتظار العودة لبعضنا البعض سيبقى انتظاراً أبدياً في قصتنا.

24

الرباط – 1 كانون الأول/ديسمبر 2015

فتحتُ عينيَّ بتثاقل هذا الصباح، كانت الغرفة مظلمة ولا صوت يقطع صمتها الثقيل. خلتُ أن أماليا تنامُ بجانبي لكنني تذكرتُ أنها أخبرتني البارحة أنها ستذهب باكراً هذا الصباح إلى معرضها التشكيلي في أكدال.

دفعتُ جسدي بكسلٍ إلى الحمام، أخذتُ حماماً ساخناً وأنا أفكر في هذا اليوم الذي سينضاف إلى حياة اللامعنى التي أعيشها، لكنني تذكرتُ قراري الأخير في أن أنسى كل قضاياي، وكل تلك الانتماءات الخاوية التي أصابتني بنقص ثقةٍ في الحياة وكآبة طيلة الأربعين سنة من عمري.

خرجتُ من الحمّام وقد تسرّبت إليّ حيوية مفاجئة، أزلتُ ستائر الغرفة لتعمّها أمواج من أشعة الشمس ونسيم الصباح. لمحتُ بطرف البصر ورقةً مطويةً بجانب السرير يظهر أن حبراً أسوداً قد ملأ جوفها. خمَّنتُ أنها رسالة من أماليا، فمن غيرها تقاسمني هذه الغرفة منذ ما يقرب السنة الآن.

فتحتُ الرسالة، لأجد خط أماليا يقول لي: "صباح الورد حبيبي، أمي ستحدثك في موضوع يخصنا، أتمنى أن تتعامل معها بلطف وكيفما كان قرارك سأكون دائما معك. افطر جيداً قبل أن تخرج ولا تنسَ أنك وعدتني بالابتعاد عن الشرب. أحبك"

سألتُ نفسي وأنا أطوي الرسالة، عن أي موضوع تريدُ والدة أماليا أن تحدثني فيه، شعرتُ بارتباك وتوجس وأنا أعلم أن خلف الباب تنتظرني والدتها بلا صبر.

لبستُ بذلتي السوداء ورتبت شعري الخفيف، لاحظتُ على المرآة أن الصلع في رأسي بدأ يأخذ حجماً أكبر، ابتسمتُ وأنا ألحظ كيف أنني بدأتُ أشيخ وقبل وقتٍ قصير كنتُ لا أزال يافعاً أداعبُ الحياة بأحلام الشباب.

خرجتُ من الغرفة قاطعاً الطرقة الطويلة إلى صالون الجلوس، سمعتُ صوت التلفاز يرتفعُ في آذاني، كان صوت نشرة أخبار بالفرنسية. أمام التلفاز كانت والدة أماليا تجلس وملامح الانتظار بادية عليها.

ما إن رأتني حتى ابتسمت قائلةً:

- صباح الخير بنيّ...
- صباح الخير سيدة استر
- تبدو متعباً!

أجبتها بتوجس:

- لا، فقط أطلتُ السهر بالأمس.

نظرت إليَّ بملامح مبتسمة ثم وقفت قائلةً:

- سأسخن لك القهوة فقد بَرَدت...
- لا تتعبي نفسك، سأفعل ذلك بنفسي
- لا، لا ... دعني أفعلُ ذلك.

تبعتها بنظري وهي تمشي في الطرقة حتى اختفت في المطبخ، غالبني التوجس من الموضوع الذي ستفاتحني فيه. سألتُ نفسي "مما أنا متوجس؟ فليكن الموضوع ما يكون".

رفعتُ نظري باتجاه التلفاز، كانت مذيعة الأخبار بقناة TF1 تقرأ خبر إمساك صلاح عبد السلام في بلجيكا المتهم بتدبير أحداث باريس في ليلة 13 نونبر 2015. انشغلتُ بملامح المذيعة الشقراء الجميلة أكثر من الخبر حتى رأيتُ أم أماليا تعود وفي يديها صينية تحمل فنجانا قهوة وقطع من السكر والحلوى. لاحظتُ أنها تلبس قفطانا جميلاً لا يشبه القفاطين المغربية، خمّنت أنه إيراني أو عبري ربما...

قالت وهي تمدُّ لي فنجان القهوة:

- هذه أول مرة ستشرب فيها القهوة من صنع يدي.

ابتسمتُ في وجهها دون أن أنبس بكلمة، عادةُ المجاملات واللَّف الذي يسبق المواضيع تخيفني ولا أحبذها. أخذتُ منها فنجان القهوة الذي مدَّته لي وشربته على مهل وأنا ألمح في عينيها ارتباك البدايات.

فجأة سألتني وهي تضعُ فنجانها على الصينية:

- ماذا تنوي بعد الزواج من أماليا يا طارق؟

أجبتها مستغرباً:

- كيف ماذا أنوي؟ لم أفهم سؤالك؟

صمتت لحظة ثم أكملت كلامها بحماسة:

- اسمع يا بنيّ، سأكون صريحة معك وأكلمك كابن لي. أنت تعلم أن أماليا ابنتي الوحيدة ولا أملك سواها أنا وزوجي ديفيد... حياتي كامرأة وأم كانت صعبة جدا فوق ما تتخيل وكذلك كانت حياة زوجي. هاجرتُ من المغرب إلى إسرائيل رفقة عائلتي قبل خمسين سنة. كنتُ حينها طفلة، أصغر من أخواتي الثلاث. عندما وصلنا إسرائيل أسكنونا في كيبودس بكفر كنا قرب مدينة الناصرة بالجليل. كانت ظروف عيشنا صعبة وقاسية. تطوع أبي في الجيش الوطني وأمي اشتغلت طيلة النهار خادمةً في بيوت

الضباط وموظفي الدولة. حرمتُ من حنانها في صغري وحرمتُ من رفقة أخواتي أيضا بعد وفاتهن وهن صغيرات بسبب المرض. بقيتُ وحيدة حتى أصبحت شابة والتقيتُ بديفيد عندما قدم الى الكيبودس الذي أقطنه قادما من بولندا. أحببنا بعضنا ثم تزوجنا بسرعة ورزقنا بابنتنا الوحيدة أماليا. كان همنا أن نسعدها وأن نوفر لها حياةً مريحة عكس حياة التعب التي عشتها أنا وديفيد. الحمد للرَّب الآن أصبحنا ميسوري الحال ولدينا شركات في هارتسيليا وأصبحت حياتنا مريحة، لكننا لا نريد أن ينقصنا دفء أماليا وتواجدها معنا. أنا وديفيد لا يمكننا العيش من دونها يا طارق.

كنتُ استمع إليها دون عميق تفكير فيما كانت تقوله، شغلتني فقط مسألة هجرتها من المغرب الى إسرائيل، لم أصبر على فضولي حتى سألتها:

- عفوا سيدة استر، هل يمكنني أن أسألك. أصلك مغربي؟

بدت منزعجة لسؤالي، ربما لأنني هربتُ من موضوعها إلى موضوع آخر، لكنها ردّت عليّ بهدوء:

- نعم أنا مغربية. يهود كثر في إسرائيل من أصول مغربية. ولدتُ بأبي جعد بنواحي خريبكة من اليهود القرائيين الطشابيم.

- لماذا هاجرتِ من المغرب؟

تنهدتْ في صمت ثم ردّت عليّ:

- بعد قيام دولة إسرائيل سنة 1948 أصبح العرب ينظرون بريبة لليهود، بدأ الكل يشك في كوننا خونة وأعداء للعرب والمسلمين، شيئا فشيئاً تصاعدت الأعمال العدائية ضدنا فقررنا أن نهاجر المغرب...

- إلى الكيان الإسرائيلي !!

لم تُجبني ظلت صامتة للحظات ثم قالت محاولة تغيير الموضوع:

- أزيدك قهوة؟
- لا شكراً، يجب أن أخرج الآن.

أخفضت رأسها وقالت بصوتٍ هادئ:

- أماليا هي كل ما نملك يا طارق، لا تحرمنا منها من فضلك. أطلب منك أن تقطن أنت وأماليا معنا في هرتسيليا بإسرائيل أو ان لم تستطع اقطنا بالقدس الشرقية مع العرب ونأتي لزيارتكم كل أسبوع... فقط لا تحرمنا منها أرجوك.

اغرورقت عيناها بالدمع واحمّر وجهها وهي تنظرُ إليّ منتظرة جوابي. سألتها بهدوء:

- أتريدين أن أتزوج أنا وأماليا في إسرائيل ونقطن معكم هناك. هذا ما تريدين؟

ردّت عليّ متوسلة:

- أعرفُ أن هذا صعبٌ عليك وأنني أطلبُ الكثير لكنني أتوسل إليك ألا تحرمني من ابنتي، هي تُحبك وإن رفضتَ طلبي ستبقى معك هنا. لا تحرمني منها، لم يبقَ لنا الكثير في هذه الحياة أنا ووالدها.

مسكتُ يديها محاولا تهدئتها في الوقت الذي غرقتْ فيه خدودها بدمعها، قلتُ لها مبتسماً:

- لماذا كل هذه الدموع سيدة استر، أنا ليست لدي مشكلة مع إسرائيل. صراع العرب وإسرائيل وقضايا الوطن العربي لم تعد تهمني لقد تحررتُ من تلك المبادئ السخيفة التي عطّلت حياتي وجعلتني إنسانا مع وقف التنفيذ.

صمتتُ لحظة ثم أردفتُ وهي تنظر إليّ متفاجئة:

- سأذهب معكم إلى إسرائيل، وسنقيم عرسنا في هرتسيليا وسأقطن معكم هناك إلى الأبد، لن أحرم أماليا منكما...

صاحت بصوت تغلبه الدهشة والارتباك:

- أصحيح ما تقول، أنت لا تمازحني يا طارق أليس كذلك؟

ما كدتُ أومئ لها برأسي مؤكدا كلامي حتى ارتمت عليّ لتعانقني باكيةً وهي تقول:

- لن أنسى جميلك هذا طيلة حياتي يا بنيّ.

أجبتها بصوت الواثق من قراراته:

- لا تبكِ يا خالتي استر، بل افرحي وابدئي جمع حقائبنا لنغادر هذا المكان في أقرب وقت، ألستِ متلهفة لعرسنا.

25

الرباط-الدار البيضاء– 9 كانون الأول/ديسمبر 2015

من كان يظنُ، أن بعد كل هذه السنين وهذه الفوضى التي حلّت بحياتي، أن يوما سيأتي لأجمع فيه حقائبي وأغادر المغرب إلى بلد يسمى مجازا إسرائيل؟ قدري اللعين يغيرني من رجل ناضل من أجل القومية العربية وقضية فلسطين إلى رجل سيتزوج إسرائيلية ويسكن معها في إسرائيل وسط أعداء الأمس وأصدقاء اليوم والغد...

قالت أماليا وهي تساعدني في وضع حقائب السفر في التاكسي الذي سيقلّنا من الرباط إلى مطار الدار البيضاء:

- طارق، أنا أقدّر أن هذه اللحظات صعبة عليك، لكن أنا متأكدة أنك ستتجاوزها. تنتظرنا حياة جميلة وهادئة بهارتسيليا.

- لا تشغلي بالك يا أماليا، لقد أخذتُ قراري عن قناعة. لا مكان لي في هذا الوطن وإسرائيل لم تعد تشكل لي الآن أي شيء ما دمتُ قد تخلصتُ من انتمائي للعروبة ومبادئي القومية الفارغة.

- ما بك إذن حزين وشارد؟

- قلتُ لك لا تشغلي بالك...

وقفت تنظر إليّ بتمعن ثم وضعت قبلة على شفتيَّ بهدوء، قبل أن تقول لي:

- بقيت حقيبة واحدة، سأساعد أمي في حملها.

تبعتها بنظراتي التائهة، حتى اختفت وراء باب المنزل، كنتُ أشعر حينها بانقباض في صدري لا أعلم سببه، قلت مع نفسي إنه أكيد قرار السفر إلى إسرائيل. لكنني

تذكرتُ أن هذا الشعور يراودني منذ مكالمتي لسلوان. آه يا سلوان، ها أنا سأكون قريباً منك الآن في فلسطين. لكن على الجبهة المعاكسة. بعد أن قاتلتُ لسنين طويلة رفقة العرب في فلسطين ها أنا ألجأ إلى الجبهة الأخرى كأي مرتزقٍ يبحث عن انتماء جديد... بدأتُ أخشى أن يأتي يوم يحمل فيه أبنائي السلاح مع الإسرائيليين لقتال العرب. تبا لي، لماذا أخشى ذلك الآن؟ ألم تعد فلسطين لا تعني لي شيئا؟ فليتقاتل من يريد، سحقاً للجميع.

سرحتُ وأنا ألمح في مخيلتي صورة أمينة المفتي وهند سليم وسامي الحناشي يبتسمون لي، لماذا أتذكر الآن قصص الجواسيس العرب الذين خانوا أوطانهم لصالح إسرائيل؟ هل أصبحتُ أنا الآخر جاسوساً وخائناً؟ لا، لا، الوطن هو من خانني، أحلامي وآمالي في الحياة هي الخائنة...

قاطعني سائق التاكسي بصوته الخشن:

- هل انتهيتم سيدي من وضع كل الحقائب؟

أجبته شارداً:

- بقيت حقيبة واحدة وبعدها ننطلق.

رأيته يعود إلى التاكسي في الوقت الذي لمحتُ فيه أماليا وأمها تقفلان باب البيت وتحملان حقيبة صغيرة. كانتا منشغلتان في حديث باللغة العبرية. تذكرتُ أنني طلبتُ من أماليا في أكثر من مرة ألا تتحدث بالعبرية أمامي لكنها تنسى طلبي دائماً. ها أنت يا طارق ستلجأ إلى كل الدولة العبرية الآن.

اتجهتُ إلى المقعد الأمامي في التاكسي كي أجلس فيه فمسكتني أماليا من يدي قائلةً:

- ألا تريد الجلوس بجانبي؟

أجبتها بابتسامة خفيفة:

- عيب أن نترك أمك تجلس وحدها بجانب السائق يا أماليا.

ابتسمت بدورها ثم جلست بجانب والدتها. ما إن انطلق التاكسي في السير حتى عادتا إلى حديثهما وبقيتُ أنا إلى جانب السائق أتأمل الطريق. كان التاكسي يسير بسرعة، يطوي الطريق وراءه كأنه يُسرع بأن ينتشلني من هذا الوطن الذي أفرغني من كل الأحلام والآمال، استنزفني على مهل حتى غدوت رجلا يمتلك فقط أربعين سنة من العمر وفارغا من انسانيته وماهيته.

أخفض سائق التاكسي رأسه نحوي متسائلاً بفضول:

- بأي لغة تتكلم السيدتان؟

التفتُّ إليه متفاجئاً من سؤاله قبل أن أجيبه مرواغاً:

- الكردية، إنها اللغة الكردية.

أجابني مندهشاً:

- كرديتان إذن، لا أعرف لمَ الأكراد يكرهون العرب، لقد استغلوا الربيع العربي وقبله غزو العراق لإحياء مشروع تأسيس وطنهم القومي على أنقاض سوريا والعراق....

ظل يتحدث دون أن أسايره، اكتفيت بالنظر إليه مستغربا اهتمامه بالسياسة وبلغته القومية العربية. تركته يسترسل في كلامه دون أن أعبأ به حتى سمعته يقول:

- أتعلم، ما يشهده العرب الآن ما هو إلا مخطط للصهاينة بهدف تشتيتنا وتدمير حضارتنا. إنهم يعملون بصمت وبنفس طويل في ظل جهل وقلة وعينا... الحمد لله أنه لازال هناك رجال ونساءٌ ملتزمين بنهج المقاومة

والتضحية من أجل الوطن كالمرأة الفلسطينية التي استشهدت صباح اليوم....

سألته مذهولا:

- امرأة فلسطينية؟ ما الذي حدث؟

ردّ عليّ بلغة الزهو والفخر:

- امرأة فلسطينية فجّرت نفسها في حافلة عسكرية إسرائيلية بأحد المعابر في قطاع غزة وقتلت كل من فيها، إنها حقاً بطلة وبألف رجل...

سألته بانفعال:

- ألم يقولوا اسمها؟ ومن أي مدينة هي؟

التفت إليّ مستغرباً:

- ولماذا تريد اسمها ومدينتها؟

سكتَ لحظة ثم أردف عندما لم أستطع جوابه:

- أنت صحفي على ما أعتقد؟

ابتسمتُ في وجهه مراوغاً من جديد:

- نعم، أنا صحفي وتهمني مثل هذه الأخبار.

ردّ مبتسماً هو الآخر:

- حسنا، فلنبحث عما تقوله الأخبار على الراديو إذن...

دفع يده اليمنى للبحث في أمواج الراديو على إذاعة تنقل الخبر. توقف عند موجة الإذاعة الوطنية التي كانت تذيع أغنية قديمة لعبد الوهاب الدكالي ذكرتني بأيام الصبا وعلاقاتي الغرامية المجنونة.

كان يا مكان أنا وحبيبي عاشقين اثنين

نرعاو الغنم عايشين عايشين

هانين فوق المرج الأخضر

بالليل نباتو ساهرين

نغنيو للحلم وفي الصباح نخرجو متعانقين

تركتُ كلمات الأغنية تنساب في أذنيَّ ونظرتُ في المرآة العاكسة إلى أماليا وأمها، بدتا غارقتين في تفاصيل موضوع يشغلهما، خمّنت أنهما منشغلتان بتفاصيل العرس وقائمة المدعوين ومواضيع النساء التي لا تنتهي...

خطفني صوت سائق التاكسي من النظر إليهما:

- انها الثانية عشرة، أخبار الظهيرة ستذاع الآن...

لم تكد تمر ثوان على كلامه حتى صاحت مذيعة الأخبار "أمواج الإذاعة الوطنية بالرباط أهلا بكم.... نقلت وكالات الأخبار الدولية أن امرأة فلسطينية في عقدها الثالث فجرت نفسها في حافلة عسكرية إسرائيلية بمعبر بيت حانون شمال مدينة خان يونس بقطاع غزة، مسفرة عن مقتل 22 جنديا إسرائيليا بينهم ثلاثة ضباط... "

شعرتُ بمغص في بطني وتهتُ في أفكاري الشاردة. رفاقي في الجبهة دائما يستهدفون معبر بيت حانون هل تكون هي سلوان؟ امرأة فلسطينية في عقدها الثالث؟ من خان يونس؟ نعم إنها هي... ما هذا الحمق قد لا تكون هي. تهتُ في مشاعري المتضاربة بين أن تكون "هي" وألا تكون. شعرتُ بزلزال يهز كل كياني ويعيدني إلى ألم العروبة ومأساة فلسطين ويغوص بي من جديد في كل تلك المبادئ التي آمنتُ بها وعدت إلى أحضان الوطن المتكسرة.

رفعتُ بصري من جديد إلى أماليا وأمها فظهرتا لي تلبسان زياً عسكريا يلبسه جنود إسرائيل وتضعان على رأسيهما قبعتان بنجمة داود وعلم إسرائيل... لا يا طارق إنها تهيؤات فقط؟؟ تهيؤات؟ أليست أماليا وأمها اسرائيليتان؟ إنهما من قتلة العرب والفلسطينيين والآن هما من قتلة سلوان... إنهما يختطفانك إلى المنفى كي تغدو لاجئا أنت أيضا حيث لا تدري كما قال كنفاني.

يا إلهي، هل حقا سلوان هي من استشهدت هذا الصباح؟ هل علمت بقدومي إلى "الجبهة المعاكسة" ففجرت نفسها قبل أن تراني هناك.

عند وصولنا إلى المطار تركتُ أماليا وأمها تسجلان الحقائب وانطلقتُ أنا أبحث عن صورة لتلك المرأة التي استشهدت هذا الصباح على شاشات الأخبار في مقاهي المطار. تهتُ من مقهى لآخر دون أن أجد شاشة تنقل الأخبار... كل الشاشات تنقل وصلات من الأغاني والرقص، هذا حال العرب، بعضنا يستشهد دفاعا عن الوطن وبعضنا الآخر يرقص ويغني غير مكترث أصلا لشيء اسمه الوطن.

كنتُ أجري من مقهى إلى آخر كالأحمق عندما مسكتني يدُ أماليا قائلةً:

- طارق؟ ما بك، لماذا أنت غريب الأطوار منذ أن استيقظتَ هذا الصباح؟

نظرتُ إليها بخوفٍ غريب، هذه أول مرة أخاف من أماليا وأرتاب من عينيها. كانت نجمة داوود باللون الأزرق تظهر وتختفي في عينيها... فجأة اختفى الثوب الأبيض الجميل الذي كانت تلبسه أماليا هذا الصباح وأصبح جسدها يلتحف الزيّ العسكري لجنود إسرائيل. فركتُ عينيَّ بقوة كي أزيل هذه الصور منهما لكنها ما كانت لتُزال.

سمعتها تقول:

- هيا بنا، سنسجل مغادرتنا الآن وننتظر نداء الطائرة بقاعة الانتظار.

تركتُ جسدي ليد أماليا تسحبه كما تشاء وأنا تائه في صورة سلوان وصوتها في آخر مكالمة لنا. في الأفق لمحتُ سلوان في سماء المطار تبتسم وتشير لي بيدها قائلة

"وداعاً" لا يا سلوان، أكيد أنت لازلت هناك في خان يونس تشربين القهوة على مائدتنا في بيت جدتك وتنتظرين عودتي.

أتتذكرين ما قلته لي ذات مساء ونحن جالسين على ركام البيوت التي دمرها القصف الإسرائيلي، قلتِ لي "... أشتاقُ لتلك الطاولة التي كنا نتقاسم عليها فنجان قهوة الصباح وأزهار الحديقة تعزف لنا أنغاماً من رائحة رحيقها في بيت جدتي". ترانا سنشربُ القهوة معا يا سلوان من جديد في بيت جدتك؟

عندما وصل دوري عند شرطي الحدود، أمدتني أماليا بجواز سفري تتوسطه تذكرتا سفر، الأولى إلى مارمريس بتركيا والثانية من مارماريس إلى تل أبيب عبر الباخرة. أخفيتُ الثانية وتركتُ الأولى في مكانها تتوسط جواز السفر.

عندما أخذ الشرطي جوازي صاح ممازحاً قبل أن يختمه:

- أتمنى أن تكون ذاهبا لتركيا بهدف السياحة وليس الالتحاق بداعش

أجبته بسخرية سوداء:

- بل سأذهب لألتحق بجموع اللاجئين هناك، فأنا الآخر لاجئ من كل شيء...

ما ان اجتزتُ شرطة الحدود لألج المنطقة الحرة في المطار في انتظار الطائرة، حتى لمحتُ من بعيد شاشة تلفاز بمحل لبيع الإكسسوار تنقلُ صور لحافلة عسكرية محترقة، فجريتُ كالمجنون لمعرفة من تكون "هي". أكدت مذيعة الأخبار أن الشهيدة تبلغ من العمر 34 سنة من مدينة خان يونس قبل أن تصدمني بصورتها، كانت هي، سلوان.

انفجرتُ بالبكاء كمن فقد آخر أحبابه وسقطتُ أرضاً كما سقط قلبي مدمى في ساحة الغياب وسط تراب الرحيل. انتهينا يا طارق! ها قد فقدتُ آخر من تبقى لي في فلسطين، آخر من تبقى لي في كل العالم.

صرخت أماليا وهي تمسكُ بوجهي:

- ما بك يا طارق، يا إلهي ما بك؟

أجبتها والدمع يُغطي كل وجهي:

- لا أستطيع أن أذهب معكما إلى الكيان الإسرائيلي... لا أستطيع، اعذريني يا أماليا...

- لا لا لا، ستذهب معي، لن تتركني وحيدة مجدداً، أنا أحبك يا طارق أسمعت وأنت تحبني كذلك، لن نترك بعضنا.

صرخت في وجهها بهيستيريا:

- لن أذهب إلى من قتلوا شعبي، لن أذهب عند قتلة سلوان وخليل ونجيب وجهاد وفيصل... اذهبي واتركيني وشأني.

مَسكَتها أمها من يدها وهي تنظر إليّ بجفاء وقسوة بالغة، قالت لها وهي تجرها كي تنهض من جانبي:

- هيا يا ابنتي، لنعد إلى بيتنا، لنعد لإسرائيل... هذا الرجل ليس لكِ.

بقيتُ في مكاني أبكي سلوان وأنا أنظر لأماليا تسحبها أمها إلى قاعة المغادرة، بقيت أبكي وأسترجع ذكرياتي مع سلوان يوماً بيوم، حتى سمعتُ صوتا ينادي باسمي في مكبرات الصوت للالتحاق بالطائرة التي ستقلع بعد لحظات. ظل النداء يتكرر عشرات المرات حتى وقفت بمحاذاتي مضيفة بالمطار تسألني:

- Monsieur, êtes-vous Tarik OUELD LKHEIL ?

نظرتُ إليها باكيا، قبل أن أجيبها:

- Non Madame, je ne le suis pas, enfin je ne le suis plus

26

الدار البيضاء – 9 كانون الأول/ديسمبر 2015

قبل خمس سنوات فقط، كنتُ أجلس في هذه المقهى بمطار محمد الخامس أودع طارق قبل أن يغادر إلى فلسطين بحثا عن موتٍ جميلٍ ينهي مأساته في الحياة وهو يدافع عن قضيته. لم أكن أتخيل أنني سأعود إلى نفس المكان لأودع شخصاً عزيزاً آخراً سيرحل إلى الوجهة ذاتها: فلسطين. شخصاً آخراً يحملُ الاسم نفسه: طارق، يناضلُ من أجل القضية نفسها: القومية العربية وهاربا من المأساة ذاتها: الوطن.

خطفتُ نظرةً إلى بركات، وجدته تائها في فنجان قهوته غير آبه بجُموع المسافرين الذين يتدافعون إلى صالات المغادرة حاملين حقائبهم التي تختزل وجوديتهم الضيقة في هذا الكون، وغير مكترث بالألم الذي سيتركه رحيله في قلوب كل الذين أحبوه وأولهم أنا.

قلتُ له تماما كما قلت لطارق عند رحيله:

- لا أريدك أن ترحل يا بركات. أن يغادر فرد مثلك هذا الشعب ... مأساة.

رفعَ رأسه بسرعة كأنه تفاجأ بشيء ما، حملق في عينيَّ طويلا وهو يبتسم بطريقة لم أعهدها فيه ثم صدمني بنفس الجواب الذي قاله لي طارق قبل خمس سنوات:

- ربما مأساة بالنسبة لك أنتِ فقط. أما الشعب فلا يبكي على فرد منه، الشعب يبكي على سيده. كل هؤلاء الذين سادوا المغرب رافقهم الشعب بالدموع والنحيب إلى المقابر، أما أمثالي فكالصِّفر على الشمال. أنا يا ليلى سأموت شهيدا أو منتحراً، فالموت لن يهزمني إلاَّ إذا ذهبتُ إليه وأنا لا أريد الخلود. أكره فكرة أن أخلد في هذه الدنيا التي لا شيء أجمل فيها من كوننا سنموت.

يا إلهي، كان هذا جواب طارق بالحرف الواحد، لم أستطع استيعاب صدمتي، كيف استطاع بركات أن يردد على مسامعي نفس جواب طارق؟ هل اتّحدت روحهما في شخص واحد؟ أم غدوتُ أهلوس برؤية طارق في كل شيء وسماع كلماته في كل صوت !!

قال لي مبتسما بمكر:

- ألم يكن هذا جوابه؟

سألتهُ مذعورةً:

- جواب من؟

ردَّ عليَّ بعد أن أشعل سيجارة، وأنا أقول مع نفسي بركات أصبح يدخن مثله أيضاً؟

- طارق ولد الخيل، ألم يكن هذا جوابه لكِ عندما كنت تودعينه في هذا المطار وهو راحل إلى فلسطين؟

واصلتُ سؤاله مستغربةً:

- عجباً، كيف عرفتَ هذا؟

- اهدئي، لا تفزعي، لقد قرأتُ روايته التي يحكي فيها كل شيء عن حياته وعنكِ وعن رفاقه ومأساته مع الوطن.

- أي رواية؟

- روايته "الوطن ليس هنا"

- كيف عرفتَ أنها روايته؟

- رأيتها في حقيبتك في أحد الأيام بالفصل، استفزني عنوانها وفي نفس الوقت اعتراني فضول لمعرفة موضوعها الذي استهواكِ لتقرئيها فأسرعتُ لاقتنائها. لم أكن أعلم حينها أنني سأقرأ عنكِ وعنه، عن قصة حبكما ومآسيكما...

انفجرتُ بالبكاء في تلك اللحظة كطفلة صغيرة تفتضح كل أسرارها، مدّ لي علبة منديل ورقي من جيبه ومَسَكَ يدي مواسياً:

- أتعلمينَ، هذا العالم مليء بالمآسي، وحده الحب بإمكانه أن يشفينا من آلام الحياة... اذهبي عنده يا ليلى، لا تتركيه وحيداً. قصة حبٍ كقصتكما ليس عليها أن تفشل... اجعلا من الحب أملا لكل الأجيال القادمة.

أجبتهُ وأنا أمسح دموعي:

- وأنت...

- أنا، سأواصل مسيرتهُ مع الوطن والعروبة، هناك في فلسطين تنتظرني بندقية طارق وينتظرني أزيزُ الرصاص.

مرت علينا لحظات صمتٍ طويلة، لم أستطع فيها جمع كلماتي. كان لديّ كلام كثير لأقوله لبركات لكن المقدرة على الكلام تخوننا دائما في لحظات الوداع.

قال لي وهو يخطف لمسة خفيفة على أناملي:

- عليَّ أن أذهب الآن، ستقلع طائرتي بعد دقائق.

حمل حقيبته الصغيرة وغادر مسرعا دون حتى أن يسلّم عليَّ، فتبعهُ صوتي مناديا عليه:

- طارق...

وقف في مكانه واستدار ببطء في الوقت الذي أسرعتُ فيه الخُطا لمعانقته. سمعته يهمس في أذني:

- هذه أول مرة تناديني فيها باسمي!

ابتسمتُ دون أن أجيبه، وقفتُ أنظر لعينيه كأنني أراهما لأول مرة عندما أردف قائلاً:

- أتذكرينَ يوم كنا في مقهى طاهيتي بعين الذئاب وسألتني من تكون حبيبتي؟ ... ستعرفينها الآن، وأنا راحلٌ كما توقعت.

سألته بلهفة:

- من تكون؟

نظر إلى عينيّ طويلا ثم خطف قبلة من على شفتي، تركتني أرتعشُ من وقعها... ثم قال لي:

- ها قد عرفتِ من تكون.

تبعته بعينيَّ حتى دخل إلى قاعة المغادرة وأنا أتحسس رذاذ شفتيه على شفتيَّ. ها قد غادر عاشقٌ آخر إلى البندقية تاركاً حبيبته لموسيقى الرحيل في المطارات، انتصرتْ من جديد مأساة القومية العربية على قصة حب أخرى.

27

الرباط – 15 كانون الأول/ديسمبر 2015

"حبيبتي ليلى، من غيركِ أكتبُ له كلماتي الأخيرة؟ لمن غيركِ يدق قلبي آخر دقّات الحب ويسقط شهيد غيابك إلى الأبد؟ ... لقد تعبتُ يا ليلى، أنهكني القدر. كل تلك المبادئ والأفكار التي آمنتُ بها تفرشُ لي الآن طريقي إلى الخلاص. انتظرتُ الموت طويلاً يا ليلى لكنه لا يأتي، انتظرتهُ كما انتظرتُ الوطن وانتظرتُ الحب، حبكِ. ربما لو بقيتِ معي لما فكرتُ في الانتحار... ربما.

ستقولين لمَ الانتحار؟، سأقول لكِ لمَ الحياة؟ كيف لي أن أستمر في الحياة بهذا الوطن وأنا ممتلئ بالضياع وبغياب كل من أحببتُ، أنتِ وكل رفاقي الشهداء... كيف لي أن أبقى دونكِ، دون الوطن العربي الموحد الذي حلمنا به ودون حرية الإنسان فينا؟ كيف لي أن أبقى دون أن أشفى من مبادئي وأحلامي؟

شيء واحد يملأ فكري الآن وأنا أكتب لك رسالة الختام، إنها ذكريات ليلتنا الأولى، أتذكرين؟ أتذكرينَ عندما رقصنا بثوبِ الليل على حافة حلمنا الجميل؟ ذاك المساء عندما كتبتُ بأناملي المرتعشة على خدك أولى عبارات الانتماء وصرتُ أول مدينة يقصفها الحب في زمن السلام. أذكرُ كيف تأوهت كل النجوم وجعاً فهوت على رؤوسنا لترجمَ الحبَ كلعين أبدي في أسطورة الرجال ببلاد النساء... ألازلتِ تذكرين؟، عندما غزلنا معاً الزمان سجادةً نمشي عليها إلى أرض الأحلام ومشاريع الحياة. لم نكن نعلم، لفرط سذاجتنا، أنها أرض مفخخة بالوجع ومحاصرة ببقايا من سبقونا في درب الليل وهواجس الحب والوطن. لم تكن سوى أرض تتربص بكل القلوب التي أعياها الأمل في وطن لا يؤمن بالأمنيات وبقدرٍ لا يشفقُ على لاجئي الحروب وشعوب الضائعين في مسارح الحياة.

من كان يسرقُ منا قَدَرنا حينها؟ من استبدلَ أقدارنا ونحن نكتب أجمل الترانيم في لغة العشاق ونسكر برضاب معتق منذ الأزل على شفاهنا أجدرُ من كل العشاق؟ من غَيّرنا؟ من غيرنا، فصرنا أطلالا تبكي دورة الزمن وتحكي للريح بزهو "الذي كان"؟ أوَ بعدَ كل الذي كان، صرتُ منسياً وصرتِ بهتان. أ بعد أن كنا نطرّزُ الأمل أصبحنا نُحيك الذكريات ثوباً للنسيان، وسوطاً على خاصرةِ الذاكرة ووعود الدخان؟

أتعلمين، كان جسدكِ تلكَ الليلة نهراً لأجمل البخور وسرجاً امتطيته وكأنني لم أمتط قطُّ أهوج الخيول، لكنني ما ظننته سيصير بداخلي أشرسَ جثةٍ تعيث في مقابري إرهابا وتقتيلا... حتى صرتُ فاشلاً أكتبك بكلمات المجاز واللامعنى. أشحذُ عند ذِكر اسمكِ سيوفي كداعشي جديد لذبح كل الذكريات على مقصلة القدر... وأصيحُ كأي لعين: هي باقية وتتمـدد...

ملاحظة:

- لقد بِعتُ كل ما في الشقة لأسدد بعض الديون المتراكمة عليّ، شقتنا وإن كانت فارغة فهي حبلى بذكرياتنا ولحظاتنا الجميلة، أوَ ليست هذه الشقة وطن قصة حبنا كما تقولين؟

ملاحظة ثانية:

- ستجدينَ في الحقيبة بعض الأغراض تركتها لك ذكرى في محراب عشقنا، أولها دفتر مذكراتي وفستانك الأسود الذي لبستهِ لي في تلكَ الليلة... أول ليلة لنا.

ملاحظة أخيرة: أحبكِ.

28

الرباط – 17/16 كانون الأول/ديسمبر 2015

"آخر ليلةٍ لي"، هكذا نطقتْ شفتاي وأنا أقطع شارع علال بن عبد الله قبالةَ مقهى ساتيامار متجهاً إلى مطعم لوكراند كومبتوار في ملتقى شارع محمد الخامس وزنقة القاهرة. شعور جميل اعتراني وأنا أتخيل الناس من حولي لا يملكون موعدَ نهايتهم على عكسي أنا. لا يعرفون متى يغادرون هذا العالم. يعيشون هكذا معلَّقين بلا موعدٍ مع الموت وبلا وعد من الحياة في أن تواصل أيامها.

ها أنا وحدي، أضربُ موعدا مع الموت، أنتظره وينتظرني. أملكُ وقتي كما أشاء إلى أن يحين موعده. أنتَ لا تملكُ وقتك إلاَّ إذا علمتَ ساعةَ نهايتك، حينها ترتب أيامك كما تشاء. تتخلص من انشغالاتك التافهة التي سرقت وقتك فيما مضى دون أن تلتفت إلى ساعتك اليدوية لتعاتب عقاربها على وفائها لمبدأ الدوران وعدم الانتظار.

عند اقتراب موعدِ الموت ينزع الزمن عن جسده جلباب النسبية وأساور "المؤجل" و "نظارات الانتظار" يرضخ حينها فقط للمطلق ولمنطق الزوال، فتتزاحم كل تلك الأشياء التي لم تفعلها والكلمات التي لم تقلها في طوابير طويلة تستجدي صدقةَ زمنٍ مما تبقى لك. فتنطلق لتفرغ نفسكَ من آخر الرغبات كي تقابل الموت بقلبٍ فارغٍ من آمال البقاء وتمدد الزمن.

جلستُ على كرسيَّ المعتاد قبالة الكومبتوار، أتأمل الفراغ الذي أحدثه غياب مها وسعيد في المكان وقبلَ أن أغوص في شوقي لكلامهما وذكرياتي الجميلة معهما قاطعني النادل الجديد.

- Bonsoir Monsieur...

دون أن يكمل كلماته، طلبتُ منه وجبة العشاء، سمك اسبادون مع خضروات مسلوقة وزجاجة نبيد أبيض. هكذا اشتهيتُ عشائي الأخير. نسخةً مصغرة من العشاء الأخير ليسوع قبل أن يلوذ إلى السماء.

لا فروق بيننا، هو نبيُّ الله وأنا رسولُ الأرض الى السماء هذه الليلة. أحملُ لها كلمات العودة وتراتيل الرحيل. هو له اثنا عشر حوارياً آنسوه في عشائه الأخير وأنا لي اثنتا عشرة ساعةً، دورةً كاملة لعقرب الزمن، يتجول فيها قدرَ ما يشاء قبل موعد الرحيل الأبدي.

هو له ليوناردو دافنتشي ليرسم لوحة عشائه الأخير، كي يَخلدُ في التاريخ وأنا لي هذه الكلمات، أكتبها من نزفي على ضمادات المذكرات. هو له "الإسخريوطي" خائنُ الرسالة وأنا لي "الوطن" خائنٌ من البداية إلى النهاية.

أنهيتُ عشائي وسط صخب الموسيقى وأحاديث السّامرين في المطعم. ناديتُ النادل كي يزيدني زجاجة نبيذ، هذه المرة أحمر وأدفع له كامل الحساب. دفعتُ له كل النقود التي بجيبي، قائلاً:

- خذها كلها، لم تعد لي حاجة بها بعد الآن.

استسلمتُ لكؤوس النبيذ الأخيرة وأنا أشعر بالخمر يختلط بدمائي في العروق ويثقلُ رأسي وأطرافي ويرتفع بأفكاري إلى سدَّةِ الانتشاء.

تصاعدت موسيقى الفالس بالمطعم لأتذكر آخر مرةٍ رقصت فيها مع ليلى. اعتدتُ رقص الفالس والفادو أمام جسدك المزهو بسمرته يا ليلى، يا ليتكِ كنتِ هنا، سأشتاقُ لكِ.

وقفت امرأةٌ بثوبٍ أسودٍ لامع يغطي صدرها إلى ركبتيها. لم أشأ لعينيَّ أن تدقّق في ملامحها، كنتُ منشغلا بمنظر سيقانها الجميلة التي بدت وكأن الشمس تلجأ إلى ثغور جلدها بعد الغروب.

أخفضت رأسها قليلاً ثم قالت لي:

- أتمنى ألا تُخيّبَ طلبي في الرقصِ معك.

رفعتُ رأسي لأرى صاحبة الثوب الأسود لأجدها رجاء الغالي. المرأة التي تبادلت معها أجمل النظرات في هذا المطعم.

ابتسمتُ لها وقلت:

- خذِيني إلى المرقص يا رجاء ومزّقِي روحي على نوتات جسدك عساني أصيرُ وتراً يشربُ الموسيقى من مياهِ عينيكِ.

ضحكت ثم قالت:

- أ تعويذةٌ هذه؟

أجبتها:

- نعم، إنها تعويذةُ عاشقٍ يُسْدِلُ ستار القدر.

ابتسمت ومدَّت لي يدها، عانقتُ خصرها منتشيا وأنا أردد في نفسي: "عشائي الآن يختلف عن عشاء المسيح، هو لم يمنحه القدر وصلةَ رقصٍ قبل الرحيل".

تحتَ إضاءة المرقص كانت ملامح رجاء جميلة وهادئة، هونت عليَّ مأساة النهاية وألم المشهد الختامي الذي رسمته لنفسي في مخيلتي. تركتُ جسدي يتموج على إيقاع الموسيقى الهادئة متتبعاً تموجات جسد رجاء وأنا غارقٌ في عينيها وابتسم.

شبكتْ أصابع يديها خلف عنقي وهي تدفع صدرها بجبروت بالغ على صدري... ازداد وقع عطرها على حواسي لدرجة أن يديَّ بدأتا ترتجفان وهي تلامس أمواج شاطئها العالية أسفل ظهرها.

كانت كما كنتُ أشتهي لنفسي عند سدول الليل على نهاري ولكن ليس كما تمنيتُ في ليلتي الأخيرة. ليلتي الأخيرة لا يملكها إلا طيفُ ليلى وخنادقها التي وزَّعتُ عليها

أشلاء جسدي على دفعات تاريخي المصادر بالتقسيط على جغرافيتها وأيامها. دفعتُ سنوات عمري بأكملها ثمناً لأعرف أن ليلى هي قصةُ الحب الوحيدة التي لا تعرفُ منطقَ النهايات ولا خيانات القدر. ليلى هي الوحيدة التي كنتُ سأبقى في أحضانها الى الأبد لو لم يكن لي وطن...

أنتِ ذاكرتي يا ليلى، لا يوم يمرُّ عليَّ دون أن تكوني فيه وطني. أنتِ أو لا وطن لي، أنتِ أو لا وطن.

تحرَّكت شفتا رجاء قائلةً:

- ما سرُّ ابتسامتكَ الجميلة والغامضة هذه؟
- أبتسم لحظي الجميل يا رجاء؟
- أي حظ؟
- أن تكون رقصتي الأخيرة معكِ، مع امرأة جميلة نُحِتَ جسدها بأنامل الشهد والنار، تلتحف ثوباً أسودً كنهرٍ جارفٍ من الكحل العربي. تدللها موسيقى تائهة بين الصخب والهدوء كأنها تتردد بين حتفي الأخير وولادتي الثانية.
- آهٍ منك... لم أكن أعلم أنك تغزلُ الكلمات شعراً، أقسمُ أنك استعمرتَ قلوب نساءٍ كثيرات.
- أقسمُ أنني ما دخلتُ قلاع امرأة إلا وخرجتُ مكسَّر الآمال والأحلام. أنا معطوبُ حربٍ قديم في تاريخ النساء يا رجاء.

ابتسمت بدلال وأردفت:

- رأفةً بك إذن، سأفتح لك قلاعي دون مقاومة وسأجعلكَ سيداً أبدياً لي، سأكون لك الأخيرة في تاريخ فتوحاتك...

ابتسمتُ بدوري بخجل سرعان ما استحال إلى ضحك هستيري. ضحكٌ يسخر من القدر قبل أن يسخر من مآسي صاحبه. ثم قلتُ لها:

- أنتِ فعلاً الأخيرة، ولعلَّ معاركنا الأخيرة نخوضها دون سلاح ودون مقاومة، مجردين من حسابات الربح والخسارة... فكم نحن أغبياء إن اعتقدنا أن بإمكاننا أن نفوز في الحب، الحب لعبة قدرٍ لا يفوز فيها أحد. كلنا نخسر فيه، أشطرنا يثوب عنه في خسارته الأولى وأغبانا يواصل مسلسل الخسارات طمعاً في فوزٍ يصنعه خياله ويكذبه القدر.

توقفت الموسيقى وبدأت جموع أزواج الراقصين تعود إلى مقاعدها. ظلت رجاء تقفُ أمامي صامتة، في عينيها بريقٌ يشعُّ كخيط فجر في ليل صحراء، أمسكتُ يديها وقلت لها:

- رجاء، إن التقيتِ برجلٍ يعيشُ يومه الأخير، ماذا تقولين له؟

ظلت وفيةً لصمتها، تنظر إليَّ في استغراب ولمحة حزن بدأت تغرق مقلة عينيها. اكتفت بهزِّ كتفيها ومطِّ شفتيها موحيةً أنها لا تدري جواباً محدداً.

استدركتُ قائلا لها:

- لا تقولي له شيئاً، أدعيه فقط إلى الرقص كما فعلتِ معي، واحرصي أن يكون لون فستانك أسودَ. كنتُ سعيداً ومحظوظاً برقصتي الأخيرة هذه معكِ. سأغادر. اعتني بنفسك.

طبعتُ قبلةً على أناملها التي كانت تشبكُ عنقي قبل لحظات ثم خرجتُ من المطعم. تركتها واقفةً دون أن تنبس بكلمة. حملتُ عطرها معي ولون فستانها وأحمر شفاهها وغادرت... حملتها بأكملها في ذاكرتي المحتضرة وغادرتُ لأرمي أرجلي في أزقة الرباط، تتقاذفُ جسدي إشارات المرور وأرصفة الشوارع إلى شقتي في حسان.

قضيتُ ما تبقى من تلك الليلة واقفاً في الشُرفة، أقلِّبُ ذكرياتي صفحةً صفحةً إلى أن بدأ الفجر يتفتحُ في أحضانِ السماء. التفتُّ إلى الحقيبة التي جمعتُ فيها لليلى بقاياي، فوقها وضعتُ عقدة الحبل ومسدسٍ قديم في حوزتي لم أكن أعلم أنني أخبئه لهذه الليلة. آخر خيارٍ يمنحه لي القدر هو أن أموتَ برصاصة مسدس أو مشنوقاً بحبل، أن أموت أو أموت... هكذا كان القدر معي طيلة أربعينَ سنة من حياتي، أتاح لي خيارات كلها تؤدي للقدر ذاته، خيّرني دائماً بين الشيء والشيء نفسه.

اخترتُ الحبل، قدسيةُ الموت تبتغي موتاً صامتاً بطيئاً لا يمنحه الرصاص. ثم، إن كان الرصاص قد رفض قتلي في كل الحروب التي خضتها لمَ ألجأ له الآن؟ ألا كبرياء لي؟

ابتسمتُ ساخراً من الموت، الموت يضحك على الجميع قبل أن يلحدهم في دفاتر الغياب ها أنا على الأقل أضحك عليه وأحرمه من كتابة السيناريو الذي يحلو له قبل أن يكتبني من سكانِ المقابر. وقفتُ على الحائط الصغير الذي يفصل الشرفة عن مدخل الصالون، لأربط الحبل في قطعة حديدية ناتئة في سقف زاوية الشرفة لم أنتبه لوجودها إلا عندما بحثت عن وسيلة الانتحار. هناك أشياء ترافقنا طيلة حياتنا دون أن ننتبه لها، دون أن نعيرها أي اهتمام... لنكتشف في نهاياتنا أنها كانت تنتظر فقط أن يحينَ دورها في أقدارنا كي تقول لنا: "كنتُ فقط أنتظر".

تسمَّر نظري فجأةً بصومعة مسجد السُّنة التي كانت تلوح في الأفق، سمعتُ قلبي يصيحُ بصوت خافتٍ: يا الله، سامحني، فليست لي طاقةٌ للمضي في القدر، أعفني منه واعفُ عني أو اصنع لي قدرا جديداً إنك لأرحمُ الراحمين.

وضعتُ عقدةَ الحبل على عنقي وضيقتُ الحلقة جيداً حتى ابتسمتُ وأنا أتخيل الحبل آخر ربطة عنقٍ أحزمها على قميص بذلتي السوداء. ثم غمرني السكون، سكون مطلق، لا يعكره سوى نبضات قلبي المتسارعة ورعشةُ شفتيَّ اللتان

خانتهما اللحظات الأخيرة. أفردتُ ذراعيَّ لعلِّي أطيرُ وأنا محلقٌ بحبلٍ إلى ناصية السماء. لعلِّي أصيرُ حرا، أملكُ المطلق وأسافر في رحلة الخلاص الأبدي من كل شيء. رميتُ جسدي، رميتُه كحجرٍ يلطخُ صفحة مياه القدر، يتدلَّى كعناقيد السماء لتعلن نهاية القدر، نهاية الوطن، نهاية الحب، نهاية الألم ونهاية اسمي إلى الأبد. وحدها صورةُ ليلى وهي تحتضنني في لقاءاتنا كانت تملأ مخيلتي عندما تدلى جسدي في الفراغ معلقاً كالمصلوب على قدرِ المشانق. وانتهيتُ كأنني لم أكن هنا في البداية، كأنني رسومات حبرٍ لروائي يشتهي الغرق في محبرة هواجسه وأفكاره سردا وحكيا ووصفاً ولا يغرق، كأنني روايةً يتضامنُ معها القارئ وينصرف لروايةٍ أخرى تنتظر نصيبها من المجاز في مخور الأدب، وأُنْسَى ببساطة، كأنني أنا نصيبُ العدم والعدم نصيبي، كأنني لم أكن.

إيزيس وأوزيريس

29

الدار البيضاء/الرباط – 17/16 كانون الأول/ديسمبر 2015

وهذه الليلة أيضا تذكرتك، لا أدري يا طارق متى لا أتذكرك؟ متى تغادر فكري وتترك أطلالي خالية من دونك؟ شعرتُ بانقباضٍ غريب هذه الليلة، كان قلبي يدقُّ ويرتجفُ كأنه يحاول أن يغادر ضلوعي ويحلِّق عالياً. أشعلتُ المصباح القريب من سريري كي أطرد الظلام من على صورتك المعلقة على جدار غرفتي. ابتسمتُ وأنا أنظر إلى عينيك العذبتين وابتسامتك المغرية. قلت لكَ وأنا أرد على ابتسامتك الجامدة في الصورة، لماذا لا تتركني أنام يا مشاكس؟ لماذا لا تُجيبُ على مكالمتي لك منذ أول أمس؟

لم تجبني، كنتُ أمنّي نفسي بأن تتحرك شِفاهك على الصورة وتجيبني... لكننا ظللنا ننظر إلى بعضنا البعض كتمثالين متقابلين، أنتَ على الصورة وأنا على السرير.

ازداد شعور الانقباض في داخلي أكثر وأكثر فوضعتُ مخدتي على صدري وضممتها بقوة... ثم التفت إليك قائلةً: ما الذي يجري لك يا طارق؟ أينكَ الآن؟ ولماذا اختفيت عني ولا تجيبُ على الهاتف؟

سمعتُ صوتك بداخلي هذه المرة يُناديني، كانت شفتاك تقول ببطء "أنقذيني يا ليلى... " انفجرت عيناي بالبكاء وقمتُ من سريري كامرأة أصابها هلع الليل، أبحثُ عن هاتفي الذي تركته على الشاحن قبل أن أنام، تذكرتُ نصيحتك عندما كنتُ تقول لي: لا تتركي هاتفك ملتصقاً بالشاحن وتنامين، كانت أناملي ترتجف على شاشة الهاتف وأنا أركب رقم هاتفك من جديد، لكن وحدها العلبة الصوتية كانت تُجيب.

شعرتُ بأني أختنق، خرجتُ إلى غرفة الصالون أستجدي الهواء الطلق من الشرفة. تفاجأتُ أن الليل انجلى وبدأت خيوط الصباح تزحفُ في أفق السماء. قلتُ مع نفسي: حرمتني من ليلة كاملة يا طارق، هل ستحرمني حتى من هذا الصباح؟

بقيتُ واقفةً لدقائق طويلة أغوص في ذكرياتنا معاً ونسيم برد الصباح يعبث بخصلات شعري، لكن الانقباض الذي غزا صدري قبل قليل كان يستفحل وبدأت أشعر معه ببداية مغصٍ مؤلم. اندفعتُ نحو المطبخ، بحثت عن قارورة أضعُ فيها الكمون، بلعتُ القليل منه صحبةَ جرعةٍ ماء عساه يخفف من آلام المغص ثم شرعتُ في إعداد قهوة الصباح كعادتي.

لم تتركني صورتك وشأني يا طارق، كنتَ في كل حركة لي تقفُ بين أعيني وشفتك تهمس: "أنقذيني يا ليلى... " ما الذي يحدث معك يا طارق؟ قل لي؟

تركتُ الماء يسخن وذهبتُ أبحث بين أقراص الموسيقى عسى أن أجد نغماتٍ تهدئني. تركتُ أناملي تتوه بين أقراص فيروز وسعاد ماسي وظافر يوسف وyani وأرمند عمّار حتى سقطت عيناي على قرص قديم ل Patsy clin كنتَ قد أهديته لي أيام الجامعة.

أذكر ذاك اليوم جيداً، عندما كنا نتقاسم سماعة الولكمان في مكتبة الجامعة، نظرتَ إليّ وأنا غارقة في قراءة كتابٍ خطفتَ قبلةً سريعة على خدي كانت قبلةً على أنغام .Patsy clin

بقيتَ تنظر إليّ طويلاً ثم أخرجتَ القرص وأهديته لي قائلا:

- أنا الوحيد في المغرب الذي يستمعُ لأغاني Patsy clin... فلنكن اثنان، أنا وأنتِ.

أجبتكَ حينها وفي عينيَّ بدايات حب كبير:

- ليسَ هناك أنا وأنت، نحنُ لسنا اثنان، نحنُ واحد فقط.

وضعتُ القرص لتحملني أنغامه إلى عشرين سنة للوراء. يا الله ما ألذ تلك الأيام.

I go out walkin' after midnight
Out in the moonlight, just like we used to do
I'm always walkin' after midnight
Searchin' for you
I walk for miles along the highway
Well that's just my way of sayin' I love you
I'm always walkin' after midnight
Searchin' for you

تركتُ جسدي ينزلق على الحائط ثم جلست على الأرض أغوص في الذكريات وأبكي أيامنا الخوالي. فجأة صاح صوتُ مؤذن المسجد القريب من المنزل بآذان الفجر.

الله أكبر ... الله أكبر

أشهد أن لا إله إلا الله

أسرعتُ للإطفاء الموسيقى وقلبي يضربُ بقوة، ما كدتُ أهدأ حتى صاحَ صوتُ الماء الذي بدأ يغلي... غالبتُ الدمع في أعيني ثم ركضتُ إلى المطبخ.

وبينما أرتشفُ من كأس القهوة جرعاته الأولى، سمعتُ صوتَ هاتفي يرن. تساءلتُ مع نفسي عمن هذا الذي سيتصل بي مع الفجر. أيكونُ طارق يا ترى، أهو أيضاً غادره النوم هذه الليلة بسببي؟ أم أنه وجد اتصالي به ويردُّ عليَّ الآن؟

لكنكَ لم تكن أنت المتصل يا طارق، كانت جارتك فاطمة. تسارعت دقاتُ قلبي وأنا أحمل الهاتف إلى أذني استعدادا لسماع خبر مفزع.

- ألو...

- ليلى حمدا لله أنك صاحية. آسفة لإزعاجك لكن الأمر طارئ.

أجبتها بأنفاسٍ تتقطَّع:

- ماذا هناك يا فاطمة؟ أخفتني؟

- من فضلكِ تمالك نفسك...

- قولي لي ما الذي يجري يا فاطمة؟

ردَّت عليّ مندفعةً:

- لقد نقلنا طارق إلى المستشفى وجدناه غائباً عن الوعي وهو معلق إلى حبل.

صرختُ منفجرة بالبكاء:

- كيف معلَّق إلى حبل؟ كيف؟

بينما كانت فاطمة مترددة وهي تستجمع كلماتها صرختُ فيها من جديد:

- فاطمة لا تخبئي عني شيئا، أخبريني...

سمعتها تقولُ مستسلمةً وأنا على وشكِ الانهيار:

- لقد حاول طارق الانتحار... رأوه جيراننا في العمارة المقابلة قبل الفجر يشنق نفسه ويتدلى جسده. اقتحمنا الشقة ونقلناه إلى المستشفى على وجه السرعة.

- طمئنيني بأنه لازال حيا من فضلك يا فاطمة.

- لم تَبْدُ عليه إشارة حياة، الأطباء يحاولون إنعاشه وإعادته للحياة ونحن في الانتظار...

سألتها مقاطعةً:

- بأي مستشفى أنتم؟
- بمصحة ابن خلدون في حسان.
- ساعة زمن وأكون هناك.

قطعتُ الخط وغدوت أمشي كالمجنونة في الغرفة، شعرتُ بهيستيريا تجتاحني فصرخت بأعلى صوتي. نزعت سترتي ولبست جينزا وقميصا أبيضَ وجدته ملقى على الأرض، أخذت حقيبتي ثم غادرت بسرعة. كانت عيناي تنفجران بالبكاء وأنا في مصعد العمارة أترك رسالة صوتية لأمي فاطمة أطلبُ منها أن تُبقي عندها ليال.

ركبتُ سيارتي ودفعت بها بأقصى سرعة فوق الطريق السيار من الدار البيضاء إلى الرباط. لم يكن لساني يردد سوى جملةً واحدةً على طول الطريق يا ربي ابقي طارق معي. لا يمكنُ لطارق أن يرحل إلى الأبد ويتركني، أنا وطارق لا يمكن لنا أن نفترق، لا يمكن لأحدنا أن يعيش دون الآخر. حتى في الموت لا يمكن للقدر أن يهزمنا.

كنتُ أشعر بأن المسافة بين الرباط والدار البيضاء قد ازدادت وأن ساعة زمنٍ التي تفصلُ بينهما قد استحالت دهراً بالرغم من أن سرعة السيارة لم تنزل عن مائة وأربعين منذ أن دخلت للطريق السيار لم تغادر سيارتي المسار الثالث على اليسار. لم أكن أدري بما يجري حولي، كانت اللافتات تمرُّ من فوقي مدينة المحمدية، بوزنيقة، الصخيرات... كان تفكيري الوحيد هو طارق، كنتُ غارقةً في ملامحه وذكرياتي معه حدّ الوجع.

لم يخرجني من شريط الذكريات إلا إشارة ضوئية كثيفة تأتي من الخلف بالإضافة إلى صوت منبه سيارة قوي ومتقطع رميتُ نظري على المرآة العاكسة فرأيتُ سيارة الدرك الملكي تتبعني، ويشيرُ إليَّ سائقها أن أتجه لأقصى اليمين وأتوقف.

ماذا أفعل الآن؟ لا أكترث لهم وأسرع للقاء طارق الذي لا أعرف إن كان حياً أو ميتاً؟ أو أقف وأضيع الوقت الذي لا أملكه أصلا؟ نقصتُ سرعة السيارة ثم ركنتها في أقصى اليمين. توقفت خلفي سيارة الدرك بدورها. ترجَّل من داخلها ضابط متجهم الوجه، يبدو عليه الغضب في الوقت الذي توجه الضابط الآخر الذي كان معه إلى خلف السيارة حيث وضع إشارة ضوئية. عندما استدار رأيتُ أنها امرأة.

تقدم نحوي الضابط وطرق على نافذة الباب بقوة، أنزلتُ الزجاج ليرميني بصوته:

- مالك ألالة شنو كاين؟ معامن مسابقة؟

فاجأني سؤاله، لم أعرف بما أجيبه. شعرتُ بالبرد يصفع خدي المبلل بدمعي الذي لم يتوقف بعد.

ظلَّ ينظر إليَّ الضابط بتمعن ثم أردفَ قائلاً:

- أوراق السيارة.

لم أجبه حتى هذه المرة، تركتُ أناملي تبحثُ عن أوراق السيارة في الدرج المقابل للكرسي على اليمين. كانت أناملي ترتعش ودموعي لازالت لم تجف وفكري منشغل بالوقت الذي يمرُ دون أن أصل إلى طارق.

بعد أن مددتُ أوراق السيارة للدركي ابتعد عني متوجها إلى سيارة الدرك حيث غرقَ في حديث مطول مع زميلته الضابطة. كان قلقي وتوتري يزدادان أكثر وأناملي لم تتوقفا عن الرقص على مقود السيارة من ألم الانتظار، أكره الانتظار.

فتحتُ الباب وتوجهتُ إليهم وأنا أجري حافيةً حتى وصلتُ عندهم. صحتُ في وجه الضابط:

- من فضلك، أنا مستعدة أن أدفع غرامة أو أسجن حتى فقط لا تأخرني الآن، هناك من ينتظرني بين الحياة والموت.

ردَّ عليَّ بصوتٍ جاف مستفز:

- أنا أقوم بعملي يا سيدتي.

- لكنكَ تؤخرني، هذا الوقت بأكمله لتحرر مخالفة؟!

- يجب أن نبحث إن كانت هذه السيارة مبحوث عنها قبل أن أقرر ما يجب عمله بخصوص مخالفتك للسرعة المسموحة.

التفتُّ إلى زميلته، كانت تنظر إليَّ بتمعن بالغ وبتقاسيم تُظهر شفقتها عليّ. وجهها الجميل والبشوش دفعني للتوسل عندها:

- من فضلك، أنتِ امرأة وتعرفين معنى أن يكون لكِ حبيباً على فراشَ الموت وأنتِ بعيدةً عنه. أتوسل إليكِ أن تتركاني أذهب وبسرعة.

لم تجبني، ظلَّت جامدة رغم أن عينيها احمرّتا وبدت أنها متعاطفة معي. مسحتُ دموعي وصحتُ في وجههما قبل أن أتوجه إلى سيارتي:

- حسنا خذوا كل الأوراق وافعلوا ما شئتم ولنرى كيف ستوقفونني.

قفز الضابط بسرعة نحوي وأمسكني من كتفي قائلاً:

- أنت تُصعّبين المسألة عليك سيدتي وسترتكبين جناية، انتظري فقط ربع ساعة.

صرخت في وجهه بهيستيريا:

- في ربع ساعة سيكون طارق قد مات إن لم أكن بجانبه.

اتجهت نحونا الضابطة، أخذت كل الأوراق من يد زميلها عدا رخصة السياقة ثم مدتهم لي قائلة:

- اذهبي سيدتي، كان الله في عونكِ. ستجدين رخصتك في مقر ولاية شرطة الرباط لاستكمال الإجراءات.

لم أشعر بنفسي وأنا أقبّل خدها شاكرةً إياها ثم توجهتُ إلى السيارة لاستكمال الطريق إلى حبيبي طارق. في أقل من ربع ساعة كنتُ أركنُ السيارة أمام مصحة ابن خلدون وأدخل للبحث عن غرفة طارق، دلتني مسؤولة الاستقبال على غرفته بالطابق الأول.

عندما وصلت إلى الغرفة وجدتُ شخصاً يرتدي بدلة الأطباء ويتجمهر حوله فاطمة وزوجها ورجلين آخرين لا أعرفهما. ما إن رأتني فاطمة حتى صاحت بإسمي وارتمت في أحضاني.

صحتُ قائلة بأنفاسي المتقطعة:

- كيف حال طارق هل فاق؟ أجبوني.

سألني الطبيب:

- هل تقربينه سيدتي؟

أجبته دون تفكير:

- أنا زوجته، كيف هو الآن؟

- لا أخفيك، حالته صعبة وغير مفهومة. توقف قلبه لأكثر من مرة ولحد الآن هو لا يستجيب للإنعاش الكهربائي. يبدو أن حالته النفسية أثرت على عقله الباطن وجعلته يصارع من أجل مغادرة الحياة.

- من فضلك أريد رؤيته.

ردّ عليّ بجواب قاطع:

- غير مسموح بذلك سيدتي، لا يمكننا تعريضه لأي انفعالات كيفما كانت.

صحتُ في وجهه:

- طارق بحاجة لي أيها الطبيب، لن يفده إنعاشكم الكهربائي في شيء وحدها يديَّ وأنفاسي ستعيدانه إلى الحياة.

اتسعتْ عينا الطبيب مستغربا مما قلته. في ذاك الحين سمعتُ صوت فاطمة وهي تستجديه:

- أتركها تراه أيها الطبيب من فضلك، طارق يحتاج لها وحدها الآن.

نظر إليَّ الطبيب مستسلماً ثم فسح لي الطريق لأفتح باب الغرفة وأدخل عند طارق.

وجدته مغمض العينين، فاقدا للوعي. تُحيط به آلات طبية كثيرة لم أعرف منها سوى تلك التي ترسم على شاشتها دقات القلب وسرعة نبضه. كان في الغرفة ممرضتين، واحدة تأخذ قياس الضغط من على يد طارق اليسرى والأخرى انزوت في زاوية الغرفة تعد قارورةً بيضاء خمنتُ أنها قارورة مصل للحقن.

أخذتُ كرسيا كان بالقرب من السرير واقتربتُ من وجه طارق، كان حليقاً نقياً تفوح منه رائحة عطره الخاص invictus كعادته. قلتُ لنفسي وأنا أقرب أنفاسي من وجهه: أتتجمل للموت في لحظات رحيلك يا طارق؟

تركتُ يدي تداعب يده اليمنى وتمسح على أنامله وساعده قبل أن أتلمس بها وجهه وملامحه. أزلتُ الغطاء عن عنقه لأجد هالة زرقاء حوله وجروح صغيرة، لم أتمالك نفسي حتى وجدتني أبكي وأنا أتخيل منظر انتحار طارق. كانت دموعي تنهمر في صمت على مخدته، لمَ أنت جامدٌ هكذا يا طارق؟ لم أعهدك هكذا في حياتي؟

التفتُّ للخلف لأجد الممرضتين لازالتا في الغرفة. صحتُ بهدوء قائلة:

- هل بإمكانكما أن تتركانا للحظات لو سمحتما.

استجابت الممرضتان بهدوء لطلبي، ما إن أقفلتا الباب خلفهما حتى دفعتُ رأسي إلى طارق أسرقُ من هدوئه قبلةً على شفتيه الباردتين، أردتها أن تكون قبلة طويلة عساها تضخُّ في عروقه شوقي ولهفتي عليه كي أعيده إليَّ. همستُ بعدها في أذنه: طارق أنا هنا، ليلى حبيبتك، لا تتركني وحيدة عد لي، أنا من تعود إليها بعد كل قصة حب فاشلة، أنا من تعود إليها بعد أن ترحل للموت في فلسطين، أنا من تعود إليها عندما يضيقُ بك الوطن، طارق أنا هنا، أملكَ في العودة وأملك في الحياة ... أنا وطنك يا طارق، هيا عد لي.

بقيتُ مع طارق قرابة الساعة أنا أبكي وأداعبه وأكلمه وهو جامدٌ لا يحركُ ساكنا، وحده قلبه كان يخفق متعباً كأنه خارج لتوه من أشرس الحروب مع الحياة.

عندما خرجتُ من الغرفة وجدتُ فاطمة وزوجها يجلسان عند الباب، جلستُ جنبهما برفق. كانت أنظارهما ملتصقة بي، متصفحةً ملامحي.

سألتني فاطمة بصوتٍ خافتٍ:

- كيف هو الآن؟

- كما هو... لازال كما هو يا فاطمة. طارق ليس هنا.

ردَّت عليَّ وهي تهمُّ بمعانقتي:

- إن شاء الله سيعود كما كان وأحسن يا ليلى، ابقي قوية هو في حاجة لك الآن.

نظرتُ إليها بامتنان وطلبتُ منها أن تذهب لبيتها هي وزوجها وسأبقى أنا مع طارق لكنها قالت:

- سنذهب يا ليلى، لكن من فضلك تعالي معنا.

- لكنني لا أستطيع ترك طارق لوحده.

- أعرف، ولكن الأمر مهم.

- ماذا هناك يا فاطمة؟

- سأخبرك في بيتنا... هيَّا من فضلك.

كانت ملامحها جادة ومقتضبة. وقفت هي وزوجها ثم التفتت إليَّ، فلم أجد سوى أن أتبعهما.

ونحن في السيارة لمحتُ أن الرباط تلبسُ ملامح حزينة وكئيبة هذا الصباح. كانت هي كذلك تبكي حال طارق؟ هل يمكن لطارق أن يغادر هذا العالم ويترك كل شيء وراءه؟ ثم ماذا يملكُ طارق ليتركه وراءه؟ لا شيء لا يملكُ أحلاما، ولا مشاريع حياة ولا وطن؟ حتى رفاقه غادر الواحد منهم تلو الآخر، غادره الجميع. عاش منفياً في وطنه لا يملك سوى حبنا الذي ولد لقيطا.

عند وصولنا إلى البيت، أخذتني فاطمة إلى غرفة صغيرة في آخر شقتها ثم أغلقتُه بالمفتاح. كانت متوجسة ومرتبكة. سألتها باستغراب:

- ما بكِ يا فاطمة؟ ماذا هناك؟

لم تُجبني، اتجهتْ مباشرةً نحو دولابٍ صغير في زاوية الغرفة. فتحت بابه الأيمن ثم حملت منه حقيبة متوسطة الحجم، لونها أزرق أكادُ أعرفها. نعم، نعم أعرفها، إنها لطارق.

صحتُ في وجهها:

- هذه حقيبة طارق.

أجابتني بارتجاف:

- نعم، إنها له.

فَتحَتها ثم أخرجت منها قطعة ثوب ملفوف بعناية. فتحتها بخوفٍ كبير لتخرجَ منها مسدساً رماديا من نوع سيرديكوف عيار 9 ملم. أعرف هذا المسدس، إنه لطارق، كانت قد أهدته له رفيقتنا الروسية ماريا مايكوفسكي عندما زرنا شبيبة الحزب الشيوعي في روسيا أيام الجامعة.

سمعتُ فاطمة تقول بصوتٍ خافت:

- كنتُ أول من دخل إلى شقة طارق، بجوار جسده المرمي على الأرض وجدتُ هذه الحقيبة والمسدس بالقرب منه. خفتُ أن يراه أحد أو أن تحضر الشرطة وتجده فلففته في قطعة ثوب وأدخلته بعد ذلك في الحقيبة.

أخذته من يدها ثم قلت مستغربةً:

- إنه مشحون، يبدو أن طارق فكر في الانتحار بمسدسه. حمداً لله أنه لم يفعل.

- من فضلك أخرجيه من بيتي.

نظرتُ إلى عينيها، كان يتملكها الخوف ثم قمتُ بسرعة بإزالة مخزن المسدس، وأرجعتُ الماسورة إلى الوراء لأخرج الرصاصة المتبقية فيها ثم فككتُ قِطعه.

كانت فاطمة تنظر إليَّ بعينين واسعتين عندما قالت لي:

- أين تعلمتِ هذا؟

أجبتها وأنا أضع المسدس في الحقيبة:

- لا يهم الآن، سآخذ الحقيبة إلى شقة طارق وأرى ما فيها قبل أن أعود إلى المستشفى.

ما إن هممتُ بفتح باب الغرفة حتى صاحت من خلفي:

- ليلى، وجدتُ أيضاً هذه الرسالة فوق الحقيبة.

أخذتُ منها الرسالة بتثاقل وريبة، كُتبَ على ظهر ظرفها "إلى حبيبتي ليلى المرابط". أحسستُ بالدمع في أعيني فغادرتُ مسرعةً إلى شقة طارق.

ما كدتُ أغلقُ الباب حتى ذهلتُ لخلو الشقة من أي قطعة أثاث، كانت خالية تماماً إلا من أنفاسه التي حرستها الجدران حتى مجيئي، لم تخلُ من ذكرياتنا أيضاً، فها هي الجدران والأعمدة والغرف والأبواب وكل شيء يحكي عن قصة حبنا التائهة، كل شيء في هذه الشقة يحكي عني وعنك يا طارق أجمل الذكريات وأحلى الأوقات.

لم يعد لي منكَ الآن إلاَّ هذه الذكريات وحروف رسالتك هذه التي أقرأها وأنا أفترش أرض شقتنا الباردة وأسلم ظهري لجدران ذاكرتنا:

"حبيبتي ليلى، من غيركِ أكتبُ له كلماتي الأخيرة؟ لمن غيركِ يدق قلبي آخر دقّات الحب ويسقط شهيد غيابك إلى الأبد ... "

30

الرباط – 21 كانون الثاني/يناير 2016

اليوم عيد ميلادكَ من جديد، يبدو أن القدر معجبٌ بقصتنا، فبرغم قسوته احترم إرادتنا في الأخير وسيمنحنا شمعاً جديداً نشعله قربانا لحبنا العنيد. سنحتفل بعمرنا المقبل لكن بلا ذكريات، لم أكن أدري أن حتى ذكريات قصتنا ستغادرك يا طارق وسترحل مع قدرٍ لا يُجيد فيكَ سوى الرحيل إلا بعدما اتصل بي الطبيب هذا الصباح، بعد شهر من دخولك في غيبوبة جراء محاولة الانتحار. طلبَ مني المجيء بسرعة إلى المستشفى لأن خبراً سعيداً ينتظرني.

لم أكن أعرف أن السعادة تأتيني دائما مغلفةً بلباس الخيبة، تأتي دائماً ناقصة. قفزتُ فرحاً حينها وأنا أجزم أنك استعدت وعيكَ وعُدتَ للحياة، عدتَ لي. أصابتني موجة ارتباك وأنا على مشارف لقائك من جديد. بحثت عن الاستمارتين اللتين أعطاهما لي مدير المعهد الكندي وكتبتُ عليهما من فرط سعادتي اسمي واسمك، نعم، سنهاجر إلى كندا وستكون لنا بدايةً جديدة هناك. تُهتُ بعدها في دولابي وأنا أبحثُ عن فستانٍ يليقُ بعودتك لي، فلم أجد سوى الفستان الأسود الذي احتفظتَ به في حقيبتك لعشرين سنة ونجا من محاولة انتحار قصتنا معك.

هذا الفستان وحده يليق بمشهد عودتك هذه المرة... كم فرحتُ عندما لبستُ الفستان ووجدتُ جسدي وفياً لمقاسه، أكان جسدي يضربُ موعداً مع فستاننا بعد عشرين سنة هو الآخر؟ أكان جسدي يتوقُ إليكَ في هذا الفستان يا طارق؟

نصف ساعة هو الزمنُ الذي كان يفصلني عن المكان والموعد المشتهى، عدتَ إليَّ إذن يا طارق. عدتَ من جديد، آه كم مضى من عمرنا يا حبيبي بين الرحيل والعودة. أنتظركَ تارةً في المطارات وتارة في المستشفيات وتارة أخرى على رصيف الزمن. انتظرتُ عودتك لي من الموت في فلسطين أكثر من مرة وعدتْ، انتظرتك أن

تعود لي بعد أماليا وزهرة وسلوان وعدتَ، انتظرتُ عودتكَ لي من غياهب الانتحار وعدتْ، قدرك يا طارق أن تعود لي، أنا وطنك وأنت بدوني لاجئ.

كان الطبيب ينتظرني عند باب غرفة طارق في المستشفى، ما إن لمحتهُ حتى أسرعتُ في خطاي التي كانت أصلا تمشي جرياً إلى طارق.

صاح مجاملا عندما وصلتُ إليه:

- يبدو أن قلبكِ دلَّكِ إلى الخبر الجميل، لو كنتُ أعلمُ أنكِ بهذا الجمال والأناقة لكنتُ حقنتُ طارق بكل أدوية العالم ليستفيق من غيبوبته.

- شكراً لمجاملتك دكتور ياسين، أنتَ تعلم أن حالة طارق جعلتني أنسى نفسي وتبعثرتُ طيلة الشهر الذي ظل فيه غائبا عن عالمنا.

- معكِ حق... أتفهمكِ.

قلتُ له بلهفة:

- اسمح لي بالدخول، مشتاقة جدا لرؤية طارق والنظر في عينيه. أنا غير مصدقة أنه عاد لي أخيراً.

أردتُ أن أخطو نحو الباب، لكنه لم يزح جسده من طريقي. نظر إليَّ بوجهٍ اعتلته حيرة وشفقة ثم قال بتردد وبكلمات مرتبكة:

- ليلى، طارق والحمد لله استفاقَ من غيبوبته، وهذا في حدِّ ذاته هدية كبيرة من القدر، لقد كانت حالته حرجة وعلى مشارف الموت...

قاطعته متوترة:

- يا للفاجعة، عيناكَ تُداريان خبراً مفزعاً أيها الطبيب...

أنزل عينيه مستسلماً، ثم عاد ليخبرني:

- طارق حيّ... لقد نجا من صدمته، لكن ذاكرته لم تنجو، طارق فقد ذاكرته بشكل كامل.

صرختُ كالمفجوعة:

- مستحيل، كيف ذلك؟ كيف يكون طارق بلا ذاكرة؟

أمسكني مواسيا قبلَ أن يُجلسني على مقعد بجانب باب الغرفة. سمعته يقول:

- طارق أصيب بحالة Post-traumatic Amnesia وهي حالة فقدان الذاكرة نتيجة لصدمة قوية. هو الآن لا يتذكر أي شيء عن حياته في الماضي لا أحداث ولا أشخاص ولا أي معلومات...

كان هولُ الصدمة أكبر من أن أحتمله، انفجرتُ باكية بحرقة حتى سقطَ كُحلي سابحاً في قطرات دمعي على فستاني. الأسود يعانق الأسود بالدمع، أهذا هو قدري معك؟ لا تكونُ لي إلا نصف عائد أو نصفُ راحل؟

عدتَ هذه المرة أيضا، لكنكَ غير مكتمل العودة. لم تترك حبيبة أخرى وراءك هذه المرة، لم تترك وراءك جرحاً ماضياً أو قضيةً يتيمةً من دون نضالك... لم يُصبح لكَ قضايا الآن، أصبحتَ مجرداً من الذاكرة ومن الانتماء. أهذا إذن هو المطلق الذي بحثت عنه طيلة حياتك؟ صفيتَ حساباتك مع الوطن والعروبة بأن أزلتهما من الذاكرة؟ أ بعد أن كان الوطن ليس هنا صار طارق ليس هنا؟

مسحتُ دمعي ورتبتُ هيئتي قبل أن أدخل عنده والفضول في أن أرى طارق الجديد يقتلني، طارق بلا ذاكرة. ما إن فتحتُ الباب حتى سقط نظره على نظري، ابتسمنا معاً، لم أعرف ما أقوله حينها، ارتبكتُ أمام ملامحه ونظراته التي تعيثُ فيّ زلازلا وبراكين.

قال لي بصوتٍ خافتٍ:

- انتظرتكِ طويلاً.

أجبتهُ مبتسمةً:

- الله وحده يعلم من انتظر الآخر طويلا يا عزيزي.

لم يمهلني حتى أغوص في ملامحه وأشبعَ من نظراته لأتأكد أنه عاد لي حتى قصفَ قلبي برصاصةٍ غادرة، جاءتني بلهيب الدمع في عينيَّ.

- أنتِ ليلى، أليس كذلك؟

اشتعلت نار حارقة في قلبي، وددتُ لو أصرخ في وجهه وأعاتب ذاكرته الخائنة، لكني تذكرتُ نصيحة الطبيب بألا أضغط عليه وأشعره بذنب فقدانه للذاكرة.

تمالكتُ نفسي وأنا أقفُ أمامه، ابتسمتُ له من جديد وأجبته:

- كيفَ عرفتَ ذلك؟

ردَّ عليَّ بخجل:

- أخبرتني الممرضة أن لي زوجةً اسمها ليلى تأتي لزيارتي كل يوم وأن لي طفلةً أيضاً، اسمها... نعم، اسمها ليال.

لم أتمالك نفسي، انفجرتُ باكية وأنا أرتمي في حضنه، سقطت كل دموعي التي خبأتها عنه طيلة عشرين سنة. كنتُ أبكي بحرقة المفجوعة في قلبها، بكيتُ القدر، بكيتُ الوطن، بكيتُ أيام الجامعة التي نسجنا فيها أحلاما ومشاريعاً أكبر منا، بكيتُ كل القضايا التي ناضلنا من أجلها وخذلتنا وبكيتُ حبيّ الشهيد... بكيتُ طارق الذي يعود إليَّ في كل مرة ناقصاً، هذه المرة يعود ناقصاً من ذاكرته، ذاكرتنا.

لفَّني بذراعيه القويتين إلى صدره وحضنني بقوة كعادته عندما يشتاق لي. ها هو على الأقل لم ينسَ كيف يحضن ليلاه.

سألته وأنا أقبّل جبينه فرحةً بعودته:

- ما الذي حدث يا طارق؟

أجابني سارحاً:

- لا أعرف، استيقظتُ فوجدتُ نفسي هنا وأسئلة كثيرة في بالي. من أنا؟ وما الذي جرى لي حتى أدخل المستشفى؟ ومن أهلي؟ وجدتني لا أعرف شيئاً أو بالأحرى لا أتذكر شيئاً. هرع إليّ الطبيب رفقة حشد من الممرضات سألني أسئلة غريبة وأعطاني أدوية ثم رحل. ترجيتُ الممرضات أن يحكوا لي من أكون، فقلنَ لي أنني دخلتُ إلى المستشفى قبل شهر بعد أن تعرضتُ لحادث وأن لي زوجة وطفلة يزورانني كل يوم... هذا كل شيء.

- ألا تتذكر شيئا قبل دخولك للمستشفى؟

صمتَ برهةً ثم قال متأسفاً:

- لا أذكر أي شيء. فراغ وظلامٌ يلفان مخيلتي فقط.

مسكتُ يده وابتسمت في وجهه قائلة كي أهون عليه:

- المهم أنك عدتَ لي بالسلامة يا حبيبي.

نظر إليَّ مبتسما بدوره ثم قال:

- نحنُ حبيبان إذن؟!

سألته مستغربةً:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أننا فضلاً عن كوننا زوجان، نحنُ حبيبان.

عدتُ لسؤاله مشاكسةً:

- أتحبُّني أنت؟

ردَّ عليَّ باستحياء كنت أعرفه في طارق في أيامنا الأولى:

- شعرتُ بقلبي يطيرُ بحبك مذ دخلتِ من ذاك الباب وسقطت عيناك على عينيَّ.

يالله، أي رحمةٍ منكَ تلفني الآن، أكان لازما عليّ أن أدفع عشرين سنة كاملة من عمري كي يعود لي طارق؟ يا الله، هل تعاطفتَ معي أخيراً ومنحتني بدايةً جديدةً مع طارق؟ نحن فعلا نستحق بدايةً جديدة، فقد أعيتنا أقدار النهايات.

سمعتُه يقول مستدركاً:

- لكن السؤال، هل كنتُ أحبكِ قبل الآن؟ أقصد في ذاكرتي المسروقة؟

استرسل بلهفة بعدما لم يلمح إجابة على شفاهي:

- حدثيني عن ماضينا... حدثيني عن كل الذي كان؟

أجبته بلهفةٍ أكبر من لهفته وأنا أضع قبلةً خفيفةً على خده:

- انسَ الماضي، انسَ الذي كان. سأحدثك عن الذي سيكون.

ابتسم وقال:

- وما الذي سيكون؟

- سنهاجر إلى كندا ونبدأ حياةً جديدة هناك. سنبني بيتا من الخشب بمحاذاة نهر السان لورين بليفيس ونكتب أشعارا بالمساء. سنشيخُ معاً ونحنُ نرقبُ ابنتنا ليال وهي تكبر وتصيرُ عروسا...

خطفني إلى حضنه وعانقني من جديد، كأنه يفرُّ من قدره القديم إليَّ، يفرُّ من قضاياه التي آمن بها ونكّلت به، يفرُّ من وطنه الذي أوجعته مآسيه، وحدي أنا الآن قدره ووطنه.

همس في أذني قبل أن نغرق في قبلة طويلة كانتظارنا الطويل:

- أنتِ وحدكِ أجمل ما سيكون.